Women's Prize for Fiction Futures

العائلة المثالية
خرافة لا وجود لها

السيدة إنجلاند

مكتبة

ستاسي هولز

ترجمة
منى فهمي

ملهمون للنشر والتوزيع
MOLHIMON

إهداء لـ..

الطبيبة الرائعة

من داوت الجسد

بالدواء والأمصال

وكانت شفاء للقلوب

بطيب الكلام والأمثال

راما

السيدة إنجلاند

مكتبة | 1333

◀ **الكتاب:** السيدة إنجلاند
◀ **المؤلف:** ستايسي هولز
◀ **التصنيف:** رواية
◀ **الناشر:** دار ملهمون للنشر والتوزيع
◀ **الطبعة الأولى:** نوفمبر 2022
◀ **التصنيف العمري:** E

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

◀ **الرقم الدولي المتسلسل للكتاب:** **ISBN: 978-9948-458-234**
◀ **إذن طباعة:** **MC-10-01-6687554**

ملهمون للنشر والتوزيع MOLHIMON

مكتبة 6 9 2023
t.me/soramnqraa

◀ **الطباعة:** Fujairah National Printing Press

darmolhimon
www.darmolhimon.com
0097145911660

Darmolhimon | UAE, Dubai, Silicon Oasis | SIT TOWER, Office 2004, 20th Floor

ستايسي هولز

مكتبة | 1333

السيدة إنجلاند

ترجمة: منى فهمي

ملهمون
للنشر والتوزيع MOLHIMON

عن الكاتبة

وُلدت ستايسي هولز عام 1989م وشبَّت في بلدة روسيندیل بمقاطعة لانكشاير. درست الصحافة في جامعة سنترال لانكشاير وكتبت لصحف ومجلات مثل، الجارديان وستايليست وسايكولوجيز والإندبندنت وذا صن وفابيوليس. أصبحت روايتها الأولى، ذا فاميليارز، هي الرواية البكر الأكثر مبيعا لعام 2019م، وفازت بجائزة بيتي تراسك. أما السيدة إنجلاند فهي روايتها الثالثة.

هذه رواية خيالية. جميع الأسماء والأماكن والوقائع والأحداث إما نتاج خيال المؤلفة أو استُخدمت في قالب خيالي.

هذه الرواية مُهداة للعاملين في مصلحة الخدمات الصحية الوطنية البريطانية.

شكرا لكم على ما قمتم وما زلتم تقومون به.

تمساح صغير،

ذيله جميل،

يغرف من ماء النيل،

على جسمه الذهبي الخطير!

بهيجة ابتسامته،

أنيقة مخالبه،

تجذب السمك الصغير لفمه،

وابتسامة لطيفة على فكيه،

مغامرات أليس في بلاد العجائب

لويس كارول

فورتيس إن أردويس

(البأس في الشدائد)

كانت الغابة ليلا أبعد ما يكون عن الصمت. فصدحت طيور السُّبَد [1] والبوم بغنائها الانفرادي الغريب، وسحق حذائي الأحجار المتناثرة في الطريق. وأحاطني من كل اتجاه صوت الماء: حيث انحدرت جداول وغدران صغيرة بلا توقف إلى النهر، في صخب من البقبقة، واللقلقة، والخرخرة. كان المطر قد توقف، وأطل القمر من وراء حجابه الضبابي. أحكمتُ ضم عباءتي حول عنقي، مُدثِّرة وجهي بشالي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

وجدتُ السير أسهل بدون المصباح، الذي أضفى قتامة أكبر على كل شيء خارج دائرته. كان بصيص القمر مُرشدا كافيا، وتكيَّفت عيناي دون صعوبة. غادرتُ ساحة المصنع وتوقفت قليلا على طريق الخيول الذي يمر بمباني الخدمة، ونظرتُ يسارا إلى الأراضي البور ويمينا تجاه البلدة. ثم انعطفتُ يسارا، مارَّة ببركة المصنع، سطحها أملس ومصقول كمرآة وُضعت في وجه سماء الليل. تعرَّش شجر الصنوبر منحدر التل المُطل على الطريق الذي شق الوادي مثل شريط شبحي، وحاولتُ أن أتذكر كيف أصل إلى الكوخ الواطئ المنعزل في الأراضي البور.

1- طائر ليلي متوسط الحجم، من الطيور التي تتمتع بأجنحة طويلة وأرجل قصيرة ومناقير قصيرة جدًا. ويُطلق على بعض الأنواع الجديدة اسم صقر الليل. (ويكيبديا)

كنتُ قد أغلقت باب جناح الأطفال بالمفتاح؛ وهكذا لن يفلت أحد هذه المرة. إن سار كل شيء على ما يرام، فسيكون بوسعي التسلل إلى الداخل دون أن يلاحظني أحد. أما لو عدتُ بعد سيد المنزل... لا، هكذا قلتُ لنفسي، لا تفكري في هذا. واصلي السير فحسب. حملتني ساقاي على الطريق الصاعد، والجرف يلوح إلى يساري كشبح.

"روبي؟" همسة، لا تخطئها الأذن.

كادت الصدمة تتسبب في تعثري. تجمدتُ، متطلعة إلى الجذوع النحيلة والأغصان السوداء. كان عسيرا أن أسمع أي شيء أعلى من صوت دفقات الدم في أذني. وبعد ثوان أتى الهمس مرة أخرى.

"روبي؟ أهذه أنتِ؟"

الفصل الأول
لندن، آب 1904م

عدتُ بجورجينا إلى المنزل من الطريق المعتاد، شرقا عبر حدائق كينسينغتون باتجاه هايد بارك. كانت قد استسلمت للنوم وفي يدها حفنة من زهور الأقحوان، ودفعتُ عربتها على طريق الخيول، مُرسلة تحية برأسي للمربيات الأخريات. كان حذاؤها ينغز طرف العربة المبطنة؛ ولن يلبث أن يتجاوزها قريبا، وشعرتُ بطعنة حداد مُسبقة على الرضيعة التي كانتها. أصبح بإمكانها أن تُجلس نفسها الآن، وهو ما تفعله في الأيام الصحو عند طي مظلة العربة؛ حيث تحب رؤية سلاح الفرسان بأزيائهم الرسمية المؤطَّرة بحروف اسطوانية بارزة وخوذاتهم المزينة بالريش، وكانت السيدات حينها يُخفضن مظلاتهن لمناغاتها.

قرفصتُ لالتقاط دب صوفي ملقى على الرمل جوار عربة أطفال. جلست مربية الطفل على مقعد حديقة تقرأ رواية فلم تنتبه لذلك. خلفها تدافعت مجموعة متشابكة من الصبية الصغار عبر العشب، وتراشقوا الضرب بالعصي.

"آه، شكرًا لكِ،" قالتها المربية وأنا أناولها الدب، فانتبهت لزيِّي المختلف عن بقية المربيات، والمصمم لتمييز النورلانديات عن غيرهن. تحت عباءة بنية أنيقة، كنتُ أرتدي ثوبا قطنيا سميكا لونه بني فاتح مع مئزر كامبريه أبيض موشًّى بالدانتيل. وربطة بلون الكريمة المخفوقة حول عنقي أكملت الزي الصيفي. في الشتاء نرتدي صوفًا

أزرق فاتحًا، أما الأعمال الثقيلة، كتنظيف غرفة الأطفال وإشعال نار المدفأة، فنرتدي لها رداءا قطنيا ورديا صيفا أو شتاء.

"أتمنى لو أنها انطلقت هكذا،" قالتها المربية، وأومأت برأسها إلى القاطنة في عربة الأطفال المسئولة منها: طفلة نحيلة وجادة الملامح وأكبر قليلا من جورجينا، حدقت بي من تحت قبعة شمس بيضاء. "كم عمرها؟"

أجبتُ، "سبعة عشر شهرا."

"يالجمال تجاعيد شعرها. من المؤسف أن شعر هذا الطفلة أملس جدا. إنها تنزع ربطات الشعر التي أضعها لها."

"جرِّبي وضع الربطات وهي نائمة. إن بللتِ الربطات أولا، سوف تجف بسرعة."

أشرق وجه المربية. "فكرة رائعة."

ودعتها وعادت إلى كتابها. عبرنا بوابة ألبرت، حيث انتصبت أيائل سوداء حارسة على أسوار المنتزه، وابتسمتُ للمرأة العجوز التي تبيع دمى الطواحين والبالونات. قبعت طواحين الهواء بجمود في صناديقها الخشبية في انتظار نسمة تحركها عصر ذلك اليوم من شهر آب، ودوَّرت المرأة إحداها بدون حماسة. لم تكن ترد الابتسامة قط، لكنني افترضتُ أنني لا أغدو بالنسبة لها سوى مربية من المربيات. كنا نتوافد على المنتزه بعد الغداء مع رعايانا، فنحتل المقاعد والمروج، ونفرش الأحرمة على الحشيش، ونطعم البط وندفع عربات الأطفال عبر جنائن الورود. بعد ساعة أو ساعتين نمر بها من جديد في طريق عودتنا إلى المنازل لنوم القيلولة وصنع الشطائر قبل النزول بالصغار إلى الطابق الأرضي لرؤية والدِيهم.

كانت جورجينا هي الطفلة الوحيدة لـ أودري ودينيس رادليت، بغض النظر عن كون سيدة رادليت حاملا مرة أخرى. كنتُ قد غسلتُ شراشف جورجينا استعدادا وحددتُ بدائرة مهود أطفال في قائمة معروضات لأريها لسيدة رادليت؛ بما أن جورجينا ستظل تستخدم مهدها عندما يأتي الطفل. كنتُ متحمسة للوافد الجديد، رغم أني لم أجد مرضعة شهرية، وقد تسببت احتمالية مشاركة جناح الأطفال مع شخص آخر ولو لبضعة أسابيع في إثارة رعدة قلق مُسبقة. فقد كان الطابق الأخير للمنزل رقم ستة في حدائق بيريفيل، هو مملكتي، حيِّزي الشخصي: مكتبي ومدرستي وورشتي. أحيانا يتحول إلى غرفة شاي، إن أرادت جورجينا أن تقدم لعرائسها مشروبا؛ وأحيانا أقل يصبح غابة، فنزحف معا على ركبنا فوق السجادة، نطارد الأسود والنمور.

ارتخت كف جورجينا، وتبعثرت الأقحوانات فوق دثارها، فلممتُها بخفة يد ووضعتها في جيبي. كنتُ قد نسَّقتُ الزهور التي نقطفها من المنتزه في جرار على عتبة نافذة غرفة الأطفال، وشرعتُ أعلم جورجينا أسماءها. كانت جورجينا تمتلك حصيلة لغوية مذهلة بالفعل، فتستوعب في صمت إذ أشير بإصبعي إلى الأطباق والملاعق والألعاب والطوابع. "يائل!" كانت قد قالتها بوضوح عصر يوم ما قبل بضعة أسابيع، وهي تكافح للبروز من عربتها لتشير بإصبعها إلى أيائل بوابة ألبرت. شعرتُ حينها بفورة اعتزاز وحب نحو هذه الصغيرة البهيجة والواثقة من نفسها، التي فُتن بها كل من التقاها، والتي أظهرت لهم ذات الافتتان.

على طريق نايتسبريدج، مرَّت الأتوموبيلات بعربات الخيل مُصدرة هديرها وخنقت الشارع بالأدخنة. نظرتُ حولي إلى العمارات السكنية المبنية من القرميد الأحمر، وبائع البطاطا الساخنة، وحافلة بايزووتر الخضراء، وعامل المغسلة الصيني وهو يفرغ حمولة عربته من الشراشف المغسولة حديثا. كان كنَّاسو الشارع يتنحون جانبا لهوانم يرتدين قبعات عريضة في طريق عودتهن من المراكز التجارية، تتبعهن خادماتهن مُحمَّلات بالعُلب. كانت حدائق بيريفال مربعا كبيرا وهادئا يبعد بضعة دقائق عن الطريق العام المزدحم. فيه مجموعة من عشرين منزلا انتصبت حول رقعة خضراء بيضاوية، محاطة بسور معدني أسود ومزروعة بشجر الأرز وشجر الورد. كان منزل آل رادليت عاليا ومُجصصا، تحيط ببابه الأسود المصقول أعمدة بيضاء ملساء. في الطابق الأخير منه جناح الأطفال، مُطلا على الحديقة الطويلة والمشمسة، وعلى حدائق الجيران من الجانبين. احتفظ آل باولر في المنزل المجاور بدجاجات، وسمحوا أحيانا لجورجينا بجمع البيض.

كانت ردهة المدخل خالية وصامتة، وحملت جورجينا إلى الطابق العلوي، حيث تركتني أخلع حذائها الجلدي بلون الكريمة واستقرت في مهدها مع تنهيدة. أغلقتُ الشيش وأسدلتُ الستائر، مُلقية نظرة إلى الشارع لأرى صبي الجزار يقوم بجولاته حاملا سلته. هبط سلم قبو أحد المنازل وعند الباب عاينت خادمة المطبخ محتوياته، مُكوِّمة الرزم في حضنها. قام أبي بجولاته مع دامسون، مُهرنا المطواع، وقد كُتب على جانب عربته بأحرف بيضاء كبيرة، أ.

ماي، بائع خضار وفاكهة مُفتخرة. كنت وأشقائي نتعارك على الجلوس في المقعد المجاور له عند المقدمة أثناء مُضيه في الشوارع، مُلوحا للناس. "فلتأخذي أنتِ اللجام، يا روبارب،" كان يقولها، واضعًا إياه في يدي.

أسدلتُ الستائر.

في الثالثة والنصف، أحضرت لي إيلين شطيرة لحم وإبريق شاي، وأعطيتها نسخة من رواية امرأة شابة كنت قد قرأتها وواحدة من قصص بيني دريدفول [2] لم أقرأها. جلستُ على الطاولة المطلة على الإفريز لآكل، مُجيلة نظري في المكان لأرى ما يحتاج لمسح الغبار عنه؛ ففي الصيف، لا تمضي ساعات من تنظيفي الصباحي، حتى أجد طبقة رقيقة من السخام وقد تسرَّبت من النافذة وغطت كل شيء. على رف الكتب، لمعت الحروف الذهبية من الكعب الأسود لكتاب التزكيات الخاص بي. في يوم التخرج ، قامت مديرة معهد نورلاند، آنسة سيمبسون -والتي ناديناها سيم تحبُّبا- بتسليم الكتب من رزمة برَّاقة. احتوت الكتب على كل شيء قد نحتاجه في بداية حياتنا المهنية، بدءا من خامات الزي الرسمي وحتى الصفحات الفارغة المخصصة للتوصيات. ألصِقت صورتي في الواجهة، أكبر مما أردت؛ حيث بدوتُ صارمة ومُتجهمة، واتكأت إحدى يداي بعصبية على الطاولة جواري.

2- سلسلةٌ أدبية شعبية رخيصة الثمن. يُكلف كل عدد منها قرشا واحدا (بيني). (ويكيبيديا)

في نهاية فترة الاختبار التي امتدت لثلاثة أشهر، منحتني سيدة رادليت في التطريز جيد جدا، وفي دقة المواعيد ممتاز، وفي الهندمة ممتاز، وفي النظافة ممتاز، وفي النظام ممتاز، وفي رباطة الجأش ممتاز، وفي البراعة مع الضيوف جيدا جدا، وفي البراعة مع الأطفال ممتاز، وفي البراعة مع الخدم جيدا جدا، وفي القدرة على تسلية الأطفال ممتاز، وفي القدرة على ترويض الأطفال ممتاز، وفي الكفاءة العامة ممتاز. نلتُ شهادتي في الخريف واحتفظت بها داخل صندوق أمتعتي. أرسلت بعض المربيات شهاداتهن إلى ذويهن لبروزتها في إطار، لكنني تخيلتني أقدمها لوالدتي، وأمكنني تصور حيرتها من وجود ما يُسمَّى بشهادة في رعاية الأطفال.

كنتُ قد انتهيتُ من شطيرتي وبدأتُ أرتب عندما سمعتُ طرقة خفيفة على الباب. "ادخلي، يا إيلين،" هكذا هتفتُ، وأنا ألف نموذج الكرة الأرضية بوصة واحدة إلى اليمين لضبط خط استوائها. لم أتلقَّ ردا.

"سيدة رادليت!" اعتدلتُ في الحال. كانت سيدة منزل شابة، أكبر مني ببضع سنوات فقط ربما في الثالثة أو الرابعة والعشرين من عمرها، ولطيفة جدا وأنثوية. كانت الابتسامة العريضة هي الشكل الطبيعي لفمها، والفساتين الجذابة ودبابيس الزينة اللامعة تبرز الجمال في قوامها الممتلئ وبشرتها الكريمية. كان شعرها بلون الطوفي عندما يُترك لتهدأ سخونته على الموقد، ودائما ما تصففه وفقا لأحدث صيحات الموضة بالمجلات. كان شعري خفيفا وغامقا ويرفض أي محاولة لرفعه. وبشرتي تسمرُّ بسهولة، ومع قبعة نورلاند التي لا توفر أي ظل، حرصتُ دائما على الابتعاد عن الشمس.

"طاب نهارك، يا دادة ماي،" قالتها سيدة رادليت. وكانت دمثة وتحب المداعبة؛ وأكثر ما تفضله هو لعب دور الوقورة والملتزمة بالأصول، وإن كانت المزحة تفقد معناها معي. "هلا انضممتِ لي في الصالون عندما يتاح لكِ بعض الوقت؟"

"بالطبع، يا سيدتي، سآتي الآن. آنسة جورجينا تحظى بقيلولتها."

تبعتها داخل المنزل. كان الطابق الأرضي وجه النقيض من طابقي الهادئ، بقواعده ومعاييره ومواعيده، والتي لم أكن جزءا منها لحسن الحظ. لا تعتبر المربيات ضمن الحاشية، كونهن يقعن في تلك المنزلة المُربكة بين أهل المنزل وخدمه، دون انتماء لأي منهما. حذرتنا سيم من أنها قد تكون مهنة موحشة: بلا أصدقاء، كما وصفتها. لكنني كنت بلا أصدقاء معظم حياتي، ولم أجد سوى المتعة في ساعات الشغل، والسلام في ساعات الهدوء. صباحا آخذ جورجينا إلى غرفة الطعام، وفي المساء إلى غرفة المعيشة، حيث كرَّس سيد وسيدة رادليت ساعة لتسليتها قبل العشاء. فيعزف سيد رادليت على البيانو بينما ترقص سيدة رادليت مع ابنتها، ترفعها في الهواء وتساعد قدميها السمينتين على السير عبر السجادة. كانا يبتهجان برؤيتها وكأنهما غابا عنها أسبوعا، وأحيانا ما انتحبت جورجينا عندما أحملها إلى جناح الأطفال مرة أخرى، فتمدُّ ذراعيها للخلف ناشدة والدتها. كنتُ أهمهم لها بتهويدة على السلم، "لنرتقي التل الخشبي ونمشي في حارة الشراشف.[3]"

3- التل الخشبي هو سلم المنزل، وحارة الشراشف هي الفراش.

ولحظة أن يُغلق باب جناح الأطفال تكون في الغالب قد نسيت لوعتها. عندما تتعب تمص إبهامها، وفي كل مرة أخرجه من فمها النائم والغارق في اللعاب عندما تأتي سيدة رادليت لتمنحها قبلة ما قبل النوم.

كانت غرفة الصالون في مقدمة المنزل، نادرة الاستعمال وخانقة في الصيف، حيث تُقفل نوافذها لمنع دخول الغبار من الشارع. أغلق الشيش في وجه الحر، وأمامه تنسدل ستارة دانتيل دون تنسيق. كان منزل آل رادليت أنيق الأثاث ومليئا بالتحف؛ حتى أن لسيدة المنزل مكتبتها الخاصة. كانا زوجين مُثقفين وذوا باع في السياسة. لا يخلو منزلهما أغلب الوقت من الضيوف ويُدعى الأصدقاء كثيرا لزيارته، فيملؤونه بدخان السيجار ويخلّفون حلقات لزجة من الشيري على الأخونة، ويزخرفون شماعة القبعات بالريش والأشرطة، فتضحى شبيهة بشجرة غريبة من الطيور النادرة. لم يزعجني الأمر كثيرا كوني في أعلى المنزل، إلا أن سيدة رادليت كانت بين الحين والآخر تطلب مني إحضار جورجينا لتقبيلها وتمريرها على الضيوف قبل النوم. هي تذعن لي دائما، وتستفسر مني بأدب عن نظام ابنتها الغذائي وبرنامجها اليومي؛ لم يكن ثمة أي شك في أيّنا المسئول.

قالت الآن: "اجلسي من فضلك." فجلستُ على مقعد وثير بجواره إصيص سرخس.

"لدي أخبار مُفرحة." وضعت سيدة رادليت يدها على بطنها المُكوَّرة. بدأ الحمل في الفترة الأخيرة يمحو تقويسة خصرها، وكانت إيلين قد أرخت كل تنانيرها. "منذ أسابيع وأنا أتلهف لإخبارك، لكن سيد رادليت منعني إلى أن يتم الاتفاق على كل شيء وإتمامه، وهو ما حدث ليلة البارحة، لذا بوسعي الآن مشاركتك."

شعرت ببارقة إثارة وسوَّيت مئزري.

"كما تعرفين، فسيد رادليت يُحسن عمله بصورة ممتازة في دالبيرغ آند هاورد. ممتازة جدا حتى أنَّ-" تكلمت ببطء ثم تأنَّت وكأنها تريد إضفاء تأثير درامي "-حتى أن الشركة سوف ترسله إلى شيكاغو، ليعمل هناك بصفته كبير مهندسيهم المعماريين. سوف يصمم جامعة، يا دادة ماي، أليس ذلك رائعا؟" وصفقت، وهي لا تكاد تتمالك نفسها.

واصلت بنبرة سريعة، "نريدكِ بالطبع أن ترافقينا، لتكوني مربية جورجينا هناك. أرجو ألا تكوني قد تخيلتِ ولو لثانية أننا سنذهب بدونك! آه، قولي أرجوكِ أنكِ ستأتين. إن سيد رادليت يبحث لنا عن منزل الآن. لن تصدقي ما يمكنكِ الحصول عليه في أمريكا - قصور حقيقية مقابل قروش حرفيا! وهناك حدائق رائعة ومتاجر ومبان جديدة تُشيَّد طوال الوقت. يا إلهي، سيكون طفلنا القادم أميركيا. يا للروعة! لم أفكر في ذلك حتى اللحظة. كم هو غريب." لاح تعبير دهشة طفولية على وجهها.

"شيكاغو،" كان ذلك كل ما أمكنني قوله. بدا وقع الاسم، حتى وهو يأتي من فمي، أجنبيًّا وساحرا. كوني قادمة من ضاحية سوَّدها الدخان في برمنغهام، ظننتُ لندن هي أكثر الأماكن إثارة على وجه الأرض، لكن شيكاغو بالنسبة لي كانت بعيدة بُعد المريخ. حسبتُ الوقت الذي سيستغرقه خطاب في الوصول إلى هناك، والوقت الذي سيستغرقه طريق العودة إلى الوطن، وتكوَّن شيء صلب مثل حصاة في معدتي.

قالت سيدة رادليت: "أجل، يجب أن نحزم متاعنا ونشحن أغراضنا، لذا سيستغرق هذا بعض الوقت. لكننا نأمل أن نستقل الباخرة خلال شهر أو شهرين؛ لأنني أعرف أن دينيس يريد أن يبدأ في أسرع وقت. سوف نرسو في نيويورك ومن هناك يمكننا أن نركب القطار. أتوقع أننا سنبقى في نيويورك لبعض الوقت، أليس هذا رائعا؟ لطالما رغبت بالذهاب إلى هناك. دادة ماي، هل أنتِ بخير؟ لا تبدين على ما يرام."

"نعم، يا سيدتي."

"آه، قولي أنكِ ستأتين. ستأتين، أليس كذلك؟"

"أخشى أنني لا أستطيع ذلك."

صمت. تكّت عقارب ساعة المكتب، وراقبت كلاب السَّبنْيَل الخزفية بسكون من فوق المدفأة. لم تكن سيدة رادليت قد توقعت ردي وحاولت التماسك، وهي تربت على بطنها تلقائيا. "لماذا لا يمكنكِ؟ لا بد بالطبع أن تأخذي أجازة لبضعة أيام قبل رحيلنا لتوديع أهلك."

لم أستطع النظر في عينيها فحدقتُ بالسجادة.

"دادة ماي؟ ظننت الأمر سيسرك."

"أوه، أنا كذلك، يا سيدتي. أنا في غاية السعادة لأجلكما أنتِ وسيد رادليت."

"ولكن ليس لأجلك. هل أنتِ تعيسة معنا؟"

"كلا. أنا سعيدة جدا هنا."

"لماذا ترفضين المجيء إذن بحق السماء؟ لا أستطيع بأي

حال تخيل الذهاب بدونكِ، يا دادة ماي. لم أضعه حتى كاحتمال! ولن أفعل. إنكِ مثل فرد من عائلتنا، وجورجينا تحبك. وأنا أحبك، وكذلك دينيس." تهدَّج صوتها وعلت نبرته، وأدركت بارتياع أن ربَّة عملي توشك على البكاء.

أنا نفسي شعرتُ بحلقي يضيق، وأنفي تلسعه الدموع. "شكرا لكِ، يا سيدتي. أنتِ طيبة جدا معي، أنتِ وسيد رادليت. كما أنني مولعة جدا بآنسة جورجينا."

"لماذا ترفضين المجيء إذن؟ هل هو راتبك؟ سأحادث دينيس في زيادته، لو أنه السبب."

هززتُ رأسي نفيا. "إنه ليس كذلك."

"هل أنتِ مريضة إذن؟ أو... عُرض عليكِ الزواج؟" غمرها الارتياح. "هل أنتِ مخطوبة؟"

"لا شيء من هذا القبيل."

"رباه، ما السبب إذن؟"

"إنهم أشقائي،" أجبتها. "لا يمكنني تركهم."

اكتوت بالفزع والفضول. "اغفري لي فظاظتي، لكنني ظننتُ والديكِ على قيد الحياة؟"

"هما كذلك، يا سيدتي."

"هل أصيب أحدهما بالمرض؟"

"كلا."

"عاطلان عن العمل؟"

"كلا."

"لماذا لا يمكنكِ تركهم إذن؟"

اختنق صوتي من الحزن. "أنا آسفة جدا، يا سيدة رادليت."

تراجعت في جلستها بصمت مذهول. وعلى الجهة الأخرى من الساحة أنزلت عربة ركابها، ثم تابعت رحلتها؛ علت دقات حوافر الحصان حتى ذروتها خارج النافذة، ثم خبت. فكرتُ في جورجينا النائمة في الأعلى، وجرار المربى المتراصة فوق عتبة النافذة، والأقحوانات في جيبي، التي لا بد قد ذبلت الآن. فكرتُ في الشاي وهو يفتر داخل الإبريق الذي جلبته لي إيلين ، ونسخة قرأتُ نصفها من دورية وومانز سيغنال كنتُ قد طويتها جوار المقعد لأكمل قراءتها لاحقا، وكيف أن جناح الأطفال في مساء ممطر، مع هسيس واختلاجات منافث الغاز، هو أكثر مكان مريح عرفته قط. سوف تستيقظ جورجينا قريبا وتناديني، قريرة العين في علمها أنني سأرفعها من مهدها وأعطيها ثمرة كليمنتين أو بسكوتة سكر. لم أستطع النظر إلى والدتها، لأن الدموع كانت تغشي بصري. خيَّم على الغرفة صمت عميق حتى أنني سمعت قلبي ينكسر، وكان وقعه كعنق أقحوانة ينقصم.

الفصل الثاني

"دادة ماي". كانت نبرة المديرة حيادية؛ حيث أجابت الباب بنفسها.

كانت تسعة أشهر قد مرت منذ رأيت سيم آخر مرة، لمَّا رافقتني إلى بيريفال غاردينز لفحصي: قدمت لنا إيلين القهوة وكعك المادلين في غرفة الجلوس فيما دونت المديرة ملاحظاتها وحامت سيدة رادليت حولنا. الآن، وأنا أمامها وجها لوجه، تبخَّر ذلك الوقت وكأنه لم يكن. كنت مُتعرِّقة وعصبية كما كنت في بدايتي، وقاومتُ رغبة ملحة في مسح جبيني. تبعتها إلى الداخل وأغلقتُ الباب الأسود الثقيل خلفي.

داخل البهو المطلي بالكلس، هرعت الروائح المألوفة لتحيتي: الخبز الطازج والصابون الكربوليكي والشراشف النظيفة ونشارة الأقلام الرصاص. طغت على المكان روائح أنثوية، لفتيات يتنقلن بين الغرف، يفحن بالعطر والعرق. بدت كرائحة التعلم بالنسبة لي. كان المنزل الواقع في ميدان بيمبريدج قصرا لامعا مقارنة بالمبنى الدراسي في بالسال هيث، ذاك المكان الممل والبائس، حيث رقص غبار الطباشير في الضوء الذي جاهد للتسلل من النوافذ القذرة. في صغري، كان التعليم ينتهي مع جرس المدرسة. وانشغل والداي بالمتجر عن تعليمنا، فكنتُ أجلس مع إخوتي وكتبنا في الأماسي. تيد الأصغر مني بثلاث سنوات وآرتشي الأصغر بخمس سنوات كانا يحبان التعلم إلا أنهما تشاجرا خلال دروسي. أما رابي، الأصغر مني بخمسة عشر شهرا، فكان بطيئا وعزوفا، وخطاباته تعجُّ بالأخطاء إلى الآن.

وقع معهد نورلاند في فيلا بيضاء كبيرة في ميدان بيمبريدج، تبعد عشر دقائق شمالا بالتاكسي من بيريفال غاردينز. كنتُ قد غادرتُ في الصباح، وودتُ لو رحلتُ سيرا عبر حدائق كينسينغتون، بيد أن آل رادليت أصروا على توديعي في سيارة أجرة؛ على أن يلحق بي صندوق أمتعتي في عنواني الجديد. كان الوداع بغيضا كما توقعتُ بالضبط، وجبين جورجينا متغضن في ارتباك بين ذراعي والدتها. رفعت سيدة رادليت إحدى يدي ابنتها وجعلتها تلوح لي، وبكت عاليا أثناء انطلاق سيارة الأجرة. كان ذلك أكثر من المحتمل؛ أشحتُ بعيدا وألصقت محرمتي بوجهي.

كان المعهد هو الأول من نوعه: فهو مدرسة ومنزل ووكالة تشغيل لمربيات الأطفال. منذ ما يزيد قليلا عن عامين، كنتُ قد خضعتُ لامتحان القبول في منحة مود ستيبينغز، وبمعجزة ما، نجحت. لم أكن قد فهمت أيا من الأسئلة: أسردي قصة إينوك آردن. صفي الطريق إلى الشوارع والمتاجر التالية في لندن؛ اكتبي وصفة مربى البرتقال. لم أكن أعرف من إينوك آردن، ولم أكن قد غادرت برمنغهام إلا مرة واحدة في حياتي، لذا كانت أماكن غوتشز وهارودز وآركيتس غريبة عني كغرابة قصر باكينغهام وبرج لندن. لكنني كنت أعرف طريقة صنع مربى البرتقال: كتبتُ وصفة جدتي ثم وضعتُ القلم الرصاص على المكتب ونظرتُ بإحباط بائس إلى باقي الفتيات من حولي، وكنَّ جميعهن يكتبن خاليات البال، وكأنهن اعتدت الامتحانات منذ الأزل. في عصر ذلك اليوم ظننتُ أنني لن أرى لندن مرة أخرى. كان كفيليَّ هما سيد وسيدة غرانفيل، اللذين

أقاما في الشارع المجاور واعتنيا بنا مرة أو مرتين عندما كنا أطفالا؛ اشتريا لي زجاجة سارسبريلا من متجر وايتليز قبل أن يصحباني إلى القطار، وبقلب مُثقل عدت إلى الميدلاندز. لا أحد فوجئ أكثر مني عندما حطت الرسالة على حصيرة المدخل في شارع لونغمور، تبلغني أنني معفيَّة من الرسوم الدراسية البالغة ٣٦ جنيها، وقد اضطررتُ للبحث عن معنى معفيَّة في المكتبة العامة. كان علي أيضا أن أشتري، على نفقتي الخاصة، أقمشة الزي الرسمي من تاجر أقمشة يُدعى ديبينهام آند فريبودي؛ وأنفقت في ذلك كل مدخراتي ولم يتبقى سوى ما يكفي لشراء دفاتر وأقلام رصاص. ثم لم ألبث أن اكتشفت أن جميع الفتيات الأخريات يستخدمن الأقلام الحبر الجافة.

كانت الأشهر التسعة التي قضيتها في نورلاند في أغلبها سعيدة أيما سعادة. كنتُ في البداية متوترة وانطوائية، ولم أمتلك ربع ثقافة أو ثقة زميلاتي الأربعة وعشرون. الوحيدة التي تحدثت بنفس لكنتي هي واحدة من الخادمات. تشاركتُ غرفة نوم في مؤخرة المنزل مع فتاة أيرلندية تدعى بريدجيت، شعرها أسود وأنفها معقوف بحدة كغراب. كانت ودودة وواضحة، وحالما تجاورنا في الفراش، ذاب التوتر بيننا.

لكنه عاد الآن، مألوفا كعباءة قديمة، بينما سيم تغلق الباب بعدي. كانت ضئيلة ونحيفة، أقرب إلى دمية، لكن ملامحها لم تكن كذلك؛ فخطَّ لون الفولاذ غرَّتها البنية المموجة وكذلك أسلوبها. إلا أنها كانت مديرة مُنصفة وكريمة، لا تترفع عن تنسيق فناجين الشاي وتوزيع الخطابات. كانت العضو الوحيد من هيئة التدريس التي تقيم

في المعهد، رغم أني لم أرها إلا في ثوبها الصوفي الأنيق والساعة الذهبية عند خصرها؛ لذا تساءلت التلميذات متى تستحم. كانت نصيحتها الأخيرة لكل من ترحل هي ضرورة وضع فرشاة الشعر الفضية في مكان ظاهر بمنزلها الجديد، ليراها الخدم. لم أكن أملك سوى مشط، لكن سيم لم يفتها شيء؛ ففي الأسبوع الذي سبق التخرج وجدتُ علبة من ويليام كومينز على تسريحتي. بداخلها تستقر فرشاة شعر ظهرها فضي، ثقيلة كطبنجة، وأسنانها يابسة كدبابيس.

قادتني إلى مؤخرة المنزل حيث مكتبها، لنمرَّ بتلميذتين في بزتيهما تهبطان الدَّرج. تناولتا عباءتي وقبعتي بابتسامة خجلى. إلى اليسار كان مطعم المدرسة، حيث المزيد من الفتيات في بزَّات بنية وبيضاء منكفئات على كتبهن وأقلامهن المعضوضة. أدركتُ بغصة حنين للماضي أنه موسم الاختبارات. لم تكن هناك حصص في أيام السبت، وظل الباب مفتوحا على قاعة المحاضرات: وهي حجرة عالية السقف بها خزائن كتب بدرف زجاجية وتشكيلات زهور جديدة، موشَّاة في فصل الربيع بزهور الفيرونيكا الزرقاء، والتي هي شعار نورلاند. خلف المكتب تحتل خريطة للجزر البريطانية أحد الجدران، وإلى جواره بيانو حائطي. فوق خزائن الكتب علِّق بساط جداري، طوله أربعة أو خمسة أقدام، لأسد يتسلق تلا.

حددت لوحة نحاسية كُتب عليها: م. سمبسون، المديرة، حجرة مكتبها، وأغلقت الباب خلفنا. كانت النافذة مفتوحة على الفناء البعيد، وازدحم المكتب بفناجين شاي وجرائد وأعقاب شمع وسنون حبر. وثمة نبتة بيجونيا قد ذبلت في أصيص جوار ثقالة ورق خزفية

ملونة. على الجدار عُلقت خريطة لأحياء لندن، مغروزة عليها دبابيس حمراء تحدد مواقع المربيات. بجانبها خريطة للإمبراطورية، عليها دبابيس بعيدة حتى الهند، وقريبة حتى باريس. تكومت كتب ومجلات عشوائيا داخل خزائن الكتب المتراصة أمام الجدران، ورأيتُ على أحد الرفوف صورة مؤطرة لأول دفعة من مربيات نورلاند، خمس فتيات خجولات في قبعات ومآزر، على جانبيهن تقف سيم وسيدة وورد، مؤسسة المعهد، يطل وجهها المستدير رؤوفا من تحت قبعة عريضة. كان الجو العام في مكتب المديرة قريبا من فوضى بوهيمية. سيم خريجة جامعة وعزباء، وقد حركت داخلي مزيجا من الخوف والحسد. كانت أكثر شخص احترمته.

"لقد خاب أملي عندما استلمتُ خطابك،" قالتها، وهي تزيح جريدة ذلك الصباح من على مقعدها وتخوض مباشرة في الموضوع. "الاستقالة ليست أمرا يُستهان به في نورلاند. أتطلع لسماع أسبابك، لكن قبل أن أفعل-" جذبت حبل الجرس المجاور لمكتبها "-فلنحتسي فنجانين من الشاي."

كانت هذه سابقتي الأولى: لقد دخلتُ مكتب سيم مرة أو مرتين من قبل إنما لم تُقدَّم لي أية مشروبات. توقع جزء مني أنني لم أعد تحت الاختبار، وأنها ستقابلني في غرفة الجلوس، حيث يُستقبل العملاء وحيث الأثاث للعرض فقط، فلا يُسمح للتلميذات بدخولها إلا في أعياد الميلاد، حيث تُنشد الترانيم حول البيانو الكبير عند النافذة. ورغم ذلك، كانت الخادمات ينفضن عنها الغبار مرتين في اليوم.

تحدثنا عن الحر، وعن رحلتي إلى ميدان بيمبريدج ذاك الصباح، وبعد دقيقة أو دقيقتين، أحضرت الخادمة صينية الشاي، وبمعجزة ما وجدت فضاءً على المكتب.

بعد أن صبَّته، قالت سيم: "حسن، يا دادة ماي. لقد استقلتِ. هلا حدثتني عن ذلك؟"

أخذتُ رشفة، وأحدث صحن الفنجان صلصلة. "سيد وسيدة رادليت سيهاجران. إلى شيكاغو. في أمريكا،" أنهيت جملتي بصوت ضعيف.

عينا سيم الزرقاوين ثابتتين على وجهي. "وأنتِ لا ترغبين في الذهاب."

هززتُ رأسي بضعف.

"كما تعلمين من تعيينات قريناتك، تُرسل نسبة مُعتبرة من خريجات نورلاند إلى الخارج. تفضل العائلات الأجنبية مربيات إنجليزيات أكثر حتى من العائلات الإنجليزية. كنتِ تعلمين أن السفر احتمال وارد عندما بدأتِ دراستكِ، أليس كذلك؟ إنها إحدى السحوبات الرابحة في نظر بعض التلميذات: تذكرة مجانية للعيش في بلد آخر ورؤية أماكن أكثر من العالم."

"لا أرغب في الهجرة."

كانت طريقة سيم في الجلوس بديعة. أدنت ذقنها لتمعن النظر في وجهي. "هذا حقك، ولكن ما هي الأسباب؟"

لم أقل شيئا ونظرتُ في فنجاني.

"حياة جديدة في أمريكا قد تكون شيئا بديعا، يا دادة ماي.

إنها بلد حديثة ومتحررة نسبيا في قيمها وسياستها. ليست مكانا سيئا لامرأة شابة. لقد أرسلتُ العديد من المربيات إلى ما وراء المحيط الأطلسي وطابت لهن الحياة هناك كثيرا. في الأسبوع الماضي فقط ذهبت مربية إلى بوسطن، ولنا مربيتان أو ثلاثة في نيويورك. وهناك في الواقع فتاة من دفعة ٩٧ على متن باخرة إلى نورث كارولينا، في هذه اللحظة، للعمل عند آل فاندربلت."

حدقتُ في ثقالة الورق. كانت زهرة الفيرونيكا مرسومة بصورة رديئة؛ هي بلا شك هدية من مربية لقاء تكليفها.

"لكنكِ لن تغيري رأيك."

"أخشى ذلك، يا آنسة سيمبسون. تأملتُ أن تجدي لي مكانا آخر."

ظهر عليها التضارب، ثم أعادت رسم ملامحها إلى استسلام مرهق. "بصراحة، يا دادة ماي، ليس يسيرا بالنسبة لي أن أجد لكِ مكانا جديدا. فالعديد لا يزالون في منازلهم الريفية ولن يعودوا إلا بعد شهر أو يزيد، والباقي سيسافرون. كما أنكِ في منافسة مع الفتيات اللائي سيتخرجن قريبا، وعلي تأمين أماكن لهن أيضا للحفاظ على مستويات توظيف خريجاتنا. لقد أرسلت لي سيدة رادليت لطلب مربية أخرى، وقد اخترت واحدة مبدئيا. ومع ذلك، فقد كانت تزكيتها في حقكِ حماسيَّة. وبالمناسبة: كتاب التزكيات الخاص بكِ." ومدت كفا صغيرة.

كنت قد تجهَّزتُ لهذا، فحملته تحت ذراعي طوال الرحلة. ناولتها إياه من فوق المكتب. نبح كلب من مكان بعيد وهي تقلب

الصفحات، لتجد مشاركة سيدة رادليت وتقرأها وهي تمسك بالصفحة بين إصبعها وإبهامها. رغم أن سيدة رادليت مُتعلمة، إلا أنها غمرت عباراتها بعلامات التعجب والشرطات والعبارات التأكيدية، ما جعلها تبدو لهوفة وصبيانية. كانت قد أعطتني هدية وداع: محرمة حريرية طُرِّزت بالأحرف الأولى من اسمي، ونسخة جديدة من ساحر أوز العجيب.

حاولت ألا أفكر في المربية التي ستعلق بزَّتها في الخزانة وتنام في فراشي. ربما لن تشعر جورجينا بالفرق، ولن يمضي وقت طويل حتى تنساني بالكامل. دمعت عيناي مرة أخرى. كانت محرمتي متعرقة وملطخة بالتراب جراء السفر؛ فمررت لي سيم واحدة نظيفة أخذتها لأتمخَّط وأرسل تنهيدة.

قلت: "أنا آسفة. لا أعرف ما الذي أصابني."

"غرفتكِ القديمة فارغة حاليا؛ فدادة جينكينز في وظيفتها بروضة الأطفال. بوسعكِ البقاء ليلة أو ليلتين، ويمكننا تصفح طلبات المربيات المُقدَّمة لنا عصر اليوم، إن سمح وقتي-" نظرت في ساعتها "-أو صباح الغد. وبعدها عليكِ العودة إلى منزلكِ إلى أن نجد لكِ عائلة جديدة. أين منزلكِ مرة أخرى؟ برمنغهام؟"

"لا. أعني نعم، إنه في برمنغهام، لكن لا، لا أستطيع."

رمشت بارتباك. "حسنا، أخشى أنكِ مضطرة لذلك. فدادة جنكينز ستعود في نهاية الأسبوع، ثم ستصل التلميذات الجديدات في الأول من سبتمبر." تأملتني للحظة. ثم أضافت بلطف أكبر، "لا أحد يستمتع بالعودة إلى منزله جارًّا أذيال الخيبة، خاصة وقد اعتمد على

نفسه وحاز شيئا من الاستقلالية، لكن ذلك لن يطول. الأجازة هو ما تحتاجين. كم تبقى من بدل أجازاتكِ لهذا العام؟"

"كلها."

أثار هذا استياءها. "إنني أوبخ المربيات باستمرار على إهمالهن أخذ أجازتهن. إن بدل الأجازة سخي لسبب؛ الراحة ضرورية في هذا النوع من العمل. المربية المُستنفذة هي مربية بائسة."

قلت: "لا أستطيع أخذ أجازة. أحتاج لإيجاد وظيفة أخرى. أرجوكِ، يا آنسة سيمبسون. إنني أرسل لأهلي نصف أجري كل ثلاثة أشهر، ولا يمكنني تحمل اقتصاص الشهر القادم منه."

لانت وتنهدت. "ماهي وظيفة والدك؟"

"إنه يعمل في البقالة. وإخوتي في المنزل، أربعتهم. الصبيان يعملون وشقيقتي إلسي -هي في الحادية عشرة الآن- مازال أمامها عام دراسي. لكنها تغيب كثيرا لأن لديها علة في أطرافها. والسبب هو عمودها الفقري. هي لا تستطيع المشي لمسافات طويلة ولديها عرجة. معظم الأيام تكون بخير، لكنه يظهر فجأة، لذا لا تُحسن حمل الأغراض، أو تشغيل آلة تسجيل النقدية. إنها توقع الأشياء وتصاب بالإحباط، و... حسنا، أريدها أن تواصل الدراسة. يمكنها الكتابة بيديها الاثنتين؛ تدربت على ذلك، في حال توقفت يمناها عن الحركة."

بدت سيم كمن اتخذت قرارها، فوضعت صحن فنجانها وفتحت درجا في مكتبها، وأخرجت منه كومة صغيرة من الخطابات. "كنتُ قد ألقيتُ نظرة سريعة على طلبات المربيات التي وردتنا، ولكن

كما أخبرتكِ، فالصيف موسم شحيح مقارنة بغيره. حيث يدبر الجميع أمورهم قرب عيد القديس ميخائيل، وبالنسبة لمربية لها عام واحد من الخبرة... ماذا لدينا هنا...؟" اعتصرتُ قفازاتي فوق حجري وقد خيَّم عليها الصمت، فيما تبحث بين الأوراق. "كان هناك خطاب من سيدة في سانت جونز وود... أين هو...؟ آه أجل، تعرض فيه راتبا سنويا قدره ثلاثون جنيها. لن يكون ذلك مناسبا. سوف أرد عليها بأسعارنا."

سألتها، "هل تقوم الكلية بالإعلان؟"

"كلا بالطبع. لم نفعل ذلك قط، وسيدة وورد لا تريد أن تبدأ. لنرى، ها هو طلب من ممثلة مطلقة. حسنا، لن يكون ذلك مناسبا على الإطلاق."

قلت: "لا أمانع."

"حسن، أخشى أنني أفعل."

خطاب آخر حُلَّ من طيَّته.

"هذا الطلب من سيدة تُدعى تشارلز إنغلاند في يوركشاير." انتظرتُ أن تكمل. "أرجو إرسال صورة فوتوغرافية مع كل البيانات وإخطاري بالراتب الذي تطلبه مربياتك... هذا مناسب قليلا، ولكن أين كان...؟" تصفحت الأوراق المتبقية والمكتوبة بخط أنيق. "رأيتُ طلبا من سيدة في... آه أجل، ميدان إدواردز. سيدة أسكيو-لينغ. لماذا يبدو هذا الاسم مألوفا، أسكيو-لينغ؟ رشَّحت لي صديقتي العزيزة، سيدة هنري كادوجان، معهدكم التعليمي... أسكيو-لينغ، أسكيو-لينغ. أيُحتمل أن يكونوا باعة المزاد؟" رطبت سيم شفتيها

وقطبت جبينها بشدة أمام الخطاب، وهي تقرأه مرة أخرى. "عليَّ مراجعة سيدة وورد، لكنني شبه متأكدة أنهم أصحاب دور المزاد."

تهلل وجهي واعتدلتُ أكثر في جلستي.

"أجل، لديهم فروع في بيكاديللي ونيويورك، كما أظن. آه،" هكذا ختمت جملتها، لما رأت خيبة الأمل على وجهي، وفهمت سيم السبب. "لا سفر للخارج. يجدر بي تخمين أن عائلة كهذه تقضي جل وقتها خارج لندن، ولن يكون من الذكاء سؤالهم. أخبريني، هل اعتراضكِ على الهجرة فقط، أم السفر عامة؟"

"لا أمانع ركوب القطار وما شابه، كل ما هنالك أنني لا أستطيع الانتقال إلى بلد آخر." كنت أشعر بسخط يتزايد من تعالي سيم، وكأن رفضي هو رفض لاعقلاني مائع. لكنني أدرك أن العمل بالنسبة لها خيار وليس ضرورة؛ فهي لم تقف قط في طابور لإرسال حوالة نقدية إلى عائلتها، ولن تفهم أبدا.

"أخشى إذن أن خياراتكِ محدودة، يا دادة ماي، لأن العائلات التي تقدم طلبا لنورلاند تتوقع مرونة لدى المربيات. لو أمكنكِ الصمود لأسبوع أو اثنين، فسأنظر في الطلبات الجديدة، لكن عليَّ أيضا وضع خريجات هذا العام في الاعتبار. لقد تقصَّت سيدة وورد في دوائرنا الاجتماعية المعتادة ورتبت عدة مقابلات بالفعل. في الواقع-" ومض الذهب في ساعتها وهي تنظر إليها لتعرف الوقت "-عليَّ الانصراف إلى موعد في ماريليبون."

"ماذا عن سيدة يوركشاير؟"

"ماذا عنها؟"

"سيدة... إنغلاند."

وجدت الورقة وقرأتها سريعا. "أربعة أطفال: ولدان وبنتان. أصحاب مصنع." أو هم بهلوانات، كما يبدو من نبرة صوتها. "قرأت السيدة إنجلاند عن المعهد في الجريدة، ومربيتهم توفيت حديثا. كانت مربية زوجها منذ أن كان صبيا، أيها الأعزاء... الخبرة مع الأطفال الحساسين مطلوبة؛ تشير إلى أن بكريِّها بصحة عليلة. يقع جناح الأطفال في جزء منفصل وله مدخل خاص، ويوجد فراش في غرفة نوم الأطفال أو بوسعنا توفير غرفة خاصة في المسكن الرئيسي، حال رغبة المربية. حسن، هذا غير وارد إطلاقا." قلبت الورقة لترى التوقيع. "إنها لا توقع باسمها كاملا، لكن يبدو أن السيدة إنجلاند توَّاقة جدا لإيجاد من تشغل الوظيفة."

"أوافق."

"هل ستحبين العيش في مكان بعيد كهذا؟ ربما يملكون منزلا في لندن، لكنني أشك في ذلك. تجارة الأقمشة لا تنتشر كثيرا هنا."

"لا يهمني أين أذهب، يا آنسة سيمبسون."

أمعنت النظر في وجهي ثم عادت إلى الخطاب.

"لا أشك في كونكِ تملكين المهارات والتأهيل اللازمين، لكن رعاية أربعة أطفال مهمة ضخمة. يظهر أنهم لا يملكون خادمة أطفال أو خادمة عادية. والسيدة إنجلاند لم تفصِّل حالة ابنها. لو أنه طريح الفراش، فقد يحتاج تدخلا طبيا خاصا. سوف أتقصى عن الأمر هذا الأسبوع." ثم دسَّت الخطاب في ظرفه مرة أخرى، وكأنها بتت في الأمر.

قلت: "سأكون ممتنة لو أمكنكِ إرسال الرد مع خطابات الليلة، وإخبار السيدة إنجلاند أنكِ وجدت مربية لها."

وجهت لي سيم نظرة طويلة، ثم تراجعت في مقعدها. قالت، "دادة ماي، هل تعرفين لماذا أدخلتكِ في منحة مود ستيبينغز؟"

شعرتُ بلذعة إحباط لأنها تذكرت، وهززتُ رأسي.

"قد تذكرين أنني أشرفت على الامتحان في قاعة المحاضرات. وفي منتصف انغماسكن في حل الأسئلة، أوقعت طالبة قلمها. وتدحرج القلم حتى بداية الفصل. وبدون تردد، توقفت عن الكتابة، ونهضتِ من مقعدكِ وجلبته. ثم سرتِ إلى مؤخرة القاعة بحثا عن صاحبته وأعدته لها، مُقتطعة بذلك جزءا من وقت إجابتك. لقد علمتُ بدون أن أقرأ ورقتكِ، أنكِ تنتمين إلى المعهد."

سألتها في حيرة، "لأنني التقطتُ قلما؟"

"أكثر ما يحتاجه الأطفال هو الطيبة والصبر والانتباه. تلك الصفات يمكن تعلمها، لكن الأفضل أن تكون فطرية. عندما جالستكِ بعد الامتحان، أكدتِ لي أنكِ تمتلكين تلك الصفات، لكنكِ إلى جانب ذلك كنتِ..." وهنا ضيَّقت عينيها وبحثت عن الكلمة المنشودة. "تملكين تصميما. كان واضحًا أنكِ رغبتِ بشدة في الالتحاق بهذا المكان، ربما أكثر من أي تلميذة قابلتها. إنكِ تملكين خبرة حياتية، يا دادة ماي، وهي أبعد قيمة من الدراسة عندما يتعلق الأمر برعاية الأطفال. هي في الواقع أبعد قيمة، من القدرة على تذكر قصيدة إينوك آردن."

وجدت نفسي مجرَّدة مرة أخرى أمام قدرتها على تذكر كل شيء واستشفاف الجميع. قلت: "ظننتُ إينوك آردن رئيس وزراء. هذا ما كتبته."

"أذكر." لاح شبح ابتسامة عند زاوية فم المديرة، وراق الجو قليلا.

"هل أنتِ متأكدة من قبولكِ الوظيفة؟ حالما أكتب إلى السيدة إنجلاند، يصبح الأمر رسميا. عليَّ تذكيركِ أن المربيات اللاتي يخفقن في ثلاثة أماكن يُطالبن بالانسحاب من المعهد."

استنفرتُ واعتدلتُ أكثر في جلستي. "لن أخيب أملكِ مرة أخرى، يا آنسة سيمبسون. أعدك."

"حسنٌ. سوف أرد على السيدة إنجلاند عند عودتي."

"تبدو عائلة مثالية،" قلتها، في محاولة للتفاؤل.

أطلقت سيم ضحكة جافة. "دادة ماي، لا توجد هناك عائلة مثالية."

***

عزيزتي إلسي،

أكتب إليكِ من نورلاند، من سريري القديم. غريبة هي العودة إلى هنا، ورغم ذكرياتي الحميمة، إلا أنني أتوق للمغادرة سريعا. المهجع الذي ننام فيه (اللهم صبرا) لم يتغير قيد أنملة: ورق الحائط بلونيه الكريمي والبني بشع كعهده، ولوح الأرضية المتقلقل جوار التسريحة مازال على حاله، وكذلك البلاطة المتشققة

في المدفأة. لقد اعتدت مشاركة الغرفة مع أطفال، يغطون في النوم مباشرة وأحيانا يبكون. يعوزني التمرين ومعي فتيات بعمري، تسهرن الليل للقراءة تحت أنوار المصابيح ثم تتهامسن بعد إطفائها. أتشارك الفراش مع تلميذة تدعى دادة بانفورد، تعمل في جناح أطفال بمستشفى طوال اليوم. وتعود في وقت متأخر ودائما ما يفوتها العشاء، لكننا تبادلنا أحاديث لطيفة.

إنني في انتظار تأكيد تعييني مع عائلة جديدة في يوركشاير. لو حدث، فسوف أكتب خطابي القادم من هناك. صلي من أجلي، رجاءً. وتذكري حفظ عنواني، عندما تحصلين عليه. شقَّ عليَّ وداع آل رادليت، الذين كانوا بغاية الطيبة معي، وكنتُ شديدة التعلق بهم.

آمل أنكِ تواظبين على الدراسة. أرسلي محبتي للصبيان، رجاء، وأخبري والدتنا أنني سأرسل أجر أيلول بمجرد حصولي عليه.

مع كل حبي،

روبي

خلال أيام، رُتِّب كل شيء. لم أكن قد أفرغت أمتعتي، لأنني لم أرغب في منح أي شخص، بمن فيهم أنا، انطباعا بأن إقامتي في ميدان بيمبريدج تعني أي شيء غير كونها مؤقتة. إضافة إلى كون دادة جنكينز قد تركت بعض أغراضها في الأدراج: نصف برطمان من الجيلي-كمثرى، ومحرمتان أو ثلاث متسخات وكراس تمارين احتياطي. كنتُ ألزم غرفتي أو أتجول في الشوارع، ولاحظتُ كيف

تحولت الأشجار تدريجيا إلى الأصفر والذهبي والكراميل. وفي هذه الأثناء، أُرسلت شهادات التزكية، وحُجزت تذكرة القطار وغُسلت ملابسي وكُويت. وضع الطبيب سماعته على ظهري وحذرني من جو الشمال الرطب وأدخنة المصانع.

صباح يوم سفري، اغتسلتُ ولبستُ وأفطرتُ، ثم رتبتُ السرير لمرة أخيرة، مع أن خادمة لن تلبث أن تنزع عنه أغطيته. كانت سيارة أجرة تنتظر عند البوابة، وعند نزولي إلى الطابق الأرضي أخجلني أن رأيتُ حفلة وداع صغيرة عند الباب: سيم مع تلميذتين، وسيدة وورد بنفسها، والتي صافحتني بيدها الناعمة، وتمنت لي السلامة. شعرتُ باستحياء مفرط، كوني لم أعهد هذا الاهتمام بشخصي، ولاحظتُ نظرات الإعجاب العابرة من التلميذتين، واللتين كانتا تتطلعان إلى التلفع بالعباءات والانخراط في العالم الخارجي. أغلق السائق باب السيارة خلفي، ولوَّحت بيدي للجوقة الصغيرة عند المدخل قبل أن أتراجع في حُجُبي، وقد جف فمي وبدأتُ أتعرق بالفعل.

فيما أنطلق شرقا على طريق بايزووتر، وجدتني أشعر كمن تسير في وجهة غير وجهتها، كعقارب ساعة تمشي عكس الاتجاه. لا مزيد من رحلات المسرح برفقة زميلاتي من المربيات، ولا مزيد من مخبوزات إيلين. أدركتُ أنني نسيتُ نسختي من وومانز سيغنال جوار المقعد، ولم أكن قد أنهيتها. أرسلتُ بصري خارج نافذة السيارة إلى العربات السوداء المصقولة تزحف وتجر نفسها كالخنافس؛ والإعلانات الساطعة للكاكاو والصابون والمسطرده؛ وكل ضروب المحلات والباعة: باعة زهور، كناسون، مساحو أحذية

صغار... صدمني في البداية أن أرى أطفالا كثرا يعملون في الشوارع، لكنهم تحولوا تدريجيا إلى صورة مُعتادة، وتراءوا جنسا مختلفا عن الأطفال المكتنزين ذوي البشرة المتوردة الذين نعتني بهم أنا وزميلاتي المربيات، إلا أنهم بالطبع لم يكونوا كذلك.

كانت حركة المرور بطيئة عبر المدينة، والجميع يشعرون بالحر والنزق؛ وعندما وصلت سيارة الأجرة إلى محطة كينجز كروس أخيرا، لم يكن أمامي سوى عشرون دقيقة على موعد القطار. منحتُ السائق أجرته مع إكرامية، وهو شيء لا أنفك أجده مذهلا أن يصدر من شخص مثلي. كان سقف المحطة يشبه الكهوف، عاليا جدا وممتلئا كبالونة زجاجية بدخان القاطرات. سألتُ عن الرصيف وشققت طريقي وسط الحشود داخل ممرات القطار، لأجد لحسن حظي مقصورة فارغة بعربات الدرجة الثانية، في نفس اللحظة التي كنت على وشك الانهيار. انتظرتُ بفارغ الصبر اللحظة التي سأفتح فيها النافذة حال مغادرة القطار للأنفاق المختنقة بالدخان، ونزعتُ قفازاتي في تلهف، وروّحتُ بها أمام وجهي ثم سمعتُ، بعد دقيقة أو اثنتين، صافرة حادة. صُفقت أبواب القطار، وانطلقت صافرة أخرى من جهة الرصيف، وتحرك القطار فوق القضبان، حاشدا سرعته، ببطن مليئة بالفحم وعيناه موجهتان للشمال.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثالث

أيقظني بغتة صوت صافرة بعيدة. كان الليل قد حلَّ وقت أن وصلتُ إلى يوركشاير، وتأرجح الزيت في مصباح السقف، مُرسلا ضوءا واهيا. رغم أن اليوم كان صيفيا حارا في لندن، إلا أن لسعة برد تسربت من النافذة المتقلقلة ورسم المطر أشكالا على الزجاج. بحثتُ عن إلسي تمص حلواها، وأبي ينظر من النافذة، ثم تذكرت أين كنتُ، وأدركتُ أن القطار كان متوقفا. فتَّشتُ جيبي بحثا عن جزداني، فيما أنهض بسرعة وأبحث عن الكومساري. كان القطار مزدحما وقت أن بدلتُ في ليدز، حيث تشاركتُ مقصورة مع عائلة لها ثلاثة أطفال. لكني وجدتُ العربة فارغة الآن، فحسبتُ من ذعري أني فوَّتُّ محطتي. أخبرني الكومساري أنها التالية، وشعرتُ بمزيج متناقض من الرهبة والارتياح، الجرأة والحماسة. استعدتُ كتابي من المكان الذي سقط فيه على الأرض وبدأت أهندم نفسي، مُستعينة بانعكاسي على النافذة المظلمة في تثبيت بعض الخصلات بالدبابيس وربط عباءتي.

وبعد خمس دقائق، تباطأ القطار إلى أن توقف في ظلمة من حلكتها حتى ظننتنا بداخل نفق. لم يترجل أحد آخر، وكل المقصورات التي مررت بها كانت خالية. على جانبي الرصيف توهج فانوسان خائران بضوء خافت، وكأنهما يعرفان أن فرصهما في اختراق الليل ضئيلة. كان المطر قد توقف لكن الهواء ظل ثقيلا ورطبا، كغسيل الشتاء. أطلق الخفير صفارته، فلملم القطار نفسه وانطلق مغادرا.

نظرتُ يمين ويسار الرصيف، لكني وجدتني لوحدي. على الرصيف المواجه كان مدخل المحطة، مع المزيد من الفوانيس ومكتب الشيَّال. حملتُ أمتعتي وبدأتُ أشق طريقي نحوه عندما سمعتُ وقع أقدام مُسرعة؛ يوجد نفق للمشاة أسفل القضبان، وكان شخص ما يرتقي سلَّمه. ثم ظهر رجل: القبعة أولا، ثم وجه حيوي بشارب داكن، ثم معطف أسود أنيق وصدرية خضراء تزينها سلسلة رفيعة وراقية. كان يحمل عاليا في يده الكبيرة فانوسا، فكان بصورته يشبه صاحب نُزُل ودود. كان طويلا وقوي البنية، وعندما رآني أفتر وجهه عن ابتسامة عريضة.

"دادة ماي،" قالها بثقة وحميمية، وكأننا التقينا من قبل. دنوتُ منه ووضعت حقيبة سفري على الأرض لأصافحه. كانت قبضته دافئة وقوية، وعيناه سوداوان وتلمعان مثل جوهرتين.

أجبته، "أجل، فرصة سعيدة."

"أنا في غاية الأسف لتأخري، احتاج الحصان لحدوة جديدة، وبرودلي... لا عليكِ، أنا هنا الآن، ولتسمحي لي باصطحابك. دعيني أحمل عنكِ. ناوليني أمتعتك، هذا كل ما عليكِ فعله. آمل أن رحلتكِ كانت مريحة؟" قال كل هذا وهو يهز كفي التي في قبضته كمن يضخ طلمبة. حررتُ يدي أخيرا ونزلنا إلى نفق المشاة، حيث مزيد من المصابيح الكئيبة تحارب الظلام، ولافتات الإعلان تسطع تحت شعاع الفانوس.

"مريحة جدا، أشكرك،" هكذا أجبته. "هل أنت الحوذي؟"

"ها!" اختفى صوته الرنان تماما ثم انبعث مُحطما. "يا إلهي. لقد نسيتُ تقديم نفسي. أنا تشارلز إنغلاند."

كدتُ أموت خجلا. "أنا في غاية الأسف يا سيد إنغلاند. لم أكن أعرف."

"لا بأس مطلقا، يا دادة ماي." بدا مُغتبطا تماما بزلّتي، وتبعته عبر مكتب الحجز الذي أغلق شبابيكه إلى ساحة ينتظرنا فيها حصان أرقط وعربة. "هذا هو ماكباي، وأرجو أن تظهري إعجابكِ بحدوته الجديدة، وإلا شعر بإهانة فظيعة." صفع خاصرة الحصان الفحل وفتح باب العربة الصغير، وألقى حقيبتي بالداخل وكأن لا وزن لها. شكرته وركبت، ثم تأرجحت العربة وهو يثب على مقعد القيادة ويمسك باللجام، فيما ذويتُ وانكمشتُ في مكاني. الحوذي! ما ظنه بي الآن؟ الفتاة الأغبى على وجه الأرض، والأسوأ أن هذه الفتاة هنا لرعاية أبنائه.

أصلحتُ جلستي وأزحتُ الستارة الصغيرة جانبا لأنظر من النافذة، فإذا بخارجها وكأن حجابا أسود قد انسدل عليه. كانت العربة كبيرة وغالية، كراسيها جلدية، وعجبتُ لمَ لا يوجد سائق لآل إنغلاند، ولم جاء سيد المنزل بنفسه لاستقبالي. لا بد أن لديهم حاشية، أليس كذلك؟ تمنيتُ من صميم قلبي ألا يتوقعوا مني القيام بأعمال منزلية تفوق استطاعتي، مع رعاية أربعة صغار، وتنظيف الجناح الخاص بهم بلا خادمة أطفال تساعدني. لا يهم، سوف أتفق على كل شيء مع ربة المنزل عند وصولي.

تغيرت زاوية ميل الطريق ووجدتنا نصعد مُرتفعا، وننعطف قليلا هنا وهناك، فذكرني ذلك بالممرات الطويلة الملتوية أعلى الوديان شديدة الانحدار. أغمضت عيني وحاولت إبعاد الصورة عن

ذهني، وتعويضها بالمكان الذي سيكون بيتي لبضعة سنوات أخرى على الأقل. تساءلتُ هل سيكون الصغار نائمين أم في انتظاري بغرفتهم. أربعة صغار: بدا عددهم كبيرا فجأة، لكني قلتُ لنفسي أن هذا لا يمكن أن يختلف كثيرا عن كوني الكبرى بين خمسة أبناء. لسنوات عدة كنتُ أما صغيرة لإخوتي، مع انشغال أبوينا في المتجر؛ كنتُ أنا من يلجؤون إليه إن خدش أحدهم ركبته أو شعر بالجوع، أنا من حمَّم وألبس ورافق. أنا من كانت أمنا تسألها أين تيد، أو هل رأيتِ طاقية آرتشي. طمأنتُ نفسي أنها ليست أول مرة لي، وأن المهارات ما إن تُصقل، حتى يبقى أثرها للأبد.

بعد خمس أو عشرة دقائق، اتخذت العربة منحدرا وأبطأت سيرها تدريجيا حتى توقفت. ولكن عوضا عن الصمت، سمعتُ صوت اندفاع عال، كأنه قطار، أو صمام كبير يطلق بخارا. هبط سيد إنغلاند عن مقعده بوثبة قوية، ثم فتح باب العربة وأولج فانوسه داخلها، فأدركتني مرة أخرى لسعة البرد السابقة لموسمها.

قال: "جيدا مازلتِ قطعة واحدة . أخشى أن عليكِ الترجل الآن، لأن الدرب إلى المنزل ضيق، ولا يمكنني أن أعدكِ بأننا لن نموت غرقا في الوادي. إن أذنتِ لي بلحظات، فسوف أضع الحصان في حظيرته والعربة في مركنها."

تركني واقفة على الطريق وذهب بفانوسه نحو جمع مظلم من مباني الخدمة. لم يتوقف صوت الفحيح الغريب، وبعد تكيف عيني مع الظلام، استطعت تمييز السماء الكحلية، والقمر المحتجب خلف الغيوم. إلى يميني ظل طويل وكثيف - مبنى ضخم أو ربما

غابة، لأن الرطوبة ضمت بين طياتها رائحة مميزة، رائحة خضرة، يميزها سكان المدينة أمثالي بسهولة. كان الجو باردا ومنعشا كماء الينابيع، على العكس تماما من رائحة الدخان الكثيف والتراب التي نشأتُ عليها، فتنشقته بعمق. وبعد لحظات ظهر الفانوس منبئا بعودة سيد إنغلاند. فأخذ حقيبتي وسار أمامي، بحركات وثيقة، وكأنه اعتاد سكنى الظلام.

قال: "لا يمكنكِ رؤيته، لكنه فناء المصنع. والمنزل أعلى التل على الضفة الأخرى من النهر."

هو صوت نهر إذن، يزداد صخبا الآن وكأننا أزعجناه. وجدتني وقد تجمدتُ مكاني في الضوء الخافت لفانوس رب عملي، فرفعه لينظر في وجهي.

"هل أنتِ بخير، يا دادة ماي؟ أخشى أن الطريق بدائي نوعا."

"سيدي، كيف سنعبر النهر؟"

"بأحذية مطاطية. هناك زوجات في انتظارنا على ضفة النهر،" أجاب بجدية، وساد بعدها صمت رهيب، ثم انفرجت أساريره عن ابتسامة. "إنني أمزح، لسنا بدائيين لتلك الدرجة في يوركشاير. تفضلي."

خارج دائرة الضوء التي رسمها فانوس سيد إنغلاند لم يكن هناك سوى الصخب والظلام. كان يمشي بخطوات واسعة سريعة؛ فما لبثنا أن اجتزنا الفناء وأصبحنا فوق جسر حجري، يكفي عرضه لمرور عربة، إنما لا يترك سوى بوصة أو اثنتين فقط على كل جانب. اتخذ الجسر شكل رابية صغيرة ارتفعت قرابة خمسة عشر قدما فوق

الماء المتدفق قويًا في الأسفل. ركزتُ أنظاري أمامي لأنسى أننا معلقان في الهواء، ولم تمر دقائق حتى كنا قد عبرناه. قادني سيد إنغلاند إلى اليسار، فوق درب وعر يرتفع بزاويته بعيدا عن النهر. كانت الأشجار تحاذينا من الجانبين، وجذوعها السوداء الرطبة تلمع تحت وهج الفانوس، وكأننا نلج كهفا سريا.

أخبرني: "للمنزل مكانة خاصة. فقد بناه جد زوجتي منذ أربعين عاما ليطل على المصنع في الأسفل. هل تعلمين شيئا عن صناعة النسيج، يا دادة ماي؟"

"القليل جدا للأسف، يا سيدي." أجبته، محاولة مواكبة خطوته، فألهث في المقابل.

"ربما لاحظتِ كم الجو رطب هنا. مثالي لحماية القطن من الجفاف. وإن كان الصوف هو السائد في هذا الجانب من الحدود. كلما توغلتِ شرقا من ليفربول، قلّت أعداد مشاغل القطن. الوُرستيد، والفُستيان، والطوبين -هي ما ننسجه من أقمشة في هذا الركن الصغير الرطب من العالم. والمصنع الذي مررنا به في الأسفل - ولم تريه بلا شك، لكنكِ ستفعلين في ضوء النهار- هو ملكي. ورغم كوني رجل صناعة أقطان، لم أبدل نشاطي إلى الصوف. أهل زوجتي هم صناع الصوف، وجدُّها هو ملك تلك الصناعة. إنه يجعل بقيتنا نبدو كهواة. يمتلك ألفا ومئتا منول في مصنع غريتريكس؛ أي ثلاثين ألف ياردة قماش في اليوم. هل تعرفين كم يعادل ذلك من الأميال؟"

جاهدتُ لمواكبته. "أخشى أني لا أعرف، يا سيدي."

"ثمانية عشر ميلا. مازلتُ أنتج بالياردات، لا الأميال، مع أني

أملك الآن أربعة وعشرين عاملا، بعد أن كانوا ستة عشر عاملا هم من بدأت بهم. صوف الألبكة-" قالها فجأة، وهو يستدير ليلقي علي ضوء الفانوس، ليجدني حائرة. "هكذا جمع تشامبيون غريتريكس ثروته. منذ قرابة ستين عاما كان أول من استخدم صوف الألبكة في صناعة النسيج. هل تعرفين الحيوان الذي أتحدث عنه؟"

"لا... لا أظنني أفعل، يا سيدي."

"لقد وجد ثلاثين زكيبة من ذاك الصوف مكومة أمام مستودع في ميرسيسايد، وقال: "سوف آخذها." لم يكن بوسعهم إضاعة الفرصة. كان الصوف خشنا جدا، ولم يكن أحد قد استخدمه في النسيج من قبل. كان تشامبيون أول من جرَّب، والآن... ثمانية عشر ميلا. ثم البارونية. أو هكذا يشيع الجميع."

"يا إلهي."

"هل تعرفين الموطن الأصلي لحيوان الألبكة؟ خمني."

لم أكن قد سمعتُ عنه حتى دقيقة مضت. "اسكتلندا؟"

"ها!" انطلقت ضحكته كطلقة نارية اخترقت الظلام. "فرصتكِ في إيجاد فيل هناك أكبر. كلا، بل هم من بيرو. دادة ماي، يظهر أنكِ ممن يسافرون خفافا- ألا تملكين صندوق أمتعة؟"

"إنه في الطريق."

"ممتاز. ها نحن ذا."

كنا في تلك اللحظة نعبر فناء حجريا آخر يؤدي إلى منزل كبير ذو واجهة بلا بروزات يخترق في بنيانه سفح التل. على يساره خيال مشوش لمباني خدمة، وأمامه انحدرت الأرض بشدة نحو النهر

واكتظت بمزيد من الأشجار. كان الباب كبيرا ومطليا بالأحمر، وقد فتحه سيد إنغلاند بمفتاح في سلسلة عند خصره وأدخل أمتعتي.

"سوف أعيد الفانوس إلى مكانه وإلا نال مني برودلي في الصباح. اصعدي مباشرة إلى جناح الأطفال. إنهم نائمون، لكنكِ ستلتقين بهم في الصباح. هل أنتِ جائعة؟"

"كلا، شكرا لك، يا سيدي."

كم هو عجيب هذا الرجل، يستقبلني بنفسه، ويتحدث عن عمله ويعرض الطعام. كنتُ خائرة القوى ولم أملك سوى الغمغمة بكلمات الشكر فيما ينصرف بخطوات سريعة ولبقة. لم يكن قد زودني بمصباح، وكان المنزل من الداخل غارقا في الظلمة. تكَّت عقارب ساعة بخفوت في مكان ما، ومددتُ يدي أبحث عن الدَّرج، ووجدتُ الدرابزين أخيرا وتبعتُ مساره السلس. فاحت في المكان رائحة عطنة نوعا لسجاد يحتاج للتنفيض أو معاطف مبللة تحتاج للتجفيف. كانت السلالم من الحجر وقدماي بلا وقع عليها. كان الطابق العلوي أشد ظلمة. أخبرني سيد إنغلاند أن أذهب إلى جناح الأطفال، لكني وجدتُ أمامي عدة أبواب. فكرتُ في انتظار عودته، لكنه لا شك يظنني الآن خنوعة وجاهلة، وغبية أيضا، لو وجدني أقف هنا مثل طفلة مذعورة. فكرتُ في سيم ورفيقة سكني الواثقة والصريحة بريدجيت؛ لن تقف واحدة منهما مترددة. بل ستهبط إلى الطابق الأرضي وتبحث عن مصباح، ربما في المطبخ، والذي يبدو أنهم يُغلقونه ليلا.

سمعتُ طقَّة خافتة، وفجأة انبعث ضوء في مدخل باب يُفتح لآخره. خرجتُ منه امرأة في روب منزلي ينسدل فوق قميص نوم

أبيض. كان شعرها طويلا، يصل حتى خصرها، ويحيط وجها صغيرا مستديرا بأنف دقيق وعينين داكنتين واسعتين. تجمدتُ، وكذلك المرأة بوجه يحمل خوفا وارتباكا هائلين، حتى ظننتني أخطأت المنزل من أساسه.

قلت: "السيدة إنجلاند؟" بدت كمن رأت شبحا. "أنا دادة ماي. أعتذر كثيرا لإزعاجك. لقد وصلتُ لتوي، يا سيدتي."

شدَّت أكثر على المصباح، وهي تلف روبها حول جسدها.

"دادة؟" بدا صوتها خائفا. "هل أرسل تشارلز في طلبك؟"

"ظننتِ تتوقعين حضوري، يا سيدتي. أنا مربية الأطفال."

قالت: "آه، آه." وزالت الحيرة عن جبينها، فازدردتُ لعابي، لأجد فمي وقد جف فجأة.

"أخبرني سيد إنغلاند أن أصعد إلى جناح الأطفال. هلا قدتني إليه، من فضلك؟"

"حسبتكِ تصلين غدا." كان صوتها أقرب للهمس. كانت أقصر مني ببوصة أو اثنين وأصغر كثيرا مما توقعت.

"بل الليلة، يا سيدتي،" قلتها، وأنا أكتوي بالمهانة. "أقلني سيد إنغلاند من المحطة. إنه يعيد الفانوس إلى مكانه."

ألقت نظرة للطابق الأرضي. كانت الردهة ما تزال قابعة في الظلام. "سأرافقكِ إلى جناح الأطفال،" قالتها وسارت حاملة المصباح نحو باب مكسو بجوخ أخضر يسار الدرج، يفضي إلى ممر في أوله على اليسار باب وفي نهايته آخر. تبعتها باستسلام، وأنا أشعر ببرد وخدر مع إحراج، عبر الباب الأخير. كانت الستائر

منسدلة على كلا النافذتين، واتجهت إلى منافث الغاز فوق المدفأة وأدارتها. فأصدرت هسيسا ناعما فيما بحثت هي عن عود ثقاب. لاحظتُ علبة خلف شمعدان على رف المدفأة، فوضعت حقيبتي، لهفة في المساعدة، وجلبتها.

"من فضلكِ، يا سيدتي، اسمحي لي."

دبَّت الحياة في الكرات الزجاجية، فأجفلتها. كنا نقف في غرفة أطفال صغيرة ومريحة، مزينة بورق جدران وسجاد يغطي الأرضية الخشبية. في ركن من الغرفة انتصب حصان هزاز بجوار سرير خشبي هزاز وأنموذج منزل ملون. اصطفت بجمود على طاولة قبالتهم مجموعة دباديب. وعلى صوان منخفض، قارب فاخر بشراع أبيض يميل عند جانب واحد، تحيط به مجموعة منوعة من الحيوانات الخشبية. وفي الجهة الأخرى من الغرفة كرسي متحرك أمام الحائط، على مقعده دثار كاروه مطوي. وتمكنتُ من رؤية ربة المنزل بصورة أفضل؛ شعرها الطويل كان ذهبيا غامقا، وروبها المنزلي من حرير مشمشي. ثبَّتت عينيها الداكنتين فوقي، وكأنها تتوقع مني البدء بالحديث. كان المنزل باردا كما هو شأن المنازل الكبيرة في الصيف عند إطفاء مدافئها، وحيث لم تقترح عليَّ السيدة إنجلاند خلع عباءتي ولا أخبرتني أين أضع أغراضي، شعرتُ بأنني دخيلة لأبعد الحدود.

سألتها: "هل تفضلين أن أدعوكِ سيدتي أم السيدة إنجلاند؟"

"لا فارق."

"وهل تأذنين لي في العودة إليكِ عند أي استفسار عن ملابس الصغار أو طعامهم؟"

بدت تائهة، وكأنني طلبت منها حل أحجية عويصة. "نعم،" قالتها دون قناعة. "أو سيد إنغلاند."

كتمتُ دهشتي في صعوبة. وكررت، "أسأل السيد؟"

"قد يكون ذلك أفضل."

كان صوتها غير مصقول. ولكنتها أمطُّ من لكنة زوجها؛ التي كانت أكثر أناقة، وإن احتفظت بوقعها اليوركشايري المميز. كانت سيدة يوركشايرية تتسوق في بالسال هيث يوم الأربعاء من كل أسبوع، وأدهشني أن أجد لكنة سيدتي الجديدة غير مفهومة مقارنة بها.

قالت: "سأترككِ لتفرغي أمتعتكِ."

"هل أنام مع الصغار، يا سيدتي؟"

"هل هذا ما تفعلينه عادة؟" سوَّت روبها المنزلي مرة أخرى، فضمَّته حول عنقها.

"نعم،" قلتها. ثم كان هناك فاصل من الصمت. "أنا آسفة جدا، يا سيدتي. ظننتُ أن مديرتي، آنسة سيمبسون، قد أخبرتكم بوضوح عن موعد وصولي."

"أجل، أتذكر الآن. لقد فعلت بالطبع. طابت ليلتكِ، يا دادة.."

قلت: "ماي."

انصرفت بهدوء حاملة مصباحها وأغلقت الباب، فلم أسمع وقع قدميها في الممر. وقفتُ لوقت طويل أنصت للمنزل وصمته العميق الأشبه بالقبر، وأفكر كم تبدو بيريفال غاردينز بعيدة عنه، وكم تختلف ربة منزله عن سيدة رادليت. مشيتُ رويدا إلى الكرسي المجاور للنافذة وأزحتُ دبدوبا كانت عليه لأجلس. ووجدتني أسترجع

ما مضى من أحداث، رحلتي في شوارع لندن هذا الصباح -أكان ذلك حقا صباح اليوم فقط؟- وهرج المدينة وحيويتها. لقد قضيتُ قرابة أسبوع في حالة من نفاذ صبر مُكبَّل، انتظارا لاستئناف حياتي من جديد. تلك الأيام القليلة بدت جميلة جدا في عيني الآن، وبينما أجلس في غرفة الأطفال الباردة والغريبة عني، داخل منزل يخيم عليه الصمت، بل هو ميت، شعرتُ وكأنني ارتكبت غلطة شنيعة.

انطلق صوت يشبه شمعة تطقطق، ونظرتُ حولي في فزع. كانت النافذة خلفي، واستغرقتُ دقيقة لأدرك أن السماء تمطر. فتحتها، وسمعتُ النهر، وطيرا ليليا ما -بومة أو سُبَد. لم أكن قد عشت في الريف من قبل، ولا قضيتُ فيه ليلة، ورأيته مكان لادعا، وقارصا، ومتقلبا. لقد اعتدتُ الشقق السكنية والمتاجر، والطرق والأرصفة المزدحمة. لم أستخدم فانوسا خارج المنزل في حياتي قط. لكن الهواء كان نقيا، وربما في الصباح سأجد زقزقة عصافير، وسماء مشمسة شاسعة. ستكون هناك أشياء عديدة تشغل الصغار: لعبة التفتيش عن الأغراض، وقطف الزهور وجمع الريش، والنزهات وركوب الدراجات بينما الجو مازال دافئا. وفيما تزينت نافذة جورجينا بزهور أقحوان وسوسن من منتزهات لندن؛ هنا ستكون الحيوانات أكثر تنوعا، والبراري أيضا. حتى أنني ربما أجد غزلانا حقيقية لا من المعدن. لا يهم أنَّ المنزل بهذا الهدوء، طالما يوجد الكثير لاستكشافه في الخارج.

أضأتُ مصباحا محمولا، وأطفأتُ ضوء الغاز وحملتُ حقيبتي، وقطعتُ الردهة إلى غرفة نوم الأطفال. كانت الغرفة

مظلمة؛ والستائر منسدلة. في الظلال المتراقصة على حافة ضوء المصباح، لمحت هيكل سرير معدني وألواح أرضية خشبية، وأغطية بيضاء تحتها هيئات متكتلة. تمطى أحدهم وتحرك، فخففتُ نور المصباح. في الركن البعيد المواجه للنافذة، وعند مؤخرة سرير خال، كان هناك مهد ينسدل فوقه قماش دانتيل كحجاب. أصدرت ألواح الأرضية صريرا فيما أعبر الغرفة، فانزاح الغطاء جانبا. وألقى المصباح شعاعه اللطيف على رضيع مُكتنز نائم على ظهره، طارحا قبضتيه على جانبيه. وصدره يعلو وينخفض بنعومة. هذه الغرفة أيضا لم يدخلها الهواء لكنها لم تكن دافئة. أردتُ بشدة أن أفتح النافذة، لكنني خشيت إزعاج الصغار، لذا جلست على حافة فراشي وفككتُ رباط حذائي. في ميدان بيمبريدج، كنت لأنام بغطاء واحد، وأفتح النافذة عن آخرها.

وقعت فردة من حذائي على الأرض محدثة ضجة، وتسمَّرتُ في انتظار أن يستيقظ الصغار. انبعثت من مكان ما في الغرفة تنهيدة عميقة وحالمة، وكان هذا كل شيء. أنزلتُ فتيل المصباح ونفخت برفق عبر الزجاج، وانتشرت الرائحة الزنخة للزيت المحترق ثم هدأت. كانت الأغطية مُنعشة ومُرحِّبة، وملاءة السرير تفوح قليلا برائحة النفتالين. استكنتُ في العتمة وانتظرت مجيء النوم.

الفصل الرابع

استيقظتُ في السادسة صباحا قبل الصغار، فجلبت ملابسي من على المشجب وارتديتها في هدوء. كان المهد عند مؤخرة سريري، وبجواره سرير آخر من المعدن، موازٍ للجدار. وكانت تنام فيه فتاتان، إحداهما شقراء والأخرى شعرها داكن. وعند الجدار المقابل، قريبا من الباب، سرير ثالث، يشغله صبي أشقر. كانت الغرفة صغيرة، بها مدفأة يسار فراشي، يغطيها سياج، وبساط يدوي على الأرضية الخشبية. في التجويف الأيمن خزانة ثياب جدارية. ودون أن أفتح الشيش، تجاوزتُ الصغار النائمين وأغلقتُ الباب برفق.

كان جناح الأطفال على الجانب الغربي من المنزل، يفصله عنه باب مكسو بجوخ أخضر تثبته مسامير نحاس. وراء هذا الباب عمَّ الصمت، ووقفتُ عند أعلى الدرج أنصت لبرهة. كان الطابق الأول يطل على الردهة في الأسفل، يحجبه عنها درابزين يمتد بطول البسطة. في الطابقين الأرضي والعلوي، زينت الجدران لوحات ضخمة في براويز مذهبة، وكلها لرجال بشعور وشوارب شقراء في حلل سوداء. ذهبتُ أبحث عن المطبخ، مختلسة النظر داخل الغرف الواقعة في مقدمة المنزل عساني أجد أيا من الخدم، لكن الستائر كانت ماتزال مُنسدلة، وفي الجو رائحة دخان سيجار. توجهتُ إلى مؤخرة المنزل، نحو صوت بعيد إنما يجلب التفاؤل لقدور طهي.

"دادة ماي."

جمَّدتني المفاجأة وانتبهتُ لباب مفتوح إلى يميني. كان سيد إنغلاند جالسا إلى مائدة إفطار عليها إبريق قهوة وجريدة. ومع أن الشيش كان مفتوحا، إلا أن الغرفة اعتراها جو ضبابي ومغبَّش، زاد أكثر مع جدرانها الخضراء الداكنة.

قلت: "صباح الخير، يا سيدي."

"تستيقظين مبكرا."

"جئت لإحضار ماء ساخن لجناح الأطفال، يا سيدي. هل تعرف أين عدَّة تنظيف المدفأة؟"

رفع حاجبيه دهشة.

"آسفة، يا سيدي. سأسأل السيدة."

"لا، لا. آه، بليز سوف تخبركِ. إنها خادمة المنزل العمومية. سوف أعرِّفكِ إلى الخدم."

"أوه، هذا لطف شديد منك، يا سيدي، لكن لا بد أنك مشغول. يمكنني تعريف نفسي لاحقا."

"هراء. اجلسي."

بعد تردد دام لحظة أمام فكرة استيقاظ الأطفال وحيدين بالأعلى، سحبتُ واحدا من كراسي المائدة الخشبية الممشوقة.

"قهوة؟" سألني. وكان يرتدي قميصا أبيض تحت صدرية لونها أحمر نبيذي. سترته ملقاة بجانبه، وشعره مبتل قليلا.

هززت رأسي. "لا، شكرا لك، يا سيدي."

"هل تفضلين الشاي؟" ابتسم، فارتفع شارباه عند زاويتي فمه. "لا داعي لكل هذا القلق، يا دادة ماي، فلن يُخصم هذا من أجرك. سأحضر لكِ فنجانا."

عندما ذهب ظللتُ في مقعدي، دون اضطجاع. كانت الغرفة قد تطبَّعت بالحضور الكئيب للغابة؛ ومرَّ نسيم في الخارج هزَّ الأشجار. بعد دقيقة عاد وبسط منشفته على حجره.

قلت: "لا أبغي أن أفسد عليك إفطارك، يا سيدي. يمكنني أن أطلب ذلك من مدبِّرة المنزل."

"لا نملك واحدة للأسف. أعتذر، فنحن ندير شئوننا بصورة أبسط مما لا بد أنكِ اعتدتِ عليه. أخبريني، كيف وجدتِ الحياة في لندن؟"

تناول رشفة بصوت عالٍ، ثم انفتح الباب ودخلت منه خادمة تحمل صينية فضية أمام صدرها العارم. تقابلت عينانا، ووضعت طاقم الشاي أمام سيدها.

"إنه لدادة ماي، شكرا لكِ، يا بليز."

رمقتني بنظرة أخرى، لكنها مفعمة بالاستياء هذه المرة. كانت تكبرني بأربع أو خمس سنوات، ممتلئة الجسم وتبالغ قليلا في الاحتشام، عيناها صغيرتان وداكنتان كحبتي زبيب. شكرتها، ودون رد، انصرفت مُغلقة الباب بقبضة متينة.

"أين كنا؟" سأل سيد إنغلاند. "آه، أجل، لندن. هل أعجبتكِ؟ الشباب عموما يحبونها، كما أتصور."

"أعجبتني كثيرا."

"وما الذي جاء بكِ إلى الشمال؟"

"هذه الوظيفة، يا سيدي."

"صحيح." خشيتُ فورا أن إجابتي بدت فكاهية في غير وقتها، لكني رأيته مُستمتعا. "هل أنتِ من لندن؟"

"برمنغهام، يا سيدي."

"المدينة السوداء. يجدر بهم تسمية هذه بالمدينة الرمادية، مع كل هذا الدخان. إنه ما يجبرنا على طلاء الغرف بألوان داكنة." ثم نهض واتجه نحو الخوان، فمرر إصبعه على الحائط وأراني. "حتى والنوافذ مُغلقة، يجد طريقه للداخل." ثم فرك إصبعه في سرواله وعاد إلى المائدة، فصبَّ الشاي وسألني إن كنتُ أتناوله مع الحليب أو السكر. شعرتُ وكأنني ولجتُ عالما مقلوبا، حل فيه الزوج محل الزوجة. لم أجلس من قبل وحدي مع رب منزل أو مع أي رجل عموما، وتمنيتُ ألا يظهر عليَّ ذلك.

تناولتُ رشفة مُجامِلة. "شكرا لك."

"ما الذي تحتاجين لمعرفته؟" طوى جريدته ووضع مرفقيه على الطاولة، شابكا يديه.

"أعرف أنه لا يجدر بي إزعاجك بالمسائل المنزلية، يا سيدي. يمكنني التحدث مع السيدة."

"يمكنكِ التحدث معي." وابتسم منتظرا.

قلت: "حسن. أرغب شاكرة في السؤال عن أي نظام ثابت يجب أن ألتزم به. يمكنني بالطبع عمل برنامجي الخاص والحرص على سير الأمور دون مشاكل، لكنني أعني أي شيء تحب إبقاءه دون تعديل مثل المواعيد، والوجبات، وما شابه..."

استغرق في التفكير وأسند ذقنه على يديه المضمومتين. "كانت المربية التي سبقتكِ هي مربيتي منذ صباي. أتذكرها عجوزا حتى في ذلك الحين، لذا كانت طاعنة عندما رحلت. كنتُ مغرما جدا بها."

"أنا آسفة، يا سيدي."

"أوه، لا داعي للأسف. الأطفال مسرورون بحصولهم على مربية تقاربهم سنا. كان رأيي دائما أن المرء عليه أن يكون طفلا مع الأطفال."

وجدتني أبتسم موافقة.

"لم تكن دادة نانغل طفلة. حتى أنني سمعت سول ذات مرة يلقبها بالتنين نانغل العجوز. آمل أن مجيئكِ سيضع حدا لأية مشاحنات في جناح الأطفال. لقد اغتَمُّوا كثيرا رغم ذلك. أظنها كانت صدمة رهيبة لهم، أن يستيقظوا فيجدوها وقد ماتت أثناء نومهم."

لحظة صمت. "هل ماتت هنا، يا سيدي؟"

"أخشى ذلك. رباه، آمل أنني لم أخفكِ."

"إنني لا أومن بالأشباح." تذكرتُ رائحة كرات العث في ملاءة الفراش وارتعدت.

"حكيم جدا." فرك عينه اليمنى وبدا مُتعبا. "جناح الأطفال. أجل."

وفي تلك اللحظة عادت بليز مع حامل خبز محمص وصحن يحوي بيضا وسمكا مدخنا.

"شكرا لكِ، يا بليز. تحتاج دادة ماي إلى ماء ساخن للصغار."

"سأخذ بعضا منه للأعلى الآن، يا سيدي."

"شكرا لكِ، يا بليز."

انصرفت، ورش هو قليلا من الفلفل الأسود على السمك المدخن وبدأ يأكل. "أخبريني، كيف يسير يومكِ في المعتاد؟"

مسَّدتُ على مئزري. "أستيقظ في السادسة، وأنظف المدفأة وأكشط موقدها، وألمع النحاس وأكنس وأنظف جناح الأطفال. وأنظف السجادة يدويا مرة في الأسبوع. ثم أوقظ الصغار لتناول الفطور، يلي ذلك الاستحمام، وإصلاح الثياب، ونزهة قبل الغداء، وراحة بعده. في آخر النهار، أجلب الأطفال عادة للطابق الأرضي، أو يمكنني القيام بذلك بعد الشاي. لا أعرف متى كانت دادة نانغل ترسلهم للنوم، لكن ربما من الأفضل ألا نغيِّر ذلك."

"في السابعة، على ما أظن،" قالها وهو يأكل. "وأبكر من ذلك بالنسبة للرضيع. أما بقية الأمور فهي مناسبة تماما."

"هل أناقش التفاصيل مع السيدة إنجلاند؟"

"لا حاجة لذلك."

رمشتُ في مفاجأة، ثم أومأت برأسي.

"يتلقى سول دروسا خاصة أربع مرات في الأسبوع، من التاسعة حتى الواحدة، على يد معلم يُدعى سيد بوث. يجتمعان في غرفة الطعام."

أومأت مرة أخرى ونظرتُ للساعة في خصري.

"إنني أعود إلى المنزل بعد الخامسة بعشر دقائق. ربما يمكنكِ تجهيز الصغار بحلول ذاك الوقت."

"أمرك، يا سيدي. هل تتلقى البنتان تعليما؟"

"كلا."

"لا معلمة لهما؟"

"سيصنع ذلك زحمة شديدة في جناح الأطفال، ألا توافقينني؟" التهم البيض بقطعة خبز محمص، وقرقرت معدتي.

"لا تحتاج البنتان إلى معلمة. تستطيعان القراءة وتعرفان مبادئ الحساب. وقد علمتهما عزف البيانو بنفسي."

كان يتحدث مثل أمي. لا يُفترض أن تتدخل المربيات في تعليم رعاياهن، لذا تغاضيتُ عن الأمر.

ثم قلت: "سيدي. ليلة البارحة عندما وصلت، لم يبد على السيدة إنجلاند أنها..."

انتظر أن أكمل.

"حسن، لم يبد عليها أنها توقعت مجيئي"

تنحنح وعاد لتناول فطوره. "إن زوجتي، آه، تنسى كثيرا."

"جميعنا كذلك بلا شك، يا سيدي، من آنٍ لآخر. إلا أني تفاجئتُ، لأنني ظننتها من حجز لي تذكرة القطار."

خيَّم صمت غير مريح، وطال حتى شعرتُ بالندم على إثارة الأمر من أساسه. ويظهر أن سيد إنغلاند قد استشعر هذا، فغيَّر الموضوع. "لماذا اخترتِ أن تصبحي مربية، يا دادة ماي؟ كثيرات من البنات أمثالكِ ستفضلن أن تصبحن موظفات، أو تعملن في متجر أو مصنع، حيث يتاح لهن التفرغ مساء." بدا فضوله حقيقيا، ولم أكن قد اعتدتُ أن يطلب أحد رأيي فشعرتُ بحرارة وتوتر.

قلت: "لطالما أحببتُ الأطفال."

"هه. أنتِ نادرة في هذا الزمان." وابتسم مرة ثانية.

"أنا أكبر إخوتي الخمسة، وكان والداي دائمي الانشغال، لذا أراني لا أشعر بغرابة مع هذا الدور."

أومأ موافقا، وإن شعرتُ بأنه لم يقتنع كثيرًا.

"كما أنني..." بحثتُ عن الكلمات المناسبة. "أراني لا أعرف عملا أكثر إمتاعا من تدريب عقل طفل." حظيت باهتمامه الآن، واستأنفتُ وأنا أشعر بنفسي تحت تركيزه. "تقول مديرتي أن المادة التي تعمل عليها المربيات هي أغلى من قماش القنب، وأجمل من الرخام، وأهمُّ للعالم من هذين الشيئين. نحن نشكِّل البشر ليصبحوا أشخاصا صالحين." احمرَّ وجهي خجلا. "يبدو هذا تفخيما مبالغا فيه."

"كلا، إني في غاية الإصغاء. وأتفق معكِ: فالبذرة الجيدة التي تُزرع في تربة خصبة تؤتي ثمارها من جيل إلى جيل. والبذرة السيئة كذلك. أنتِ طبيبة عقول، يا دادة ماي."

"أنا آسفة، يا سيدي ، لكنني لا أعرف ما تعنيه هذه الكلمة."

"طبيب العقول هو من يعمل مع أدمغة البشر. وخاصة المجرمين الذين يطلبون العفو بحجة الجنون."

كانت نبرة صوته دافئة وودودة، لكنني شعرت بأنني قلتُ أكثر من اللازم فانتفضتُ من فوق الكرسي. "يجب أن أذهب إلى الصغار الآن، يا سيدي."

"بالطبع. إنهم يتوقون جدا لمقابلتك. لقد قرأت عن معهد نورلاند في صحيفة التايمز وفكرت: هذا هو المكان المنشود. كنت منبهرا؛ إنه يبدو كخطوة نحو التقدم."

"شكرا لك، يا سيدي."

"آمل أن يحسن الصغار التصرف معكِ. وإن لم يحدث فأبلغيني."

"أمرك، يا سيدي." لم يبدُ من النوع الذي قد يعاقب أبناءه بالضرب. فعيناه الداكنتان الهزليتان وطريقته الخفيفة والسلسة في الكلام، توحيان بأنه سيأخذهم على حجره ويقص عليهم حكاية فيها مغزى وعبرة.

"أراكِ لاحقا في غرفة المعيشة."

"أمرك، يا سيدي. هل أخبر السيدة؟"

تناول سكينه وشوكته وبدأ يقطع السمك المدخن. "يمكنكِ ذلك. آه، وهناك أمر آخر،" قالها دون أن يرفع أنظاره. "أرجو منكِ أن توصدي جناح الأطفال ليلا. ستجدين المفتاح في الباب من الخلف."

بُهِتُّ. "أمرك، يا سيدي."

"طاب يومكِ."

"طاب يومك، يا سيدي."

***

كان المطبخ واسعا وعالي السقف، ومُبلَّطا بالآجر، ووجدت هناك الطباخة، سيدة مانيون، تكشط موقدا معقد الشكل بفرشاة قاسية. أما سيدة مانيون نفسها فقد كانت أقرب للون البرتقال، قصيرة وممتلئة وشعرها بلون مربى اللارنج. عرَّفتُ نفسي وطلبت الماء، فأجابت أن بليز قد ذهبت به للأعلى.

شكرتها ثم سألت: "في أي وقت يُقدَّم الفطور؟"

"في الثامنة."

"وماذا تُعدِّين للصغار؟"

"خبز محمَّص وثريد." كانت تتحدث دون أن تنظر لي، وقد ركعت بقوامها الممتلئ على الأرضية الحجرية.

"هل يمكنكِ إضافة بيض نصف مسلوق أيضا؟"

توقفت بفرشاتها في منتصف الطريق، وأمالت أذنها نحوي وضيَّقت عينيها في تركيز. "ماذا قلتِ؟"

قلت: "بيض نصف مسلوق. للصغار."

"تريدين بيضا أيضا؟"

"ربما يمكنكِ تقليل حصتهم من الثريد، إن كان هذا موائما."

"حقا!" نفخت خصلة برتقالية من على وجهها، لكنها لم تبد مُغتاظة. "حسن. سأضيف كمية أكبر من البيض في الطلب الأسبوعي. الوجبة الرئيسية في الثانية عشرة، والشاي في السادسة، لكني أرسل صينية شاي لجناح الأطفال في الرابعة عادة."

كررت بانشداه: "وجبة رئيسية؟"

ألقت الفرشاة في القدر ونهضت. "غداء، وجبة رئيسية، سمِّه ما شئتِ."

"آه، إذن فالغداء في الثانية عشرة؟ والشاي يحل محل العشاء؟"

صاحت: "لا وقت لديَّ للأحاجي! الوجبة الرئيسية في الثانية عشرة، والشاي في السادسة، كما قلت."

شكرتها وانصرفت. أُغلق باب المطبخ أسرع مما توقعت فأجفلتُ. وعلى الدرج صادفتُ بليز تنزل بوعاء فضلات. تنحَّت جانبا حتى أمر دون أن تقول شيئا، وعيناها الداكنتان مثبتتان على عيني.

قلت: "شكرا لكِ على الماء. كنتُ سأجلبه بنفسي. أنا دادة ماي."

"مرحبا." قالتها بتصنع لاذع. أُغلق باب عند نهاية الدرج، وواصلت هي نزولها على السلم. هرعتُ وأنا أكتوي بالمهانة، إلى جناح الأطفال وأغلقت الباب الأخضر خلفي، عازلة نفسي عن بقية المنزل.

وجدتُ الصغار قد استيقظوا. حيث جلست كبرى الفتاتين على سريرها جوار الرضيع، تحجزه بذراعها بعيدا عن الحافة فيما يشد هو شعرها الغامق. وفي الناحية الأخرى من الغرفة، وقفت الصغرى عند مشجب ثيابي، تفتش في عباءتي.

"صباح الخير،" قلتها متهللة، فانتفضت مبتعدة. مشيتُ نحو الستائر وسحبتها حتى آخرها، ورفعتُ الشيش وفتحت النافذة. نهض الصبي في فراشه. "أنا دادة ماي".

"لا تشبهين الدادات." قالها الصبي. "أنتِ صغيرة جدا."

"حسن، أنا دادة، والدادة الخاصة بك أيضا. ما اسمك؟"

"سول."

"سررتُ بلقائك، يا سيد سول."

ثم التفتُّ نحو البقية.

قالت كبرى البنتين: "الرضيع يُدعى تشارلي. وتلك ميلي. وأنا ريبيكا، لكن الجميع ينادونني ديكا."

"فيما عدا دادة نانغل." قالها سول. "كانت تقول أن الأسماء المختصرة هي للعمَّال."

قالت ميلي: "كنت أنظر إلى أغراضكِ فقط. لم أسرق شيئا."

أجبتُ: "أنا واثقة من ذلك. لا بأس أن تنظري، إلا أنه من الأدب أن تستأذني أولاً."

وضعت يديها خلف ظهرها، وكأنها تقيد نفسها.

"أخبرتها ألا تفعل،" قالتها ديكا. وتأملتها لوهلة. شعرتُ وكأنني أنظر لنفسي حينما كنتُ في مثل عمرها؛ نفس الشعر الطويل الغامق، وأدركتُ أنها أصغر بعام من إلسي. كان لها نفس عيني والدها، واتسمت بجدية رقيقة، ذلك الحس المسئول الذي يميز الابن الأكبر دائما. حملت الرضيع إلى حجرها فناغاها. أخذته منها وأجلسته حول خصري.

"كم عمر تشارلي؟"

"أتمَّ سنة في الشهر الماضي."

أقحم أصابعه داخل فمي وتظاهرت بعضِّها، فضحك الصغار. كان الرضيع سمينا بعذوبة، له بشرة وردية ولفائف شعر ذهبية.

أعلن سول: "ماتت دادة نانغل على ذلك السرير. استيقظنا ووجدناها جثة هامدة."

"هذا يكفي،" قلتها بحزم بعدما رأيتُ تكدر ميلي.

"كانت مربية والدنا، لذا كانت عجوزا جدا،" قالتها ديكا كنوع من المواساة.

"كانت بدينة وتفوح منها رائحة الملفوف!" كانت هذه ميلي، التي وثبت على فراشها وبدأت تقفز فوقه.

"هذا قول لا يصح."

استطردت ميلي: "كانت نائمة دائما. لم تستيقظ حتى عندما صرخت في أذنها، ثم أخذتها بعيدا عربة سوداء."

قلت: "أظنها كانت مُنهكة بعد عملها مربية لوقت طويل."

سألت ميلي: "هل تنامين، يا دادة ماي؟"

"نعم، بالطبع. لكني أنهض قبلكم حتى يكون كل شيء جاهزا عندما تستيقظون."

"لم نسمعك تدخلين. هل تشخرِّين في نومك؟"

"لا يصح أنَ تسأل البنات الصغيرات مثل هذه الأسئلة."

سأل سول: "هل تلعبين الجاكس[4] ؟"

"نعم، إنما أفضِّل لعبة الطاولة."

"والداما[5] ؟"

"نعم. والآن، كفانا دردشة لوقتنا الراهن. ديكا، لو أخبرتني بمكان كل شيء، فسوف أساعدكم في ارتداء ملابسكم."

مر الصباح في زخم من الفوضى. فحمَّمتُ الأطفال وألبستهم، لأكتشف أن ثيابهم لا تناسب مقاساتهم وأنها تحتاج إلى الكثير من التعديل. كانت تنورات البنتين الداخلية بحاجة للإطالة، وكذلك سراويل سول القصيرة التي كشفت عن فخذيه الأبيضين، وجميعهم عدا تشارلي كانوا بحاجة إلى أحذية جديدة. سألت عن الكرسي المتحرك، فأخبرني سول أنه يخصه؛ حيث يعاني من الربو ويستعمله أثناء تعافيه. كانت كلتا الغرفتين مغبرتان وسيئتا التهوية. ونافذة غرفة النشاط لا تنغلق حتى نهايتها، فسجلت ذلك في ذاكرتي لطلب إصلاحها.

4- لعبة أطفال يلعبونها بقطع معدنية صغيرة، ويجب على اللاعبين أخذ القطع من الأرض أثناء قذفها إلى أعلى ومسك كرة أو قطعة معدنية أخرى. (ويكيبيديا).

5- لعبة استراتيجية تلعب بين شخصين فقط على لوحة تحمل مربعات وباستعمال قطع على شكل أقراص غالبًا وتحركات القطع موحدة وإلزامية ويعبر من خلال القفز فوق قطع الخصم. (ويكيبيديا).

أحضرت بليز الفطور على صينية فضية كبيرة: تحوي ثريدا وبيضا وخبزا محمصا. لم تنبس بشفة عندما شكرتها، وظل فكها صلبا. وبينما أطعم الصغار أنفسهم، أطعمتُ أنا الرضيع، وأنا أمسح ذقنه السمينة بمنشفة. انتشرت على غطاء المائدة بقع جافة من الحساء والدهون، وبدا واضحا أنه تجنَّب أيام الغسيل عدة مرات. لاحظتُ رائحة كريهة فذهبتُ أبحث عنها، حتى وصلتُ إلى مصدرها عند صوان، فأزحته ووجدت هناك خبيئة من طعام فاسد مكوم أمام إزار الحائط. فاحمر وجه سول واعترف: أن دادة نانغل أجبرته على تناول أطعمة لا يحبها، وكانت كثيرة، في مقدمتها السمك وهلام اللحم واللسان. ولضعف نظر المربية العجوز، كان يتمكن من اختراع شيء يثير الاهتمام في الجهة الأخرى من الغرفة ثم يفرغه من جيبه.

أحضرتُ دلوا وألقيتُ فيه ما كشطته من عظم سمك وجلد لحم وكمية معتبرة من الملفوف المسلوق، ثم نزلت به إلى المطبخ لرمي محتوياته في القمامة. وفي الردهة صادفتُ تيلدا، خادمة الاستقبال. كانت ممتلئة الجسم وألمانية المظهر، بشعر أشقر مصفف في جدائل جذابة. أخبرتني أين أجد ما أحتاجه ثم واصلت طريقها مع الجاروف. كانت قاعة الإفطار خالية، وغطاء المائدة القرمزي خالٍ من الفتات.

عدتُ مسرعة إلى جناح الأطفال لإنهاء مهامي الصباحية، فنفضتُ الغبار وكنستُ الغرف، ونظفتُ المدفأة التي مر عليها شهور دون أن تضاء أو يُكنس رمادها. راقبني الصغار، وقد أثارتهم البدعة

الجديدة، وكانوا مبهورين عندما بدَّلتُ زيي بعدها، فتعرَّيتُ حتى قميصي الداخلي أمامهم ثم ارتديتُ ثوبي البني. أخبرتهم أنه ليس من اللائق أن يبحلقوا، وكانوا مطيعين كفاية ليشيحوا بأبصارهم.

ظننتُ أن السيدة إنجلاند قد تطلب حضوري بعد الفطور، لكن الصباح انقضى دون مقاطعة، وفي التاسعة، حمل سول نفسه إلى الطابق الأرضي لحضور درسه. ووضعتُ تشارلي في فراشه لينال غفوته ورفعتُ المنفضة إلى رف الكتب.

سألت البنتين: "هل تأتي والدتكما إلى جناحكم؟"

قالت ديكا: "أحيانا."

وقالت ميلي: "إنها لا تأتي قط."

ألحت ديكا: "بل تفعل، يا ميلي. إنها تفعل ذلك أحيانا، في أعياد ميلادنا مثلا،" شعرتُ بوخزة تعاطف.

"وأنتما لا تتلقيان دروسا؟"

"كلا."

"علَّمنا والدنا القراءة والكتابة."

لاحظت استخدام ديكا للزمن الماضي. كان وضع بنات آل إنغلاند مختلفا؛ لم تكونا مثلي وإلسي. فالتعليم بالنسبة لنا كان مثل بوابة، أو جسر ينقلنا من ضفة لأخرى. تذكرتُ ما قاله لي والدهما: البنات أمثالك. لم أخبره أني لا أحلم بمساءات أتفرغ فيها أو أجازات، ولا أرغب في تناول العشاء بمنزلي والنوم في فراشي. إن وقت الفراغ يجعل العقل يشرد، وهذا مما لا يصلح لي قط.

***

قبل الواحدة بدقيقتين، حملتُ تشارلي إلى الطابق الأرضي لإحضار سول. وكنتُ قد تركتُ البنتين للقراءة، وإن بدا جليا أن ميلي لا صبر لها على ذلك، وتفضِّل اللعب بدماها -كل دماها، لكل واحدة دقيقة أو اثنتان، ثم تنتقل لمن بعدها. كان تشارلي في طور التسنين وكثير التذمر. فصار عليَّ طوال الصباح أن أنتزع أشياء من فمه: دمى الجنود القصدير، محراك نار المدفأة، وحتى حشرة قمل الخشب. والتي كان المنزل، أو جناح الأطفال على الأقل يعج بها؛ حيث رأيت عددا منها يجثم فوق إزار الحائط وعكفتُ أجمعهم في مئزري لألقي بهم من النافذة. كنت قد أرعيت نصف انتباهي للباب انتظارا لطرقة من السيدة إنجلاند، لكن لم يأتِ أحد بعد، ولا بد الآن أنَّ الغداء يُعد في المطبخ. فكَّرتُ أنها ربما ستأتي بعد الغداء، أو الوجبة الرئيسية كما يطلقون عليها ، أو ربما هي في الخارج، أنها إحدى الأمهات الاجتماعيات اللائي يعشن في دوامة من الفساتين الدانتيل وبطاقات الدعوات. ظل باب غرفتها مغلقا طوال الصباح. قررتُ أن أسأل الخدم أثناء تناول الطعام، مُذكرة نفسي أن تعلم نظام وعادات أي منزل وسكانه، يستغرق وقتا.

دقت الساعة الطويلة في الردهة دقة واحدة، وانبعثت من غرفة الطعام حركة كراسي. أوقفتُ تشارلي على الأرض وأمسكت بكلتا يديه؛ تقوست ساقاه تحت وزنه، وعندما ظهر شقيقه صاح في جذل.

قال سيد بوث: "مرحبا. لا بد أنكِ المربية." نطقها بلهجته اليوركشايرية. وكان يرتدي ربطة عنق وطاقية بنية، كتلميذ أكبر شكلا

من سنه، ويحمل حقيبة كتف بالية تصل إلى وركه. كان أصغر مما تخيلت، في منتصف العشرينيات، وضئيلا، وإن كانت يداه كبيرتان. وجهه من تلك الوجوه التي عزمت على التفاؤل، وابتسامته بدت مكوِّنا ثابتا تحت شارب بني قصير. شعرتُ بإعجاب فوري نحوه.

مرر سول ريشة طويلة لامعة على الدرابزين وقال: "دادة ماي تنام في سرير دادة نانغل".

قلت: "طاب نهارك، يا سيد بوث."

"سررتُ بلقائك. أشكركِ على البرتقال. كانت لفتة لطيفة."

أومأت. كنتُ قد طلبت من سيدة مانيون تقطيع بضعة برتقالات ووضعها في طبق صغير للدرس؛ لأن سيم دائما ما قالت أن الأطفال يحتاجون إلى المرطبات أثناء التعلم، وعليه قررتُ إعداد فواكه طازجة كل يوم.

"على الرحب والسعة. ماذا تحمل في يدك، يا سيد سول؟"

"وجدتها في الغابة."

قال سيد بوث: "أراد استخدامها في الكتابة، لكنني أخبرته أننا نستخدم الأقلام الجافة في هذا المنزل، وفي هذا القرن."

قلت: "أظن عليك إعادتها إلى حيث وجدتها. ربما يبحث صاحبها عنها."

حدق سول بي. "الطيور لا تبحث عن ريشها. كما أنها ريشة ديك بري على أية حال. هكذا أخبرني سيد بوث."

انتزعها سيد بوث من بين أصابعه. كان نسقها معقدا ودقيقا، مثل جناحي العثة. قال: "إن مكانها في قبعة لا في حجرة دراسة،"

وأعطاها لتشارلي، الذي ما لبث أن أطبق لثتيه حولها. ضحكنا جميعا، وفي تلك اللحظة أقبلت بليز من المطبخ.

قالت: "تساءلتُ أين قد تكون ذهبت." ظننتها في البداية تقصد سول وعجبتُ عن السبب الذي قد يدعوها للبحث عنه. لكنني ازددتُ ذهولا عندما أجابها سيد بوث.

"ها أنا قادم. أخبري سيدة مانيون أنه يحسن أن أجد بعضا من كعك الفاكهة، وإلا سيكون الأمر مضيعة للوقت."

أدارت بليز عينيها في محجريهما، وإن كانت تبتسم، وعادت على أعقابها من الباب.

"هل تعرف الخدم؟" سألته وأنا أشعر بإحباط غريب.

"نعم. بليز هي خطيبتي."

ضحكتُ مرة أخرى، لكنه لم يفعل، وابتسم لي في حيرة. فقلت بسرعة: "هذا رائع. متى تتزوجان؟"

"في الشهر المقبل."

"مبارك."

"شكرا لكِ."

مكتبة
t.me/soramnqraa

تعلق سول في الدرابزين الحديدي ، وقد أضناه الملل.

"حسن، يجب أن أذهب."

"سعدتُ بلقائك." قلتها وأنا أحمل الرضيع. في حين استأنف سيد بوث طريقه نحو المطبخ مُصفّرا، وحقيبة كتفه ترتطم بفخذه. وما إن سمعت باب المطبخ ينغلق ونحن نصعد الدرج، حتى سألت سول هل عادةُ معلمه أن يمكث بعد الدرس.

"أحيانا." قالها دون اكتراث. "ماذا سنتناول في العشاء؟"

"إنها مفاجأة." لم أكن قد وضعتُ مع سيدة مانيون قائمة طعام بعد؛ حيث جعلني لقاؤنا الأول أقرر الانتظار إلى اليوم التالي.

"ماذا سنفعل الآن؟"

"خطر لي أن نتمشى قليلا."

"نتمشي! هل يمكنني أن أركض؟"

"يمكنك أن تركض، إن شئت."

انبعثت تكة خافتة لباب يُفتح، وظهرت السيدة إنجلاند في فسحة السلم. وكانت ترتدي تنورة كريمية وصديرية من الدانتيل ودبوس زينة عند عنقها. كانت يداها عاريتان، وتجمدت في مكانها عندما رأتنا.

"سيدتي،" قلتها مع انحناءة، وأنا أرفع تشارلي أعلى.

أجابت: "طاب صباحك،" رغم أن الساعة تجاوزت الواحدة ظهرا. مرَّت لحظة أو اثنتان من الصمت المحرج، انتظرت فيها أن تدلي ببعض الملاحظات أو تسلِّم على أبنائها، لكنها أخذت نفسها إلى الحمام وأغلقت بابه خلفها.

كانت قد تركت غرفة نومها مفتوحة؛ ومن فتحة الباب رأيت ركن سرير ذو هيكل معدني فوقه غطاء بلون العاج، وخلفه نافذة تتوسط جدارا طُلي بالبني والأخضر. ارتفع جانب التل بحدة من خلف المنزل، واحتكت الأشجار بالنوافذ. كان الحمام صامتا، وحدستُ أنها تقف على الجانب الآخر من الباب، تنتظر انصرافنا. تعالت أصداء ضحك من المطبخ. وقفتُ أنصتُ للحظة، قبل أن أنتزع الريشة مرة أخرى من تشارلي، وأغلق الباب المكسو بالجوخ.

الفصل الخامس

كانت عائلة إنغلاند من الروم الكاثوليك، وفي أول أحدٍ لي بيوركشاير رافقتهم إلى الكنيسة. تكدس سبعتنا في العربة لنقطع ميلين إلى المدينة، والخدم يسيرون أمامنا؛ وكانوا يأخذون بقية يوم الأحد من كل أسبوع أجازة فجهزوا غداء باردا لعودتنا.

كنتُ قد قابلتُ مساعدة الطباخة، إميلي، في صباحي الأول، وأنا أنزل بالدلو الذي يحوي حفاضات تشارلي إلى غرفة الغسيل. اتكأت بليز على الجدار الأزرق الفاتح، تقضم أظافرها. وقالت: "كانت دادة نانغل تغسلهم بنفسها،" مشيرة إلى الدلو. رمقتها إميلي، وهي فتاة هزيلة تعاني بشدة من البثور، بنظرة سريعة، ثم حولت أنظارها نحوي بخجل. لم أقل شيئا ووضعتُ الدلو على الأرض. رفعت بليز حاجبيها وزاوية فمها باستهزاء. وردت بحدة: "ألا يسمح مقامكِ الكريم بأعمال الغسيل؟" أجبتها بأنني لا أستطيع ترك الصغار بمفردهم لفترة طويلة. وبها استقامت من متكئها وتجاوزتني إلى المطبخ. وتناولت إميلي الدلو دون كلمة.

سارت بنا العربة فوق منعرجات الدرب عبر الغابة التي يتخللها ضوء الشمس. كشفت نزهاتي اليومية مع الصغار كم كان المنزل نائيا، فلا جيران على جانب التل والمصنع يقبع مثل سرٍّ في قاع الوادي. توقعتُ يوركشاير أرضا قاحلة تتناثر على أطرافها قرى ببيوت حجرية، لكن المشهد هنا كان أشبه بحلم أو قصة خرافية. فارتفعت الأشجار كأعمدة دخان ترتدي سترات مطحلبة بلون أخضر

مصفر، وانبثق السرخس كنوافير من الأرض الرطبة. كانت الأرض منحدرة ومتشققة، بها وديان مياهها داكنة وشلالات مياهها فضية تصب جميعها في النهر البني سريع الجريان بالقاع. أما جدران الوادي الشاهقة فاحتجزت أدخنة المصانع التي اختلطت بالسحب المنخفضة فأنتجت مناخا كئيبا وثقيلا، إنما في ذلك الصباح، صفى الجو كاشفا عن سماء زرقاء مشرقة.

أراني الصغار أماكنهم المفضلة: جلاميد ضخمة، جُرُف لها أسامي، والتي تناثرت عبر الغابة وتكومت فوق بعضها دون نظام، ويبلغ ارتفاع بعضها ثلاثون قدما، وتزينت طبيعيا بفجوات وثقوب تصلح للاختباء. أخذوني لرؤية مواطئ الأحجار في المياه ورجوني أن أسمح لهم بعبور النهر. نطَّ سول بسهولة من إحدى الضفتين إلى الأخرى ثم عاد ضاحكا عندما رفضتُ تجاوز حدود الماء. أخبروني أن دادة نانغل لم تأخذهم قط إلى الغابة. كان سول يسجل قائمة بعاداتي وتفضيلاتي ويقارنها بعادات وتفضيلات دادة نانغل، إلا أن الكفة مالت لصالحي بوضوح: كانت المربية القديمة تجبرهم على تناول ما تبقى من طعام في وجبتهم السابقة، ولا تسمح لهم سوء بقراءة الكتاب المقدس أيام الآحاد وتنشفهم بقسوة بعد الاستحمام. كم كانت الحياة هنا مختلفة عن مروج الحدائق والشرفات ذات اللون الكريمي التي اعتدت عليها؛ فهنا قفز الصغار بين الضفاف واختبئوا خلف الأشجار، فتارة أراهم وتارة يتلاشون. كان سول بارعا في هذا، فيختفي ثم يقفز من مكانه ليفاجئنا. ظلت ميلي قريبة مني ومن عربة الأطفال، تتلاطم معها، وحامت ديكا حولنا، تجمع الزهور البرية. كانت عليمة بأحوال

النباتات والحيوانات، فأرتني مستوطنات من شجر الزان وتكتلات صغيرة من عيش الغراب. وكانت تعرف أسماءهم جميعا، وفسرت لي أن أقوى النباتات احتمالا هي التي تنمو في ظلال الأشجار القريبة الحاجبة للضوء.

جلست ديكا قبالتي في العربة، في ضيق داخل ثوبها المخصص لأيام الآحاد. كانت مختلفة عن شقيقتها ميلي، التي قضت الصباح كله في اختيار شرائط الشعر وأصرت على تغيير الرباط الساتان لقبعتها. جلس والدهم وقد لف ذراعا حول ابنه دون إحكام، ووالدتهم في الركن مع حقيبة مزركشة صغيرة في حجرها. لم تعرض السيدة إنجلاند أن تأخذ الرضيع، ولم تكن قد زارت جناح الأطفال قط في الأيام الأربعة التي مضت منذ مجيئي. كنتُ في كل مساء أصحب الصغار إلى أبويهم في غرفة المعيشة، وفي كل مرة لاعبهم والدهم فيما اكتفت والدتهم بالنظر. كانت تجلس على ذراع كرسي، وكأنها لا تنوي البقاء، ويبدو الفرج عليها واضحا عندما تعلن تيلدا بعد نصف ساعة عن العشاء.

وبهذا القدر الضئيل من التفاعل بالكاد كونتُ انطباعا عن السيدة إنجلاند، وأعترف أن أملي قد خاب بما رأيته حتى الآن. وتذكرتُ كثيرا في أول أيامي هنا، سيدة رادليت، وكيف كانت تصعد خلسة بشريحة كعك من المطبخ لأجلي أو تلعب معنا في الحديقة، راكعة على العشب دون اكتراث لما قد يسببه ذلك من لطخات في تنورتها. أما السيدة إنجلاند فقد لزمت غرفتها، تتناول فيها الفطور كل صباح ثم تخرج منها نحو الظهر لتأكل مع زوجها في غرفة الطعام

عندما كان يعود من المصنع في الثانية عشرة والربع من كل يوم. كانت في الأغلب ترتدي الأبيض وتتجول في صمت، فلا يصدر خفّاها أي صوت فوق الأرضيات الحجرية، وكأنهما من قماش. أما الأغرب من كل ذلك فهو طريقة سيد إنغلاند في القيام بدور الزوج والزوجة. فكان أن أمرني باللجوء إليه عند أي سؤال، ويأتي أيضا من حين لآخر، إلى جناح الأطفال لتقبيلهم قبل النوم. كنتُ قد أريته قائمة الطعام الأسبوعية التي أعددتها قبل إعطائها لسيدة مانيون؛ وطلبت منه نقودا لسد النقص في خزانة الأدوية؛ وأخبرته بحاجة الصغار لأحذية جديدة. خشيتُ مع كل سؤال وطلب تافه، أن أصبح مصدر إزعاج، وأن تتحول رؤياي إلى مشهد بغيض، لكن اتضح أن مخاوفي بلا أساس: فقد كان دائما بشوشا وظريفا، وكثير الممازحة والثناء. حتى أنه أخبرني في الليلة السابقة أنه لم يعهد جناح الأطفال بهذا النظام من قبل، فشعرت بتوهج دافئ من الانتصار.

"هل تذهب عائلتكِ إلى الكنيسة، يا دادة ماي؟" هكذا سألني الآن. كنت أنظر إلى الأشجار من النافذة، وقد استغرقت تماما في عالمي.

"لا، يا سيدي."

كنا في أيام الآحاد نشارك جميعا في غسل محصول الأسبوع، فيما يضبط والدنا الميزانية. كانت الطاولة الكبيرة التي تقشر طلاؤها هي قلب بيتنا النابض، والتي عليها فعلنا كل شيء: فخيطنا وقشرنا وعجنّا وأكلنا. يجلس والدنا في قميصه، عاقد الحاجبين أمام دفتر الحسابات، فيما نعمل نحن حوله وتطهو والدتنا الطعام. وإن

أحدث تيد وآرتشي صخبا، طردهم من المكان. كان لا يحسن إحصاء المبالغ الكبيرة ويطلب مني غالبا مراجعتها. فكنتُ أمرر إصبعي على الأعمدة، شاعرة بعينيه تتنقلان بقلق من المكتوب إلى وجهي. كانت الأرقام خاطئة نصف الوقت، وكنت أصححها بهدوء. فيقول: "ماذا كنت سأفعل بدونكِ، يا روبارب؟" معيدا الدفتر إليه بتنهيدة.

رمقتني السيدة إنجلاند من تحت قبعة عريضة. وكانت ترتدي في عنقها صليبا ذهبيا رقيقا.

قال سول: "تمنيتُ لو أننا لا نضطر إلى الذهاب إلى الكنيسة. فهي مملة ورائحتها كريهة."

اختلج شارب سيد إنغلاند؛ والتقت عينانا، فأشاح بوجهه. "دعنا لا نثبط من همة دادة ماي. هل ذهبتِ إلى قدَّاس من قبل؟"

"لا، يا سيدي."

"كيف هي لغتك اللاتينية؟"

"أخشى أنها ضعيفة، يا سيدي."

"قد تجدين إذن صعوبة في التركيز. لقد وصلنا."

وفي البلدة، استدارت الوجوه نحو العربة وحدقت عبر نافذتها. استقامت الكنيسة على طريق ترابي واسع يقابلها من الناحية الأخرى متنزه صغير. بعد المروج المرتَّبة وأحواض الزهور، جرَّت خيول عبَّارات متكدسة عبر القناة. كانت الكنيسة ذات جو بارد ورائحة زنخة؛ ووجدنا صفي مقاعد في المقدمة وجلسنا. احتل سيد إنغلاند وزوجه وسول الصف الأول، وأخذتُ أنا الثاني مع البنتين والرضيع. كان الصغار مهذبين كأفضل ما يكون، وحتى ميلي ظلت

هادئة، رغم تململها البسيط عندما أسهب القس في موعظته. كانت عائلة إنغلاند من بين عائلتين أو ثلاث هم الأفضل ملبسا؛ حيث بدا الحشد الموجود متألفا من عمال عاديين، استرقوا الأنظار كثيرا نحوي والصغار.

بعد عشر دقائق من الموعظة، بدأ تشارلي في البكاء. وضعت إصبعا في فمه، وعندما فشل في مصِّه، أعطيته دمية فأرة قماشية كنتُ قد صنعتها من محرمة. لكنه لم يولها اهتماما، وظل يتلوى بصورة عرفتُ أنها ستنتهي بالعويل. وفيما ضممته لأخرج به، استدارت السيدة إنجلاند.

"هاته،" هكذا همست، فأذهلتني المفاجأة عن الاعتراض، وناولتها إياه عبر مقاعد الصلاة ونهضت به مارة بابنها وزوجها ومضت في الرواق، مخلفة وراءها رائحة مسحوق تجميل خفيفة.

شاهدتها من وراء كتفي وهي تبتعد. واستقرت فوقي عدة أزواج من الأعين، فعدتُ للنظر أمامي. استغرقت البنتان في أحلام اليقظة، وقد خلت أعينهما من أي تعبير. تثاءبت ديكا. وبعد بضعة دقائق انفتح باب الكنيسة محدثا صريرا ودنت عبره خطى أقدام ناعمة. ناولتني السيدة إنجلاند تشارلي، الذي كان متورد الخدين إنما هادئا، ثم عادت إلى مكانها في الصف. لاحظت أنها ظلت تحمل حقيبتها الحريرية؛ وقد وضعتها إلى جوارها ورفعت كتاب ترانيمها بقفازين لم يتبقعا.

ثم نهض المصلون وبدأوا في الاصطفاف خارج مقاعدهم أمام المذبح. سألت ديكا ماذا يوزع القس في المقدمة وأجابت أنه

يقوم بالمناولة، فيمنح الكبار خبزا ونبيذا، ويمنح الصغار بركة. تبع ثلاثتهم والديهم تلقائيا في الطابور الذي يتحرك ببطء. أرسل سيد إنغلاند تحية برأسه لعدة أشخاص والتقت عيناي بعدد كبير في طريقهم للخارج. كنتُ ملفتة جدا للنظر، بزي عملي معروضا للجميع، عدا بنت أو اثنتين ابتسمتا لي بخجل. شعرت بالفرج عندما بدأ تشارلي يئن قبل وصل عائلة إنغلاند إلى المذبح. خرجتُ به في الحال، وأنا أشعر بعشرات الأعين تكتسحني؛ ما منحني إحساسا بأني أسير في شرك عنكبوت تلهفتُ لتحرير نفسي منه.

عبرت بتشارلي الطريق إلى المتنزه الصغير، وهناك أنزلته على ممر متعرج يحده حاجزان جميلان وينتهي بنصب تذكاري لضحايا الحرب. ولأنه صباح يوم أحد، كان المكان شبه خالٍ؛ والزائر الوحيد بخلافي كان رجلا يقرأ جريدة على مقعد حديقة مطلي بالأخضر. كان تشارلي يتقدم بسعادة نحو حوض تندلع منه زهور الثالوث والمخملية، وأوقفته عن غرس قدميه في الطين، وأمسكتُ بيده لنتجول في اتجاه القناة.

حيَّاني الرجل الجالس على المقعد بتحية الصباح، فرددتُها.

استأنف قائلا: "صغير عنيد، أليس كذلك؟"

قلتُ: "أجل."

"أراهن أنك تجعل مربيتك تتفوق عليك." قالها مباشرة لتشارلي، الذي تعثر وسقط على كفيه. وفي الحال شرع يبكي، فأنهضته ومسحت يديه بدمية الفأرة القماشية. انحنى الرجل للأمام وأسند مرفقيه على ركبتيه. كانت بشرته مسمرَّة ومتجعدة من أثر

الشمس، وله يدا عامل، من تلك التي وُضعت في الوسخ والزيت حتى تعذر تنظيفها. كان ما تحت أظافره مسودًّا.

"لا بد أنكِ مربية آل إنغلاند."

"أنا كذلك."

"هل أضعتِ البقية؟"

استغرقتُ دقيقة لأدرك أنه كان يمزح. وقلت: "لا، يا سيدي."

قال بابتسامة متكلفة. "لا حاجة بكِ لاستخدام الألقاب."

حملتُ تشارلي على خصري وتمنيت له ببرود يوما سعيدا.

انتهى القداس، وتدفق الناس من الكنيسة إلى الشارع. كانت عربة آل إنغلاند قد وقفت جانبا قبالة حاجز الرصيف، ومعها سائقهم، برودلي -وهو رجل يوركشايري صلب لفحته الشمس، يجلس أمام اللجام، وهو يمضغ شيئا قاسيا ويحدق في الطريق بلا اهتمام. أجلت نظري بحثا عن الآخرين. كان سيد إنغلاند يحادث رجلا أنيق الملبس إلى جانبه امرأة ترتدي قبعة كبيرة وثوبا بكرانيش. في حين تخلفت فتاتان كبيرتان مع الأطفال المتجمعين حولهما، وسول يكلم صبيا في مثل سنه يرتدي قبعة خضراء وبدلة. أما السيدة إنجلاند الواقفة إلى اليمين، فقد كانت تنظر مباشرة نحوي. ورأتني أعبر الطريق.

قلت: "أعتذر عن طول انتظاركِ، يا سيدتي."

طرفت عيناها بسرعة من فوق كتفي وفي اتجاه المتنزه، ثم استدارت وصعدت إلى العربة. لحقت بها مع الصغار، وبعد دقيقة أدخل سيد إنغلاند رأسه.

أعلن قائلا: "سأذهب إلى ليث هول." أومأت السيدة إنجلاند برأسها وعادت تحدق من النافذة، وقد حجبت القبعة وجهها. "باي باي، يا ملائكتي،" قالها بصوت منغَّم للصغار، ثم صفق الباب بحماسة.

***

في تلك الليلة، وبعدما نام الصغار، أوصدتُ باب جناح الأطفال وخلعت حذائي وجلست على سريري لأكتب إلى إلسي. آلمني ظهري؛ فحمل تشارلي جعل عضلاتي متشنجة ومشدودة، ودفعتُ مفاصل يدي في كتفي وأنا ألفهما واتكأتُ على الجدار إلى أن تعيد عظامي ترتيب نفسها. كانت الكتابة إلى شقيقتي تشبه حلوى ادخرتُ لها نقودا؛ جمعتُ قصصا ونوادر صغيرة في ذهني ووجدتُ متعة في تدوينها. تخيلتها تقرأ على طاولة المطبخ، ورسغها عند صدغها، وابتسمت. فرشتُ أوراق التنشيف والكتابة التي اشتريتها من بائع قرطاسية على طريق أوكسبريدج، وكانت مزخرفة بأغصان اللبلاب الخضراء ونبات الهدال الأحمر المميزة لأعياد الميلاد؛ كان معروضا بسعر مخفض بعد انتهاء موسم الكريسماس، لكنه سميك وناعم حتى أنني استخدمته في كل أيام السنة.

عزيزتي إلسي. نفخت برفق على الحبر ليجف، وتناولتُ هيربي، دبدوب إلسي، الذي أعطته لي عندما غادرتُ المنزل. كان ثقيلا، مصنوعا من الصوف، ومازال بصورة ما يفوح برائحتها. تساءلت هل هناك كلمة تعبر عن الحنين ولكن ليس للمكان بل للأشخاص؛ فأنا لم أشتق لمنزلنا ولا غرفة نومنا، بل فقط للشعور الدافئ والفريد الذي يبعثه وجودي بين أكثر الأشخاص الذين يعرفونني. لا أحد هنا يناديني روبي. لا أحد هنا يعرفني.

زُينت جدران جناح الأطفال ببراويز، وفي مواجهة سريري عُلقت صورة مستنسخة لفتاة شقراء مع هرة وبكرة صوف. كنتُ أحتفظ في صغري بدفتر قصاصات لصقتُ فيه صور أطفال بسيقان ممتلئة في غرفهم مع حيواناتهم الأليفة. تمنيتُ اقتناء كلب أو قطة، لكن ذلك كان مستحيلا مع شقتنا التي تقع فوق المتجر. ربَّينا دجاجات في الفناء، وجمعنا بيضها للفطور، وعاش دامسون المهر في ملحق ذو سقف معدني بالٍ. عندما كنتُ في العاشرة، فتح روبي ستائر غرفته ذات صباح ليجد الملحق خاليا. سمعتُ صرخته من غرفة النوم: "اختفى دامسون!" فرفعت أنظاري من فوق الموقد، حيث كنت أقلي دهنا. وكنتُ قد تركت الباب المطل على الدرج مفتوحا لطرد الدخان. "هرب دامسون!" أقبل رابي مُندفعا، وهو ينكبُّ من الدرج. كانت أمنا تقطع رغيفا على الصوان ولم ترفع أنظارها. أسرعتُ إلى غرفة النوم ونظرتُ إلى الفناء، إلى مخزن الفحم ومخلفات التقشير، وإلى صناديق التوصيل المكومة، وكأنه سيختبئ خلفهم. واصلت الدجاجات خمشها في حظائرها بلا مبالاة. وكانت بوابة الزقاق مقفلة.

"الحصان ليس هناك،" كررتُ مخاطبة أمي من ظهرها. لكنها واصلت التقطيع.

"لقد باعه والدك."

"ماذا؟"

"المقلاة تحترق."

عدتُ إلى الدهن المقلي، وقد محت الصدمة كل تفكيري. نزل تيد بخطى مدوية بعد رابي، وهو يرتدي حذائه. "لمن باعه؟"

"لا أعرف."

"لكنه مهرنا،" قلتها بصوت أجش، عبر وخز الدموع. "إنه يعمل لأجلنا."

"صه الآن، وضعي الفطور. سيكون والدكم هنا خلال لحظات."

ولم يُؤتَ على ذكر دامسون مرة أخرى.

آمل أن تصلكِ رسالتي وأنتِ في خير حال. مضى أكثر من عام منذ آخر مرة رأيت شقيقتي. في يوم سبت من أيام الربيع، ركبتُ القطار لزيارتها ورابي في برمنغهام. التقينا في الواحدة عند تمثال هوراشيو نيلسون [6] . كنتُ قد وعدتهما باصطحابهما إلى واحدة من أجمل قاعات الشاي في سوق البول رينغ، حيث صحون الفناجين ذات الحواف الذهبية ومفارش المائدة الدانتيل. لمحتُ شقيقي أولا، ولم أتعرف الفتاة النحيفة إلى جواره في بلوزتها الكاروه وتنورتها الطويلة التي ترتديها الراشدات. وكانت قد ربطت جدائلها بشرائط كاروه لتتماشى مع بلوزتها. أمسكتُ إحداها مبتسمة وجذبتها. فتهلل وجهها. كانت تلك حيلة قديمة؛ حيث اعتدتُ أن أخبرها أنها تملك شعرا مبخوتًا وأنني أشده لأتمنى أمنية. رابي أيضا تغير مظهره: فوقف أمامي شابا بشارب غض مرتديا ملابس والدنا القديمة.

كتبتُ على ضوء المصباح إذ يحلُّ المساء. كانت النافذة مفتوحة، فحرك نسيمٌ الستارة وجعل الشيش يصطك بالإطار. نهضتُ لإغلاقها لألا يستيقظ الصغار.

6- ضابط بحرية بريطاني مشهور.

كان المنظر في الخارج معتما إنما ليس حالكا، وإن استحوذت الأشجار على ما تبقى من ضوء واهٍ، وعبر الفناء رأيت خيالا. كان سيد إنغلاند يقف في الجزء المنحدر من الأرض وظهره للمنزل، مرسلا أنظاره إلى الوادي. تناثرت على جانب التل ثقوب صفراء من البيوت الريفية البعيدة، فأضاءته مثل نجوم. أرسل الطرف البرتقالي المشتعل لسيجاره وهجا لامعا، صعد وهبط مع حركاته وهو يدخن. كان يملك عادة رمي ذبابات سيجاره أينما قصَّها؛ وقد تبعثرت القطع الصغيرة في أنحاء المنزل كفتات الخبز، وكنتُ أجمع تلك التي لم تنتبه لها الخادمات، وأضعها في جيبي بعيدا عن متناول تشارلي.

وفي حركة واحدة سريعة ألقى السيجار واستدار رافعا أنظاره إلى المنزل. فأجفلتُ للوراء وأفلتُّ الشيش، وتجمدتُ مكاني فيما ارتطم بالزجاج. وبعد بضعة ثوان سمعت وقع أقدامه على الأرضية الحجر، ثم فتح وغلق الباب الرئيسي. بهدوء، نزلتُ على ركبتي وسحبت صندوق أمتعتي من تحت السرير. كان قد وصل صباح الأمس، وشعرتُ عند رؤيته كأني قابلتُ صديقا. حملتُ المصباح إليه وفتشتُ عن الطوابع، حتى وجدتها ولصقتُ واحدا على الظرف. وقبل أن أغلقه، تحسستُ من باب العادة علبة الشاي الصفيح، والتي احتفظت فيها بأغلى أشيائي، ومررتُ يدا على الغطاء. ليس الليلة.

نشقة صغيرة، وحركة. استدرتُ ورأيت ميلي، مُتكئة على مرفقيها، وتراقبني من بين قضبان سريرها الحديدية.

سألتْ: "ماذا تفعلين؟"

همستُ: "لا شيء،" وأنا أدفع الصندوق إلى الظل. "عودي إلى نومك."

الفصل السادس

خلف مصنع سيد إنغلاند تقع بركة راكدة شفافة، لا يستعملها الآن، في عصر الطاقة البخارية، سوى البط وغيرها من الطيور البرية. وبعد ظهر يوم مشرق وصاف، طلبتُ من المطبخ بعض الخبز البائت، وعدتُ إلى جناح الأطفال بمفرش مائدة صغير يحوي مغنما كبيرا منه لتقابلني صيحات الفرح. أسرعوا بإنهاء حسائهم، وادخرت ديكا رغيفها لتتأكد هل يحب البط الزبدة أم لا. مع كل يوم أقضيه مع ديكا، تثير إعجابي أكثر. كانت حسَّاسة وذكية، حنونة وخجولة، وشغوفة بالطبيعة. كانت تظهر إلى جانبي حاملة الدبوس المشبك وأنا أغير حفاضات تشارلي وتسبقني دائما في إضاءة المصابيح كل مساء. كانت تعيد كل شيء استخدمَته أو لعبت به إلى مكانه، على عكس أخيها وأختها، اللذين كانا يخلفان وراءهما خرابا؛ فترتبه هي أيضا. في كل ليلة أقرأ لهم صفحات من ساحر أوز العجيب، ورغم أنهم جميعا يصغون، إلا أن ديكا كانت مفتونة، لكنها لم تتذمر قط عندما أعدتُ الكتاب إلى الرف، ولم تطلب قط أكثر مما يُمنح لها. كنتُ أحيانا أتعجب لأمرها: فوجود أمها في حياتها ظهر أنه شبه معدوم، لكنها لم تبد متأثرة بذلك.

أشارت الساعة إلى الثانية والربع في الوقت الذي غادرنا فيه المنزل. كان تشارلي في عربته نزِقًا، وفيما أحاول دفعها عبر البوابة ظهر سيد بوث من جانبي على دراجته.

"دادة ماي." هرع لمساعدتي، بعد أن أسند دراجته إلى شجرة ورفع عربة الأطفال خارج البوابة.

"شكرا لك،" قلتها، وقد ضايقني لمسه.

"إلى أين وجهتكم؟"

"إلى كوخ البوابة لإرسال خطاب، ثم نعود."

صاحت ميلي: "لكننا سنطعم البط أولا!"

"حقا؟" انطلق يسير معنا على الطريق. لزمت ديكا جواري، فيما أخذ سول وميلي جانبي سيد بوث ودراجته بوقع خطوات واحد. كان درس سول قد انتهى في الواحدة، ما يعني أن سيد بوث ظل في المطبخ لثلاثة أرباع ساعة. لاحظتُ بعد انصرافه في كل يوم، أن أسلوب بليز يتحسن بصورة طفيفة ومؤقتة، قبل أن يبهت وجهها من جديد.

أخبرته ميلي: "تُعلِّمنا دادة ماي التهجئة بواسطة الجن اللعوب" وبجرأة تناولت يده.

"حقا؟" قالها مُتحيِّرا هذه المرة. "أيُّ جن لعوب هذا وأنتم في المنزل؟"

"تعني الجناس المقلوب [7] ،" قالتها ديكا، وقد أصبحنا نسير إلى جانبهم.

قال: "تبدو لعبة رائعة. ما الكلمات التي يمكنكِ تهجئتها؟"

7- تكون كلمة أو عبارة مقلوبة إذا أعطى تغيير ترتيب حروفها كلمة جديدة أو عبارة. (ويكيبيديا)

أعلنت ميلي: "شجرة وخشب ونهر، وقطة ومضرب وكرة."

قال سول: "إنها كلمات بدائية. أراهن أنكِ لا تستطيعين تهجئة كلمة هندي أو قرصان."

ذكَّرته: "لا يملك الجميع معلما خاصا."

سألني: "هل كان لديكِ معلم خاص، يا دادة ماي؟"

"كلا. تعلمتُ في المدرسة."

صاحت ميلي: "هل يمكنني الذهاب إلى المدرسة؟ أريد الذهاب إلى المدرسة."

التقت عيناي بعيني سيد بوث.

أجبت: "ليس اليوم."

"متى إذن؟"

قال سيد بوث: "والدي معلم في مدرسة. إنه يعلم أولادا وبناتا كثرا قبل انطلاقهم إلى العمل."

قطبت ميلي جبينها، "العمل أين؟"

"في المشاغل والمصانع. كالذي يمتلكه والدك."

لم ينتبه الصغار للنبرة اللاذعة الخفيفة في صوته.

سألت ميلي: "هل تعمل في المدرسة؟"

"كلا، يا غبية."

"سول!" نهرته.

"أنا أعلِّم في المنازل،" قالها سيد بوث لميلي. "وليس ثمة غباء في طرح الأسئلة، لذلك لا تتوقفي عن ذلك."

قلت لهم: "لكن يكفي أسئلة اليوم. أركضوا سوية إلى البركة."

انطلقت ميلي في عدو سريع جوار أخيها. ثم لحقت ديكا بهما، وتسابقوا ثلاثتهم عبر الجسر.

"من المؤسف أنهما لن يرسلاهما إلى المدرسة،" قالها سيد بوث ونحن نسير متجاورين. "أعرف بنات حافيات أفضل تعليما من هاتين البنتين."

موافقته كانت لتعد خيانة، لكنه لم يبدِ انتظارا لردي. كنتُ قد بدأت أعلمهما التهجئة بمربعات من لعبة كلمات متقاطعة، مع أنه لم يكن ضمن مسئولياتي. مع غياب سول عن جناح الأطفال معظم الصباحات ونوم تشارلي، صنعنا ركنا للدراسة على طاولة الإفطار باستخدام دفاتري الفائضة من أيام نورلاند. لم أكن قد طلبتُ منهما إخفاء الأمر، لكن ديكا لم تقل شيئا لأبويها، وكان والدهم يبقيهم في انشغال دائم بغرفة الجلوس، وميلي أقل تركيزا من أن تتباهى. علمتُ أن هذا سيثير استياء سيم. فقد درَّبتنا وفق مبدأ محدد: وظيفتنا تعليم الأدب والأخلاق، وليس مبادئ الحساب.

قلت لسيد بوث: "آمل أننا لم نؤخرك."

أجاب: "مُطلقا. إن الكوخ في طريقي إن أردتِ مني إرسال خطابك. سأوفر عليكِ السير إلى هناك."

قلت: "أوه. هذا لطف منك."

أخرجته من عباءتي وناولته إياه. وقعت عيناه على الظرف، وبعد فوات الأوان أدركت غلطتي.

"خطاب للعائلة؟" وضعه في حقيبته. "عذرا، لم أقصد التطفل."

تسارعت دقات قلبي وحاولت التهلل. قلت: "شقيقتي."

"أكبر أم أصغر؟"

سكتُّ لحظة ثم قلت: "أصغر."

"حسنا، يحسنُ بي الذهاب. أعطي حصصا في ليث هول بعد الظهر من كل يوم. إنه هنا فوق التل. هل ذهبتِ إليه من قبل؟"

"لا، لكن الاسم مألوف. ذهب سيد إنغلاند إلى هناك بعد القداس."

"إنه منزل صهره. أو بالأحرى قصره. مايكل غريتريكس."

قلت: "غريتيكس. إذن فهو قريب السيدة؟"

"إنه شقيقها."

تقطب جبيني. "الرجل الذي رأيته يوم الأحد لم يبد شقيقا؛ فهي لم تحدثه إلا لماما." لم يقل سيد بوث شيئا واستأنف سيره. "هل لديه بنتان وولد؟"

"آن وإنيد والسيد الصغير مايكل، تلميذي."

"كان هو إذن. لكن... يا للغرابة." هززت رأسي.

"السعادة واحدة في كل العائلات، أما الأحزان فمتفردة."

"عفوا؟"

"تولستوي. آنا كارينينا؟"

هززت رأسي.

"سأعيركِ إياها، إلا إذا كانت أفكارها مشينة جدا بالنسبة لجناح الأطفال." أفتر ثغره عن ابتسامة خبيثة. "طاب يومكِ، يا دادة ماي."

شاهدته يبتعد على دراجته ثم ينعطف يمينا خارج فناء المصنع ونحو المدينة. كان واضحا أن سيد بوث ذكي، أذكى مني بكثير، إنما دمثا وكريما في عطائه. كان طيبا مع الصغار وأمسك بيد ميلي. لكن شيئا فيه ألمح بوجود ما هو أكثر تعقيدا خلف ذلك: تعليقه حول ثروتهم حمل في طياته ما هو أكثر من الامتعاض. أم هو ازدراء؟ ارتفع الدم إلى وجنتي؛ فوضعت يدي عليهما وذهبت بحثا عن الصغار.

تطاير القطن في الهواء كالرماد، وحطَّ على عباءتي فجعلها تبدو وكأنني أدفع عربة الأطفال خلال عاصفة ثلجية. وكمعظم مصانع الماء التي بُنيت قبل مائة عام، كان مصنع إنغلاند منشأة أكثر بساطة من الأبنية البراقة والصاخبة في الحضر والمدن الكبيرة. كانت طوابقه الثلاثة يحتمل كل منها ست نوافذ، ومدخنته الضخمة تنغرز في السماء كإصبع. لم يكن المصنع نفسه أكبر كثيرا من منزل هاردكاسيل، رغم امتداد مباني الخدمة من حوله: فهناك الاسطبلات، والتي فوقها نام برودلي مع حفيده بن السائس، إضافة إلى خمسة مخازن ومكتب تحصيل رسوم مقابل عبور الجسر. واكتملت المجموعة بمستودع وورشة نسيج، وعلى الضفة الغربية استُخدمت غرفة المرجل القديمة لتخزين الأخشاب.

خلف المصنع ألقى الصغار خبزهم في البركة، والبطات الثلاث أو الأربع سرعان ما تضاعف عددهم في جنون. وقفتُ من بعيد مع عربة تشارلي في وجه الماء؛ حيث جلس يشاهد ويصفق في جذل.

سمعتُ صوتا من ورائي يقول: "سيسمن هذا البط حتى ليعجز عن الطيران."

التفتت ورائي لأجد سيد إنغلاند، الذي قطع طريقه ليقترب من البركة. فسوَّيت عباءتي.

"طاب نهارك، يا سيدي. آمل أنك لا تمانع في إحضاري للصغار."

"لا، بالطبع. ليتني فقط أحضرت رغيفا بدوري." وداعب تشارلي تحت ذقنه، فصاح الطفل مسرورا.

سأل سول: "أبي، هل يمكننا الدخول إلى قاعة الماكينات؟"

قلت له: "إن سيد إنغلاند يعمل الآن." ونزلت قطعة خبز شاردة على دثار تشارلي، فأزلتها قبل أن يأخذها إلى فمه.

قال والدهم: "لا أرى ما يمنع. لم تشاهد دادة ماي المصنع أيضا بعد."

"سيدي، لا حاجة لذلك خصيصا لي."

سأل بلطف: "أليس مما يثير اهتمامك؟"

"أوه، بلى. ولكن... هل هي آمنة على الصغار؟" فكرت فيما قد تقوله سيم لو عرفت أنني اصطحبتُ بنات في عهدتي إلى داخل مصنع، وإن كنتُ شخصيا متحمسة للأمر.

"أقدِّر اهتمامك. إنه آمن جدا، أؤكد لكِ. لقد جاؤوا إلى هنا من قبل، أليس كذلك يا بنات؟ إنهم يحبون مشاهدة العمال."

قالت ميلي: "أحب الثلج."

"القطن،" قالها والدها مصوِّبا، فيما يقدم لها ذراعه كما يفعل الرجال المهذبون. أدرتُ عربة تشارلي وتبعتهم مدفوعة بالفضول، مع شعور بالنجاة مع فكرة الابتعاد عن الوحل والطيور لفترة قصيرة.

قادنا عبر باب جانبي إلى غرفة مظلمة وضيقة مكدسة بأجولة وحبال، انتهت بنا إلى قاعة كهفية، لها سلم يرتفع إلى ثلاثة طوابق. تطاير القطن بدون قيد، وما إن يكنسه صبي في سن أخي آرتشي من على الأرض ويكومه في أكداس تشبه ركام الثلج، حتى تحل محله طبقة باهتة جديدة. منذ سنوات، احترق مصنع الورق في بالسال هيث، وكنتُ وإخوتي نخرج ألسنتنا لالتقاط جذاذات الورق الهشة التي ظلت تنهمر من السماء لأيام.

قطعنا ممرا مضاء بالمصابيح نحو صوت هدير عالٍ ورائحة حادة كريهة جعلتني أرغب في كتم أنفاسي. وثب سول إلى الداخل، وتخلفت أنا مع عربة الأطفال.

أعلن قائلا: "قاعة الماكينات."

وقالت ميلي: "لا يعجبني هذا المكان. إنه مظلم وصاخب."

قالت ديكا: "سأبقى معكِ."

توقفتُ مع عربة الأطفال عند المدخل. قال سيد إنغلاند: "تفضلي، يا دادة ماي."

"لا ينبغي لي، يا سيدي."

"هراء. إن الباب يتسع لعربة الأطفال. اسمحي لي. هيا، يا بنات."

ثم تناول المقود أمام ذهولي ودفعه بنفسه. كانت قاعة الماكينات مظلمة، معزولة عن الضوء والهواء، وبها فرنان محمومان يعمل عليهما ثلاثة رجال مُتسخين يرتدون صدريات، يلمعون كفقمات من أثر العرق وغبار الفحم. كان جلدهم أسود فاحما، وبياض أعينهم

يشبه الفوانيس. لم يتوقفوا عن عملهم للتحدث إلينا، بل واصلوا جرف الفحم من كومة أمام الحائط وإلقائه في أفواه المواقد الفاغرة والشرهة. وحتى لو أنهم قالوا شيئا، فلن نسمعهم على الأرجح، كان الصوت صاخبا جدا، والجو حاميا جدا. استأذن سول في إفراغ مجرفة فحم في النار، وساعده والده. ثم بدأ تشارلي في البكاء متأثرا بالحرارة والضجيج، فانتهزتها فرصة ودفعتُ عربته إلى بئر السلم البارد. ولحقت بي ديكا وميلي، وبعد بضعة دقائق خرج إنغلاند الأب والابن، يضيء وجهاهما بالنصر.

سأل سيد إنغلاند: "أليس هذا أفضل من إطعام البط؟"

قالت ميلي: "لا أعتقد ذلك،" ولم تقل ديكا شيئا؛ فقلّما تحدثت في حضور والديها، وأقل من ذلك أمام الخدم وسيد بوث.

سألت ميلي: "هل يمكننا رؤية غرفة الثلج؟ أوه، رجاء، رجاء!"

قال والدها: "حسن. فلتتقدمينا إذن. آه." وتذكر عربة الأطفال. "تشارلز الصغير، تعال معي." وانحنى فوق عربة الأطفال وحمل الرضيع. تبعته مذهولة، وصعدنا نحو الطرق الإيقاعي بالأعلى. في الطابق الأول، دفع سيد إنغلاند بابا زوجيا هائل الحجم تقشّر طلاؤه الأزرق. كان الصوت يصم الآذان. وأمامنا بامتداد المصنع، تخترقها الأعمدة الحديدية الداعمة، كانت واحدة من أوسع الغرف التي رأيتها قط. اكتست الأرضية بنسالة القطن والضوء المتدفق عبر النوافذ العالية، مُنيرا طوفان الغبار والزغب وخيوط الأقمشة؛ فشعرتُ مع كل الضوضاء والفوضى وكأننا داخل وسادة، أو سحابة رعدية. كانت هناك خمس ماكينات على كل جانب من جانبي ممر

ضيق، لها أدراج كبيرة تنزلق للداخل والخارج بسرعة كبيرة جعلتني أدوخ. يعمل عليها تسعة أو عشرة عمال، لكنهم إما كانوا أكثر انشغالا من ملاحظتنا أو أنهم أُمروا ألا يفعلوا. مررنا بهم كأن لم نكن، وكان من الوقاحة التمعن فيهم. شعرتُ بالحرج وأنا لا أحمل طفلا بين ذراعي أو أدفع عربة أطفال، فأخذتُ يد ديكا واعتصرتها. كانت النوافذ مغلقة منعا للرطوبة، فاكتست بطبقة من القطرات المتكثفة. ولأن سيد إنغلاند كان عاجزا عن التحدث بسبب الضوضاء، فقد تأملتُ أجزاء النول ووجدتها عصيَّة على الفهم، مع تمطي الغزل كخيوط العجين بين محاور بيضاء. تملكني إحساس غامض بوجود من يراقبني، واستدرتُ لأجد صبيا في الرابعة أو الخامسة عشر من عمره يحدق بي من تحت طرف طاقيته. كان جريئا جدا في نظراته، ولم يبعدها عندما ضبطته، بل ظل يلاحقني بعينيه. أعطيته ظهري، وواصلت السير لآخر القاعة.

عرف الصغار كيف يتحاشون الماكينات، وساروا في صف واحد. كان أصغر عامل صبيا في عمر ديكا. يرتدي سروالا أبيض ملطخا بالغبار، واندفع بسرعة البرق تحت ماكينة، مختفيا عن الأنظار. ارتفع غزل النول شبيها بأرض محروثة ثم نزل مرة، مرتين، ثلاثا، وأخيرا زحف الصبي خارجا واتخذ موضعه أمام النول. ورغم الزيت والغبار، كانت قدماه عاريتان، وفيما هو يمشي في المكان رأيت أن باطن قدميه كان رماديا غامقا. وجواره وقفت فتاة في حوالي السادسة عشر، تعاني سعالا عميقا ومستفحلا. غطت فمها وتركت له العنان، فاهتز جسدها من المجهود. كان شعرها يتدلى فوق خديها في

خصلات مدهنة. أدركت أنني أحدق بها، فأشحتُ ببصري لتفحص عجلة، ودنوت منها قليلا وصرفتُ انتباهي إليها. أثناء رجوعنا، تعثرت ديكا؛ وكانت يدها ما تزال في يدي فأمسكتُ بها جيدا حتى استعادت توازنها.

أعاد لي سيد إنغلاند تشارلي على السلم. شعرتُ من التهذيب أن أطرح عليه أي سؤال، فاستفسرتُ عن عدد الأنوال التي يملكها.

"تسعة عشر،" أجاب بنبرة بدا عليها الرضا. "كانوا ستة عشر عندما تسلمت المصنع. هل زرتِ والدكِ في عمله وأنتِ صغيرة؟"

أجبته، وفي أذني طنين: "كنا نعيش فوق المتجر. لذا لم نبتعد عنه قط في الحقيقة."

"متجر ماذا؟"

"متجر خضروات وفاكهة، لكنه الآن متجر لكل أنواع البقالة."

"رجل أعمال. بيننا شيء مشترك."

لم يكن هناك مجال للمقارنة بين الرجلين. تخيلت أبي جالسا على مكتب سيد إنغلاند العريض والمصنوع من خشب الماهوغني في معطف البقالين، يلوث الورق الكريمي بأصابعه المتسخة. كان أبي في نهاية كل يوم يقف عند حوض المطبخ فيتحول لون الماء إلى بني ترابي غامق. تصورته في ملابس سيد إنغلاند، وكأس من البراندي في متناول يده، ودخان سيجار يتلوى فوقه في ضوء المصباح. لم يدخن أبي قط في حياته، ومضى تعهدا بالتوقف عن شرب الخمر قبل أن أولد.

سأل سيد إنغلاند: "وكيف حال العمل؟"

"بخير، أشكرك، يا سيدي."

قصدنا الطابق الثاني، الذي لم يختلف كثيرا عن الطابق الأول، وتبادل سيد إنغلاند حديثا مع أحد المشرفين، الذي حيَّا الصغار بإيماءة من رأسه وتجاهلني. أردتُ سؤاله عن عمر أصغر العمال، لكني بعد الحديث الذي دار مع سيد بوث، خشيتُ ألا يكون هذا مناسبا. وفي المقابل، سألتُ من أين يجلبون القطن.

"من قناة روتشديل." وسكت، ثم ابتسم ابتسامة واسعة. ضحكت دون أن أفهم، وأعدت تشارلي إلى عربته. قال: "من أستراليا حاليا. وإن كنتُ أحد آخر من تبقوا من رجال القطن في هذه المنطقة. جميعهم تحوَّل إلى الصوف، أو منتجات الفستيان: الكودري، التويل، القطيفة، المولسكين." ثم مد يده إلى عباءتي وأمسك بطرفها بين إصبعه وإبهامه. فشعرت بنبضي يتسارع. "هذا سيرج، نوع من التويل. ربما يكون صُنع في هذا الوادي."

كنا نقف خارجا في الفناء. فأخرج، وقد بدا عليه الإرهاق فجأة، سيجارا من حافظة فضية كانت في جيب صدره. فكرتُ في كل النسيج بالداخل؛ وكيف قد يشتعل المكان في ثوان.

"التدخين ممنوع في المصنع،" قالها وكأنه يقرأ أفكاري. "مخالفة تستدعي الإقالة، حتى بالنسبة لي."

رأيتُ ذلك رزانة منه؛ إنه يفسر على الأقل شراهته في التدخين بالمنزل. أخبرته أنني وجدت الجولة ممتعة، فبدا عليه السرور، وقال أنني مرحب بمجيئي إلى المصنع في أي وقت. في

طريق عودتنا فوق الجسر الحجري وأعلى التل، شعرت بأنني أكثر إشراقا وحيوية؛ فقد رأيت سيدي في عمله، رجل صناعة ناجح ويُظهر حسن معاملة لموظفيه. رغم أني لا أرغب في العمل بمصنع يضم أفرانا صاخبة ورجالا مشحمين، وعجلات تدور وإطارات أنولة تصعد وتنزل، إلا أن ثمة إغراء في أن يكون المرء جزءا حيويا صغيرا في نظام كهذا، حيث كل شخص وكل شيء يملك رتبته ووظيفته الخاصة.

في معظم الصباحات شاهدتُ العمال من نافذة جناح الأطفال ، أثناء وصولهم متدفقين مثل صف من النمل على الدرب الذي يخترق الوادي. كنتُ لا أميز النساء من الأشجار، وقد تلفعن بشالات ألوانها رمادي وبني. لا أحد مرَّ بجوار منزل هاردكاسيل قط، لكن على قمة التل كانت هناك قرية، وقد رأيتُ مرة أو مرتين أناسا يعبرون الجسر ويختفون بين الأشجار الواقعة على جانبنا. كان التل منحدرا أكثر من المعتاد، خاليا من ممر مشاة واضح؛ لذا لا شك أن صعوده مرتين في اليوم أمر شاق، وأكثر في الشتاء. تذكرتُ الفتاة التي كانت تسعل: مع من تعيش وكيف يبدو منزلها. نظرت إلى قفازاتي البيضاء حول ساقي تشارلي السمينتين، وتساءلت ما كان رأيها بي يا ترى. تساءلت هل ربما تعرف أننا لسنا مختلفتين بأية حال.

في ذلك المساء ذهبتُ لإضاءة المصابيح في غرفة نوم الأطفال ووجدتُ شيئا على وسادتي: غصن ورد، سيقانه داكنة وأزهاره بيضاء سحابية تشبه ثمرات فطر نفاث أو ذيول أرانب.

رفعته لأعاينه، مع شعور بالغرابة والتوتر، وكأنني أفعل شيئًا لا يصح. سمعتُ ضجة في الرواق؛ ثم جاءت ميلي تبحث عني، فخبأته تحت الوسادة. ولاحقا، عندما نام الصغار، تناولتُ من الرف موسوعة ديكا في علم النبات، وبحثتُ في صفحاتها عن شبيه ووجدته تحت ق: قطن زغبي. حملت الغصن إلى ضوء المصباح ومسدتُ براعمه البيضاء كالثلج.

الفصل السابع

أخذت الحياة في منزل هاردكاسيل إيقاعا محددا، وأصبح الغريب مألوفا. كشف التنظيف الدقيق والكامل لغرفتي الأطفال عن أقصى مدى لإهمال دادة نانغل أو ضعف نظرها. لم أترك شيئا أو ركنا: فمسحت الألعاب وقناني الأدوية، وغسلت النوافذ والجدران، وهوَّيتُ الملابس ورتقتها، وقسَّمتُ الخزانة إلى ركن لكل طفل. صبَّنتُ فرش الشعر ولمَّعتُ أواني الحجرة المصقولة وأرسلتُ الستائر للغسيل. ساعدني الصغار قدر استطاعتهم، فأزالوا التراب ورتبوا. كنتُ أنهار في فراشي منهكة، وذات ليلة أيقظني سول ليخبرني أن هناك تسريبا في السقف بلا شك، لأنها أمطرت فوق سريره. أشارت ساعتي إلى السابعة؛ أي أنني استغرقتُ في النوم ساعة زيادة، وكان الماء الذي تركته بليز في الخارج قد برد. سايرتُ سول في قصته، وارتديت ملابسي سريعا وأخذت حشية فراشه إلى ملحق المطبخ حتى تغسلها إميلي، وطلبتُ المزيد من الماء.

"السيد الصغير سول حدث له عارض،" قلتها، وأنا أضيف الحشية إلى سلة الغسيل.

قالت بتعاطف: "أوه، ليس ثانية."

"هل يحدث هذا كثيرا؟"

قالت بلا اهتمام. "بين الحين والآخر."

كانت بليز في الزاوية تكوي.

"بليز، هل يمكنكِ رجاءً إحضار المزيد من الماء؟"

"بعد أن أنتهي من هذا أولا."

"هل هناك قماش مشمَّع إضافي؟"

"على سرير الرضيع فقط."

كبست المكواة فوق تنورة داخلية ولم تنظر نحوي. إنَّ طلب خدمة أمر محرج بطبيعته، لكن بليز نجحت في كل مرة بمضاعفة ذلك الشعور. ومع أنني وصلتُ إلى حالة من الانسجام مع سيدة مانيون في المطبخ، إلا أن عداء بليز ظل على حاله، وتيلدا وإميلي تقتصدان في الحديث معي. وكأنها أفسدتهما عليّ. لم أكترث لاغتيابهم لي في المطبخ. وأعرف أنهم يفعلون ذلك، لأنهم يصمتون فجأة فور دخولي من الباب الدوَّار. لكن لم يعجبني قدر الاحترام الذي جعلتني أعاملهن به، ممتنة لكل فتفوتة يرمونها لي. كنتُ وحيدة، ولم أدرك كم أنا وحيدة حتى طرق باب جناح الأطفال في وقت لاحق من ذلك الصباح. ودُهشتُ عندما دخلت السيدة إنجلاند وفي يدها خطاب.

قالت: "إنه لكِ." هي أيضا لا تحدثني إلا لماما، فتنحصر كلماتها في إلقاء التحية عندما أمر بها داخل المنزل أو طرح أسئلة كيِّسة عندما آتي بالصغار إلى غرفة المعيشة. كانوا مثل الغرباء، وقد أصابني ذلك بالاضطراب. لم يمد تشارلي لها يديه قط والتصق بي. وذات مساء، ناولته لأمه في محاولة لتقوية العلاقة بينهما، لكنه صار يتلوى في حضنها وكاد يسقط، وحينها نظرت لي السيدة إنجلاند يائسة فاستعدته منها.

"شكرا لكِ، يا سيدتي." تناولتُ منها الظرف، وانتفض قلبي عند مرأى خط إلسي. بدا الظرف ضخما وممتلئا، وكأن أختي كتبت دزينة صفحات وليس صفحتها الواحدة المعتادة. لابد أنني ابتسمت، لأن السيدة إنجلاند ترددت، وكأنها تريد قول شيء.

سألتْ: "كيف تجدين المعيشة هنا؟"

"جيدة جدا، أشكركِ، يا سيدتي."

أرسلت نظرة إلى الطاولة.

"إنَّ البنتان تكتبان ملخصا للنباتات المحلية."

"أوه؟"

كانت فكرتي، وكنا قد جمعنا بالفعل عشرات الأجناس المختلفة أثناء تنزهنا. استقرت على الطاولة تشكيلة من الأجناس لتنسخها ديكا، وكانت قد قررت عند انتهاءها من المجموعة النباتية، أن تنتقل إلى المجموعة الحيوانية، بداية من الطيور. وعدتها باستخراج عضوية في المكتبة العامة، فابتهجت للفكرة. كانت متفانية في عملها وسمحت لميلي أن تساعدها، مع أن ميلي كانت تملك دفترها الخاص. كانت رسومها لا تشبه الواقع، لكنني وديكا أغدقناها بالثناء.

"يا بنات، أرِيا السيدة إنجلاند عملكما." دعوتُ ألا تنزعج من التراب على مفرش الطاولة.

دفعتا الدفاتر إليها؛ فتفحصتها من باب الكياسة وبحثت عن شيء تقوله. "ما هذا؟"

ظهر الاهتمام جليا على ديكا. وقالت: "زعرور بري. ويسمى أيضا الشوكة الحادة، والتفاحة الشائكة، وشجرة ماي. شجرة ماي!" ثم أضاء وجهها. "مثل دادة ماي."

علقتُ مبتسمة: "لا أظنني أرغب في مشاركة اسمي مع شوكة."

أشارت ديكا إلى رسمتها التالية. "وهذا ذكر سرخس. هل ترين كيف يلتف حول نفسه؟"

"أعتقد أنه يبدو أقرب لأنثى." ثم اعتدلت السيدة إنجلاند ونظرت حولها. "جناح الأطفال في غاية الترتيب والنظافة."

قالت ميلي، "نظفناها البارحة،" متلهفة إلى تلقي المديح.

"أنتِ نظفتِ؟"

"ساعدتُ."

إيماءة بسيطة؛ وشبح ابتسامة.

"سيدتي؟" أومأت لها بالتوجه نحو المدفأة. وفي صوت منخفض قلت: "واجه السيد الصغير سول تراجعا طفيفا في الليل."

نظرت لي بعينيها البنيتين في تساؤل.

"لقد بلل فراشه، يا سيدتي."

"أوه."

"كان واجبا أن أسأل السيد، لكني لم أجد وقتا هذا الصباح. ولا أعرف إن كان يفعل ذلك كثيرا."

هتفت ديكا من أمام الطاولة: "إنه كذلك."

"هل يوجد قماش مشمع للأطفال، أم هو لتشارلي فقط؟ تظن بليز أنه لا يوجد."

فتحت فمها ثم أغلقته. "لست... أخشى أنني لا أعرف."

"هل يمكننا شراء واحد؟ لأن غسل وتجفيف المرتبة يستغرق وقتا طويلا."

"لا أعرف أين يُباع."

"أنا أعرف. أظنه يكلف بضعة شلنات فقط."

فتحت فمها ثم أغلقته.

سارعتُ بالقول: "أو يمكنني صنع واحد. لكنه سيستغرق بضعة أيام حتى يجف."

"عليكِ أن تسألي سيد إنغلاند. أستأذنك."

ثم هرعت خارج جناح الأطفال، وتركتنا في صمت ذاهل. حتى تشارلي، الذي كان يقرع طبلة بدمية جندي صفيح، بدا حائرا. مسَّدتُ مئزري وجلستُ مع الصغار، فطويتُ جسدي في كرسي صغير ومددتُ عنقي لأرى.

قلت: "والآن. من يريد إخباري ما هذا؟"

وفيما يعملون، فتحتُ خطاب إلسي، مُشتاقة لأخبار من العائلة، وذهبت إلى النافذة لقراءته.

عزيزتي روبي،

لا أعرف أين يوركشاير لكنني سأطلب من آنسة سيلرز أن تريني مكانها. لا أعرف متى أعود إلى المدرسة. فيدي ليست على ما يرام منذ فترة. في الأسبوع الماضي أوقعتُ إبريق الشاي. فتحطم ولطخ الأرضية. أرسل لنا أبي هذا الأسبوع، خطابا لكل واحد فينا وخطابا لكِ. أرفقته في هذا الظرف، ولكِ حرية قراءته. تقول أمي أنه ينبغي عليكِ ذلك. انضم آرتشي إلى فريق كرة قدم. وهو يتدرب بثمرة قرنبيط في الفناء، ما يثير غضب أمي. وتيد يدخر لشراء مناظر، لا أعرف كيف أتهجّاه ولكنه الشيء الذي تضعينه أمام عينيكِ لتري

بعيدا. هل لديكِ سريركِ الخاص هناك وهل يمكنني الزيارة في تلك الحال؟ اكتبي لي قريبا من فضلك. هل يملك الأطفال ألعابا جميلة؟ أفكر في التخلي عن كونستانس. لقد كبرت على الدمى. يمكنهم الحصول عليها إن أرادوا. إنها بحاجة إلى من يوليها اهتماما.

مع حبي،

إلسي

ومرفقا بخطاب أختي كان هناك ظرف صغير بحجم قالب زبدة يحمل اسمي. أخرجته من الظرف ووضعته بين أصبعيَّ، وشعرتُ بثقل الكلمات، وأخذته حالا خارج الغرفة التي فيها الصغار. وفي الغرفة المجاورة جثوتُ على ركبتي أمام سريري لأفتح صندوقي، وأخرجتُ حزمة الخطابات الصغيرة التي كنتُ قد أخفيتها في بلوزة قديمة. أدخلتُ الخطاب من أسفل رباط الحذاء المنعقد حول حزمة الخطابات، وأعدتها إلى مكانها في الظلام.

***

"هل نُري دادة ماي حيلتنا؟"

"نعم!"

كنا في غرفة المعيشة، وسيد إنغلاند في مزاج جيد. فعزف أغنيتين على البيانو الحائطي وجلس الآن على مقعد البيانو يدخن. وتناثرت قصاصات السيجار على السجادة. سرت عدوى مزاجه

الجيد في الجو؛ فابتهج الصغار وركضوا في المكان، وصفّق تشارلي بيديه على السجادة. وقف والدهم وعضلات ذراعيه مشدودة وركبتاه مثنيتان وقبضتاه في الهواء كزعيم قوي. احتضنت ميلي وسول ذراعا من كل جانب بإحكام، ورفعهما عن الأرض بالكامل. صرخا وزعقا، وهما يتدليان من ذراعيه وأقدامهما ترتفع عن الأرض قدما أو أكثر. ثم شرع يرفعهما وينزلهما، وقد احمرَّ وجهه من المجهود، وسيجاره مازال في فمه. ضحكتُ، مع أن ميلي لو أفلتت يدها فقد تلوي كاحلها؛ واستولى الصمود ذاته على سول وهو يواصل تشبثه، وساقاه تبعد بوصات من الأرض.

ثم لم يلبث سيد إنغلاند أن خار مستسلما وطرحهما أرضا، حيث تكوما في نوبة ضحك.

"ما رأيكم؟" لم يوجه سؤاله لأحد بعينه. ابتسمت ديكا بخجل، وكانت أكبر من أن تنضم إليهم.

"كان ذلك رائعا، يا سيدي." وكنتُ قد اعتدتُ ألا أنخرط وأحوم قرب الباب. ارتسمت على شفتي سيدة انجلترا ابتسامة خاوية. لم أكن قد رأيتها منذ حديثنا الغريب بشأن المشمَّع ذلك الصباح. كانت صورة ضخمة لجدها، رجل الصناعة تشامبيون غريتيكس، تحتل معظم مساحة الجدار أعلى المدفأة. سألني سيد إنغلاند ذات مرة عن رأيي فيها، وقلتُ أنها مذهلة. جلس العجوز على كرسي في بنطال اسكتلندي كاروه وسترة مشقوقة الذيل أزرارها مذهبة. لحيته الفضية تصل إلى ياقته، وفي يده اليمنى عصا سوداء على رأسها حيوان فضي. سألتُ سيد إنغلاند عنه، فأخبرني أنه حيوان الألبكة، نسبة للصوف الذي ينتجه.

أعلن قائلا الآن: "يا أطفال. لدي خبر لكم." انتظر ليعمَّ الصمت، ورفعتُ تشارلي من الأرض. "لقد عيَّنتني النقابة العمالية لإغاثة المرضى أمينا على صندوق المال."

سأل سول: "هل وسيعطونك صندوق المال؟"

"أخشى أنهم لن يفعلوا. إنه يعني أنني سأكون مسئولا عن المال."

قال سول: "أوه."

قالت ديكا: "مبارك، يا بابا."

"شكرا لكِ، يا ديكا. إن تنصيبي يعني أن شخصا مميزا جدا سوف يزورنا غدا. هل يمكنكم تخمين من؟"

هتفت ميلي: "مُقرصِن!"

"كلا، يا حمقاء! قال أن لا وجود لصندوق مال."

"سول، لا تشتم أختك. مُقرصِن تخمين جيد جدا، رغم كونه غير صحيح. لكنه أيضا يبدأ بحرف الميم."

خمَّن سول: "آ... آ... متبجح!"

انفجرنا جميعا في الضحك. "أين سمعت هذه الكلمة بحق السماء؟"

"قالتها سيدة مانيون عن رجل السكاكين. ماذا تعني؟"

"لا عليك. متبجح ليست الجواب."

ارتجفوا ترقُّبا. "من يكون، يا بابا؟"

"مصور،" قالها سيد إنغلاند، في مقاطع بطيئة، "سيأتي لتصويرنا."

سألت ميلي: "هل سنكون في الصور؟"

"نعم. نحن الستة."

قال سول رغم تأثره: "أوه، يريد ابن خالي مايكل أن يصبح مصورا عندما يكبر."

قال سيد إنغلاند: "دادة ماي. جهزي الأطفال في التاسعة، من فضلك"

"أمرك، يا سيدي."

منح نظرة تحذيرية لكل منهم. "أتوقع أن تحسنوا التصرف. وإياكم أن تهرقوا ثريدا على ملابسكم."

xxx

وصل المصور ومساعده بعد الفطور. كنتُ قد ألبست الصغار شراشف حمام أثناء تناولهم الطعام، وكان منظرهم مضحكا وهم يتناولون طعامهم بحرص مبالغ وحركات آلية ومتيبسة. شاهدتُ من النافذة رجلين يُنزلان معداتهما من عربة برودلي ويضعان آلة تصوير مغطّاة بقماش مشمَّع على الأرض. كان الأغنياء يميلون إلى التقاط صورهم في الخارج حتى يمكنهم إظهار منازلهم، وبدا الطقس مناسبا لهذا الترتيب: فكانت السماء بيضاء مسالمة. وتزاحم الصغار حولي ليشاهدوا.

سأل سول: "هل تلك هي آلة التصوير؟"

"نعم. هل رأيت واحدة من قبل؟"

"نعم. لكنها صغيرة."

سألتهم: "هل التُقطت لكم صور من قبل؟"

مكتبة
t.me/soramnqraa

أجاب سول: "نعم، لكنني كنت رضيعا. هل تُلتقط الصور للمربيات؟"

"التقطتُ صورة لي، أجل." ثم أضفت، "لكنني لم أر أية صور لكم في المنزل."

قالت ديكا: "كان هناك يوم رياضي في غريتريكس."

"هل غريتريكس منزل؟"

"بل هي بلدة لوالد جدنا."

حدقت بها: "أيملك بلدة؟"

"نعم، بناها حول مصنعه، من أجل العمال. فيها مدرسة عامة ومدرسة دينية ومنتزه وحمام عام. وحتى مستشفى."

"وتمثال ارتفاعه مائة قدم." وقذف سول يده في الهواء.

"ليس مائة قدم. وهناك أيضا محطة قطار."

لو أن شخصا آخر غير ديكا قال هذا، لما صدقته. كانت عائلة غريتريكس مثل قطع داما بيضاء واثقة، تستأثر بلوح اللعب في يسر.

"سأحب بالتأكيد رؤية البلدة التي تسمى غريتيكس،" قلتها مُخاطبة نفسي جزئيا، وأنا أنظف مائدة الفطور.

نظفتُ وجوههم وأيديهم، ثم نزلتُ بتشارلي إلى الطابق الأرضي لأسأل إن كان المصوران جاهزين. وقف سيد إنغلاند وظهره إلى المنزل مرتديا بذلة كتان فاتحة وربطة عنق خمرية، وقد أدخل إبهاماه في عروتي سترته، يناقش الكيماويات مع المساعد الصغير. على بعد خطوات قليلة من البوابة، نُصبت خيمة قماشية لعمل غرفة

مظلمة، ووُضعت الكاميرا على لوح خشبي مسطح يواجه المنزل. عدستها الدائرية تراقبني. أما السيدة إنجلاند فلم يكن لها أثر.

وقفتُ مترددة على مقربة من سيد إنغلاند، وبعد قليل استدار. "دادة ماي، هذا سيد كليف، مساعد سيد هاربيندين وابن أخيه. سيد كليف، هذه مربية أبنائنا."

حييتُ الشاب بإيماءة. وسألت: "هل أحضر الصغار، يا سيدي؟"

"أعتقد أننا سنكون جاهزين بعد قليل،" قالها سيد كليف، وهو يلقي نظرة إلى الخيمة في نفس اللحظة التي رفع رجل ثالث غطاءها وخرج. خاطبه سيد إنغلاند: "سيد لودين، خذ راحتك في المنزل كما تشاء. لن نستغرق طويلا."

أجاب سيد لودين وهو يومئ نحو الخيمة: "سأبقى هنا، يا سيدي. لا بأس مع بيرسي، إن لم تمانع."

"قطعا لا." انبسط شارب سيد إنجلترا في ابتسامة. "دادة ماي، يمكنكِ استدعاء زوجتي أيضا."

"أمرك، يا سيدي."

"قد تضطرين إلى جرِّها من غرفة الزينة."

ابتسم سيد كليف بشيء من التملق، وأخذتُ أنا تشارلي إلى الداخل. لم أر أثرا لالسيدة إنجلاند في الطابق الأرضي؛ فصعدتُ إلى الطابق الثاني وطرقت بابها.

"نعم؟" كان الصوت من وراء الباب مجهدا.

"المصور جاهز، يا سيدتي."

فُتح الباب فتراجعتُ للخلف. كانت السيدة إنجلاند تضع في فمها دبابيس تثبت بها شعرها. وخلفها، توارت كل الأسطح تحت دزينة من التنانير والفساتين والصدريات والأحزمة. أما هي فارتدت فستانا أرجوانيا جميلا من الحرير والشيفون بحافة دانتيل.

قالت: "ظننتهم سيصلون في العاشرة."

"التاسعة، سيدتي."

عادت سريعا إلى منضدة الزينة وجلست على المقعد لتعاين نفسها، ثم التفتت وبدأت تبحث فوق السرير عن شيء ما، واستقرت على فردة قفاز حرير لونه كريمي. "أوه ، أين الأخرى؟"

نادى سيد إنغلاند من الردهة: "ليليان؟"

"أنا قادمة، يا تشارلز."

قلت: "دعيني أساعدكِ،" وشرعتُ فورا أمشط الفراش بحثا عن الفردة الأخرى. وفي ثوان وجدته تحت حزام حرير مجعد وناولته لها. أقحمت فيه أصابعها والتفتت إلى صوان الملابس، فأنزلت صناديق القبعات وتحسست المناديل الورقية التي تغطيها.

"ليليان!"

وتَّرني ارتباكها وتشوش ذاكرتها؛ كان السيد قد قال ليلة البارحة في غرفة المعيشة أن الموعد في التاسعة، وها هي الآن التاسعة والربع.

ظهر سيد إنغلاند عند الباب. وقال: "ظننتكِ سترتدين ثوبا أبيض."

تجمدت في مكانها جوار صوان الملابس، وهي تحمل صندوقا مخططا.

"ارتديتُ هذه البدلة لتتفق مع ملابسك. لو قلتِ أنكِ سترتدين ثوبا أرجوانيا، لكنتُ ارتديتُ حُلَّتي الصوف السوداء."

تكلمت السيدة إنجلاند بصوت ضعيف. "لا يمكنني العثور على فستاني الحرير الأبيض، لابد أنه مع إميلي. يمكنني ارتداء–"

تنهد. "لا عليكِ، سأبدل ملابسي. لن أستغرق طويلا." ثم اختفى في غرفة ملابسه المجاورة. كان ثمة باب يصل الغرفتين خلف حوض غسيل الوجه، وقد حدَّقت به السيدة إنجلاند كمن تتوقع أن يُفتح، وهي تحمل في يديها قبعة عريضة لونها كريمي كأنها صينية.

شعرتُ بنغزة حنق، حارَّة ومفاجئة كلدغة دبور. الصغار ينتظرون منذ نصف ساعة؛ وأي دقيقة إضافية تعني أن تشارلي سيحتاج لتغيير فوطته. كان يجول على الأرض الآن وهو يضعها في فمه. حملته مرة أخرى وأجلسته حول خصري. لم تكن هذه أول مرة أفكر كم كانت الأمور ستجري بسلاسة لو أن هناك مدبرة منزل. لكنَّا انتهينا من التقاط الصور، وعاد كلٌّ لشأنه.

قدتُ الصغار إلى الفناء، وبالوقت الذي بدَّل سيد إنغلاند حُلَّته وجمع الأسرة، لاحظ ستارة تحتاج لإصلاح وضعها، فذهب يفعلها بنفسه. كانت السيدة إنجلاند قد أفاقت من هذيانها. ألقت على المصورين تحية وجيزة ووقفت بجانب أبنائها وهي تشبك يديها في القفازين عند خصرها.

قالت ديكا باستحياء: "فستانكِ جميل." فمنحتها والدتها ابتسامة شكر رقيقة ومسَّدت على ذراعها.

نسَّق سيد كليف الأطفال. فحملتُ ديكا تشارلي ووقفتُ وسط ميلي وسول. وعلى جانبيهم جلس الأب والأم على كرسيين من كراسي غرفة الطعام. تردد سيد إنغلاند ثم قرر أن كرسي غرفة مكتبه أفضل طولا. أحضر سيد كليف الكرسي، ووسط كل هذه الجلبة والتأخير، بدأ تشارلي يبكي، واضطررت إلى هدهدته في أرجاء الفناء. وبعد طول انتظار، أصبحت عائلة إنغلاند جاهزة، وكذلك ألواح الكاميرا. عاين سيد هاربندن تكوين الصورة، وهو يمسد شاربه ويتراجع للوراء. ثم كان صمت قانع قصير، قطعه سيد إنغلاند بقوله: "أين ستقف دادة ماي؟"

افترضتُ أنه يعني أثناء التقاط الصور، فعرضت الذهاب للداخل.

قال: "لا، ستكونين معنا في الصورة بالطبع. خلف ديكا مثلا، يا سيد هاربندن؟"

أجاب المصور: "لا بأس."

وجدتني عاجزة عن تحريك قدمي. لم أملك سوى بضعة ثوان للتفكير في رفض لا يبدو وقحا أو مُتمردا، لكن لا شيء أسعفني، وضاعت الفرصة.

قال سيد إنغلاند: "دادة ماي؟"

أدركتُ أن الجميع ينتظرونني، وبخطوات متيبسة بسبب التردد، قطعتُ المسافة الفاصلة. أما الرجل الثالث، سيد لودين، فقد راقب من بعيد، داسًّا مفكرة تحت ذراعه وقلم رصاص خلف أذنه. وجَّهني سيد كليف للوقوف خلف الزمرة الصغيرة على يمين السيدة إنجلاند. وعقلي لا ينفك يتساءل: لماذا أُشركتُ دون بقية الخدم.

عاين الرجال الثلاثة تشكيلنا بجبين متأمل، ثم اختفى سيد هاربندن تحت غطاء آلة التصوير.

بعد أن التُقطت الصور وانصرف سيد كليف إلى صفائح التصوير، خلَّصتُ ديكا من حمل تشارلي فنفضت ذراعيها بارتياح. وفي تلك اللحظة، اقترب سيد لودين يسير الهوينى، وهو يمسك بين أصابعه بقلم رصاص كالسيجارة. كان يرتدي حُلَّة بنية رثة، ولطخ رصاص الكتابة أصابعه. أمسك بمفكرة مهترئة، ومرر إبهامه على لسانه وقلب إلى صفحة فارغة.

"هل بوسعك إخباري عن فوائد الجمعية، يا سيدي؟ لماذا يجدر بعمال المصانع الانضمام إليها؟"

أدركتُ بانقباض بارد، أنه صحفي، والتفتُّ إلى الصغار أسوي ياقاتهم بعصبية.

أومأ سيد إنغلاند. "ما إن ينضم العامل، حتى يصبح مُستحقا لخمسة عشر شلنا أسبوعية في أول ستة شهور من المرض، ثم ثمانية في الست شهور التالية."

دوَّن سيد لودين ملاحظة. "وكيف يُقارن ذلك بما تدفعه لعمَّالك الذكور؟"

"تعكس الإعانة متوسط أجر العمال في منطقة الوادي، مع أخذ جميع المستويات في الاعتبار."

دوَّن سيد لودين ذلك كله. "وكيف يسجِّل العمال في الجمعية؟"

تذمرت ميلي: "إلى متى علينا أن نقف هنا؟"

قلت بهدوء: "إلى أن ينتهي سيد هاربندن وسيد كليف من التقاط صورنا."

"ومتى يكون ذلك؟"

"عندما يخبروننا."

قال سول: "أحب أن أصبح مصورا، لكنني لن ألتقط صورا عائلية. يملك قريبنا كريستوفر كاميرا بوكس براوني، لكنها صغيرة جدا. ستكون كاميرتي أكبر بكثير."

قال سيد لودين: "لديك نسيبان أحدهما رئيس والآخر نائب رئيس. ذكرني باسميهما؟"

"هنري ومايكل غريتريكس."

"آه، أجل. حاولتُ إجراء لقاء معهما، لكنهما رجلان مشغولان."

"هما كذلك" قالها سيد إنغلاند وهو يصلح ربطة عنقه.

"وأسماء الأطفال...؟"

لمس سيد إنغلاند كل منهم على رأسه. "سول، وريبيكا، وميليسنت، والرضيع تشارلز."

"وزوجتك؟"

بدا أن جميعنا نسي وجودها، بما في ذلك هي نفسها. انتبهت وقالت: "ليليان."

"غريتريكس سابقا؟"

"هذا صحيح."

"وما اسمكِ، يا آنسة؟"

بعد لحظة صمت، أدركت أن سيد لودين كان يخاطبني.

"اسمي؟"

أومأ برأسه، وقلمه متأهب.

"أخشى أن لا علاقة لي بجمعية المرضى. حتى أنني لا أستطيع تذكر اسمها. أعتذر."

"لا، يا آنسة." كان سيد لودين رجلا قليل الصبر. "إنه للصورة التي ستنشر في الجريدة."

لحظة صمت غير مريح.

"هل ستُنشر الصورة في الجريدة؟"

"الهاليفاكس كوريير، عدد الأسبوع القادم. اسمكِ يا آنسة؟"

وخز العرق إبطي، ودقَّ قلبي بقوة في صدري. قلت: "أوه. لا أحد يهمه أن يعرف من أكون."

قال سيد إنغلاند: "إن دادة ماي متواضعة، وربما خجولة قليلا."

"دادة. ماي." نقر سيد لودين مفكرته بإصبعه.

"أليست صورة عائلية أفضل للمقال؟ من دوني؟"

قال سيد إنغلاند: "هراء، نريد التباهي بمربيتنا النورلاندية. اكتب ذلك عندك، يا لودين، أنها من معهد نورلاند في لندن. سمعتُ أن أميرة اليونان لديها مربية من هناك."

أطاع سيد لودين، وأخرج سيد إنغلاند حافظة سيجاره. "هل لك في واحدة؟"

"لا، يا سيدي، شكرا لك."

"لقد تركتُ قطّاعتي بالداخل، لحظة واحدة."

شعرتُ بفمي جافا، ودقات قلبي عالية حتى ظننتها مسموعة. آه، لماذا لم أرفض من البداية؟ يصعب إقناعهم الآن وقد التُقطت الصورة ويجري تحميضها. لكن كان علي أن أفعل شيئا.

"سيدتي، هلا حملتِ تشارلي لبرهة؟"

ناولته لوالدته، التي أعجزتها المفاجأة عن الاعتراض، وهرعتُ خلف سيد إنغلاند.

"سيدي، كان يجدر بي قول هذا من البداية، لكن مديرتي، آنسة سيمبسون، ستثور إن علمت أن إحدانا ظهرت في الجريدة بدون زيها الكامل. لو علمتُ أنني سأكون في الصورة، لارتديتُ عباءتي وقفازاتي."

"يجدر بكِ الذهاب وإحضارهما إذن. لا يمكننا وضعكِ في موقف محرج مع المديرة."

"لا يمكنني ترك الصغار. ربما بوسع المصور التقاط صورة أخرى بدوني؟ لن أحب تعطيل كل شيء بسببي."

"هراء. متى ستتاح لكِ فرصة أخرى للظهور في الجرائد؟ أحضري أشياءكِ؛ وسأخبر سيد هاربندن. يمكن للصغار أن ينتظروا مع والدتهم أثناء ذهابك."

ألقيتُ نظرة نحوهم وهم مصطفون حولها؛ وكانت تهدهد تشارلي بحركات متيبسة، فيما ميلي تمسد قدميه. ولما شعرت السيدة إنجلاند أني أراقبها، التقت عيناها بعيني، لكنها هذه المرة لم تشح بوجهها.

الفصل الثامن

بعد كل ما سمعته عن عائلة غريتريكس، تلهفتُ للقائهم. توقعتُ أنهم سيزورون كثيرا، وأن حامل المعاطف سيعج باستمرار بعباءات ومظلات الأبوين والأقارب والعمات، لكن ثلاثة أسابيع مرت قبل أن تأتي عائلة السيدة إنجلاند الكبيرة يوم أحد لتناول الغداء. نظرت من نافذة جناح الأطفال إلى السيدات تحف تنانيرهن الطريق، والرجال تنقر عصيهم بلاطاته. بدا أشقاؤها وكأنهم خرجوا من نفس البويضة: فجميعهم نقي البشرة وأشقر الشعر، بأحجام مختلفة، مع شوارب ذهبية وعيون مشرقة ذكية. حضر أيضا والدها ووالدتها، كونراد وهيلين، واللذين كانا عجوزين وكانا يرتديان ملابس غالية الشكل. أول ما لاحظته هو كلامهم: فبينما تسربلوا كالنبلاء، ظلت لهجتهم هي ذات اللهجة العادية لأهل البلد. كان تناقضا غريبا ومُربكا جدا؛ حتى ليوحي منظرهم وهم مجتمعون في غرفة المعيشة بأنهم ممثلون في مسرحية بمبنى البلدية.

ظل الصغار طيلة الصباح متبرمين يسألون متى يأتي الضيوف. ألبستهم نفس الثياب التي ارتدوها للتصوير؛ وكانت نسخة من الجريدة التي نُشرت فيها مقالة سيد لودين قد أُعدَّت للضيوف. عندما وصلت الجريدة، دخل سيد إنغلاند إلى جناح الأطفال وألقاها على الطاولة في انتصار، وهو ينقر فوق الصورة بإصبعه. اشترى نسخا لجميع الخدم. وتنفستُ الصعداء عندما وجدتُ الصورة صغيرة جدا، مع أن اسمي كُتب بالحبر الأسود: دادة ماي، خريجة معهد نورلاند للمربيات. دسستها في مؤخرة رف بغرفة النشاط.

كان على الأبناء الثلاثة الكبار أن يتناولوا طعامهم مع العائلة فيما بقيتُ وتشارلي في جناح الأطفال، وإن كنتُ قد صحبته للأسفل لينال بعضا من تدليلهم قبل جلوسهم لتناول الطعام. جهزت تيلدا المائدة بأفضل الأواني الخزفية، وكانت سيدة مانيون تشوي سربا من الطيور. وبالنظر إلى الصيحات المُنبعثة من المطبخ، خمنتُ أن مثل هذه الاجتماعات كانت قليلة الحدوث.

قالت لي والدة السيدة إنجلاند: "لا بد أنكِ نانغل الجديدة." كانت طويلة القامة ومهيبة، لها شعر فضي وعينان زرقاوان تقعان على الأشياء بنعومة كالثلج. ابتسمتُ من باب اللطف؛ وتجمع الأطفال حولها، يتنططون كالمهور. "هل تتكلمين؟"

"نعم، يا سيدتي،" أجبتها وقد تذكرتُ كيف منحتني سيدة رادليت في اللياقة مع الضيوف: جيد جدا، وليس ممتاز. "سررتُ بلقائك."

"هل لكِ اسم؟"

"دادة ماي، يا سيدتي."

"أنتِ من ذلك المكان الفاخر، أليس كذلك؟"

"برمنغهام ، يا سيدتي؟"

ردت بعنف: "كلا، ليس برمنغهام. بل كلية التمريض."

"معهد نورلاند، يا سيدتي."

"تقولين معهد. عظيم. أخبرتُ تشارلز أن بوسعه الحصول على فتاة بثلث الأجر من القرية، لكنه أصر. ماذا يعلمونكن إذن في هذا المعهد؟"

"أساسيات تربية الأطفال، يا سيدتي. مزيج من المحاضرات والتدريبات، أكاديمية وعملية."

"أكاديمية!" وأطلقت ضحكة عالية فاترة، وكرهتها فورا. "وكيف تجدين الشمال؟"

"رائع، يا سيدتي. إنه مكان جميل."

"جميل! ها. أهكذا الأمر؟"

بحثتُ عن مهرب، لكن تشارلي كان مهذبا، يجيل بصره في المكان بهدوء. وكانت ديكا قد ابتعدت للتحدث مع قريبتها وسول لا أثر له، أما ميلي فقد جثت عند قدميَّ تعبث بقلادة مرجانية سمحت لها ديكا بارتدائها. انغمس سيد إنغلاند في حديث رجالي، أما زوجته فلم تكن موجودة. وبدا أن سيدة غريتريكس قد لاحظت هذا في نفس اللحظة، وقالت: "أين ليليان الآن يا ترى؟"

تظاهرتُ بالبحث عنها. "ربما أخَّرها شيء ما."

"إن ابنتي إنسان لا قاطرة. كوني مفيدة واذهبي لإحضارها، هلا فعلت؟"

"أمركِ، يا سيدتي."

مدَّت يديها لتأخذ تشارلي، الذي جلس دون حراك في حجرها وحدق بها في افتتان خائف. عرفتُ أن أمامي دقيقة فحسب قبل أن يشرع في البكاء، وأغلقتُ باب غرفة المعيشة خلفي. ومن وراءه استمرت همهمة الأصوات ورنات كؤوس النبيذ، وسمحتُ لنفسي بلحظة سلام، فأغمضتُ عيني وأطلقتُ زفيرا في وجه الباب. انفتح باب المطبخ، وعبرته بليز بصينية تحمل كؤوس ماء. وبعد لحظات

تبعتها تيلدا بالإبريق. تجنبت النظر في أعينهم واتجهتُ إلى الدرج.

"كم هي فظة،" سمعت بليز تتمتم في غرفة الطعام. "خنزيرة فظة."

ثم انفجرت كلتاهما في الضحك، وأغشت الدموع عيني. مسحتها بكم ثوبي وطرقتُ باب السيدة، الذي انفتح في الحال، وكأنها كانت تقف وراءه. كانت تثبت زرا في طرف كمها.

سألتْ: "كم الساعة؟"

نظرتُ في ساعة صدريتي. "الثانية عشرة وخمس وعشرون دقيقة، يا سيدتي."

"ما الخطب؟"

طرفتُ بعيني وازدردتُ ريقي. "لا شيء، يا سيدتي."

"تبدين منزعجة."

"كلا، إنني... إنني أعاني من نزلة برد خفيفة."

سحبتْ محرمة حريرية من طرف كمها وقدمتها لي.

"أوه، أملك واحدا، يا سيدتي، شكرا لكِ، لا داعي."

دسته ثانية في كمها. "هل حضر الجميع؟"

"أعتقد ذلك، يا سيدتي."

فاحت من الغرفة رائحة مسحوق زينة، وشيء آخر -رائحة دخان حادة، كعود ثقاب منطفئ.

"هل ستعودين للأسفل؟"

"نعم، يا سيدتي. الصغار في غرفة المعيشة."

"سأرافقك."

نزلتُ خلفها، وخُيِّل لي أنها تملأ نفسها بالعزم قبل أن تفتح الباب، وتأخذ نفسا وتبدأ في الدخول، ثم تتوقف مرة أخرى، مترددة على عتبة الباب وكأنها دخلت غرفة تعج بالغرباء. رأيتُ عيني أمها تمحصانها بنظرة حيادية، تقيِّم من خلالها تنورتها، وصدريتها، وكأنها تمثال عرض في متجر. ماذا قال سيد بوث عن العائلات التعيسة؟ ربما أشكال التعاسة لا تختلف أيضا في النهاية.

***

بعد غداء من شطائر اللحم، أعطيت تشارلي بقسماطة ووضعته في فراشه ليغفو قليلا. كان جناح الأطفال هادئا في غياب بقية الصغار، وكنت أجلس في كرسي هزاز أصلح جوربا عندما سمعتُ صرير ألواح الأرضية في الرواق. لم يطرق أحد الباب، فنهضت لأتقصَّى ووجدتُ السيدة إنجلاند في غرفة نوم الأطفال، تقف أمام المهد.

قلت: "سيدتي؟"

كانت تتأمل تشارلي، وبدت متعبة. أنزلتُ ما كنتُ أصلحه ووضعته على سرير سول. "هل ثمة خطب ما؟"

من أسفلنا جاء طنين الأصوات البعيدة؛ حيث كان جناح الأطفال فوق غرفة الطعام.

"هل يحتاجونني في الطابق الأرضي، يا سيدتي؟"

وحينها انتبهتْ وكأنها تسمعني لأول مرة. وقالت: "لا، لا. فكرتُ في تفقد الرضيع."

لم أكن لأستغرب هذا من معظم الأمهات، لكنها ليست عادة السيدة إنجلاند. سرتُ نحوها وراقبناه غارقا في نومه. "وضعته في فراشه منذ عشر دقائق."

وقفتْ عند النافذة ونظرتْ من خلال الشيش، وكأنها تتوقع أو تخاف مجيء المزيد من الضيوف. ثم رأت هيربي جالسا على وسادتي، ورقَّ وجهها. "هل هو لكِ؟"

"نعم. حسنا، إنه لشقيقتي في الواقع، لكنها أصرت أن آخذه معي عندما غادرتُ المنزل. قالت أنه سيعتني بي."

رفعت الدبدوب، وقد شرد ذهنها، ومسَّدت عينيه الزجاجيتين. "إنها طيبة جدا. تمنيتُ لو كان لي أخت."

عجزتُ عن الرد. لكني اقترحتُ عليها: "لا بأس بالأشقاء الذكور أيضا. ويمكن لزوجاتهم أن يصبحن كالأخوات."

"همم." أجالت نظرها في الغرفة بأسرَّتها وصورها، وعلى وجهها تعبير معقد هو مزيج من الإعزاز والحزن. ثم قالت: "كانت هذه غرفتي وأنا طفلة."

تفاجئت. لم أشعر أنه منزلها قط؛ بدت غريبة تماما فيه.

"لابد أنكِ قضيتِ أوقاتا سعيدة هنا."

قالت برتابة: "أَجل."

وقفتُ مُنتظرة، وبعد برهة تنهدتْ. "حسن. يجدر بي العودة."

حفَّ ثوبها الحرير فوق الأرضية الخشبية؛ بلا وقع لخطواتها، وأغلقت الباب خلفها برفق.

***

في الثانية والنصف نزلتُ لإحضار الصغار. كان الغداء قد رُفع، وسول مع الرجال في غرفة الطعام، التي ملأها دخان السيجار، وأغرقهم في سحب رمادية. كان سول يسعل عندما دخلت وجاء معي بلا مقاومة. وانبعثت عاليا من المطبخ أصوات كشط الأواني وقعقعتها. وعلى الناحية الأخرى من الردهة وجدتُ ديكا في غرفة المعيشة مع النساء، جالسة على وسادة عند قدمي بنت خالها آن أو إنيد، لم أعرف الفرق، لكنها كانت أصغر مني بعام أو عامين ونظرتْ لي من أعلى لأسفل عندما دخلت.

علَّقت سيدة غريتريكس الكبيرة: "تساءلنا أين اختفيتِ." كانت ابنتها تجلس جوارها، وزوجات أبنائها أيضا حاضرات؛ حيث وقفت إحداهن بجانب النافذة، وجلست الثانية على كرسي البيانو تقرأ نوتة موسيقية واستقرت الثالثة جوار بناتها. لم تكن السيدة إنجلاند تحمل فنجان شاي وشبكت أصابع يديها في حجرها. لاحظتُ ضمادة على يدها اليمنى، والتي غطتها بيدها اليسرى.

قالت سيدة غريتريكس: "تود ريبيكا البقاء هنا برفقة السيدات. أليس كذلك، يا ريبيكا؟"

ظهر التردد على ديكا، مُتشبثة بوسادتها كضفدع على ورقة زنبق.

قلتُ: "بالطبع، يا سيدتي. أين آنسة ميلي؟"

"ألا يجدر بكِ أن تعرفي؟"

قالت السيدة إنجلاند: "إنها تلعب مع الصغار." بدت مُنهكة وضجِرة، وكأنها لا تطيق صبرا على العودة إلى عزلتها.

حسدتُها على الملاذ الهادئ في غرفتها، وجلساتها الطويلة وحدها في حوض الاستحمام.

"شكرا لكِ، يا سيدتي. سأبحث عنها."

فتشنا أنا وسول غرف الطابق الأرضي، وصادفنا فرانك غريتريكس، أصغر الأشقاء الثلاثة، قادما عبر الردهة. كان مستدير الوجه وبشوشا، وله تلك الطبيعة الودودة لمن يستمتعون بصحبة الأطفال. شعَّث شعر ابن أخته.

"خالي فرانك، قلد صوت الديك البري لدادة ماي!"

استجاب للطلب، في صوت يشبه كثيرا الصيحة التي أعرفها وفغر فاهي استحسانا.

"والآن الكروان!"

أدخل أصابعه في فمه وانبعث نداء غريب حزين.

"والآن طائر الطيهوج!"

فأخرج صوت تهوّع هزلي، وغطيتُ فمي لأضحك.

"فرانك." كانت النبرة باردة ومقتضبة، وشعرت بوجود يشبه تيارا باردا خلفي.

طرفت عينا فرانك فوق كتفي، وزادت ابتسامته تصميما.

"كنت أسلّي الصغار، يا أبي."

"هذه وظيفة خادمتهم."

استفزني التحقير، وإن كان احتمال تعمده ضئيلا؛ فلم يكن مرجحا أن كونراد غريتريكس على علم بالتدرج الوظيفي في جناح الأطفال. لم يكن واضحا هل يرغبون في انصرافي أم أن فرانك هو

من سينصرف، لذا قلت: "تعال معي، يا سول،" وأخذته إلى مؤخرة المنزل. منحني فرانك ابتسامة اعتذار وتجاوزني للانضمام إلى الرجال.

أكملتُ وسول بحثنا في الخارج، رغم أن لا أثر لميلي في الفناء أو الأشجار المحيطة بالمنزل. شعرتُ بالقلق، وسألتُ في المطبخ إن رآها أحدهم، لكن الجواب كان بالنفي. لم نكن قد تفقدنا الطابق العلوي، ونظرتُ سريعا في غرف النوم والحمام وشعوري بالذعر يتصاعد.

قال سول: "ربما يلعبون الغميضة."

كان صوان الشراشف فارغا، لكني حينها سمعتُ ضحكات من جناح الأطفال؛ وكنتُ قد تركتُ الباب مفتوحا حتى أسمع تشارلي، ووجدتُ ميلي وبنتي أخوالها في أول غرفة، تقرفصن جوار سريري.

"آنسة ميلي، لقد قلبتُ المكان بحثا عنكِ. تعالي هنا. وها قد أيقظتِ تشارلي. ماذا تفعلين؟"

كانت وجنتا ميلي متوردتين، واقتربت لأرى ماذا تلعبن. كان صندوقي مفتوحا، وكل أغراضي خارجه على الأرض.

صاحت: "قلتِ أنكِ لا تمانعين أن أنظر في أغراضكِ! قلتِ أن بإمكاني ذلك!"

وأنا شبه معميَّة بالصدمة والغضب، انتزعتُ كل ما طالته يداي وقذفته في الصندوق.

"من هذه؟" كانت إحدى بنات أخوالها الخبيثات تمسك صورة -صورتي. كانوا قد فتحوا علبتي الصفيح ووجدوا أكثر أغراضي خصوصية.

"أعطنــي إياهــا! ميلــي، فلتذهبــي إلــى الغرفــة الأخــرى حــالا؛ وبقيتكـم، إلـى الأسـفل. هيـا، الآن!"

انسـلت الفتاتـان الكبيرتـان خارجـا فـي تنورتيهمـا، وشـرعت ميلـي تبكي. "لـم أكن أريد النظـر، همـا أجبرتانـي!"

"اذهبي إلى غرفتكِ، من فضلك. سول، خذ أختك من هنا."

أمسـك سـول بذراع ميلي وهو يشع مرحا وقادها خارج الغرفة، وصدى نحيبها يتردد في الردهة.

أدركـت أننـي أرتجـف. كانـت الصـورة قـد تكرمشـت، وتلطخـت زاويتهـا بآثـار إصبـع دبـق. مسـحته فـي مئـزري، وأنـا أشـعر بتصاعـد الدمـوع الحـارة للمـرة الثانيـة فـي ذلـك اليوم. علـى السـجادة تناثـرت قصاصـات جرائـد، وخطابـات إلسـي، و... رأيت كلمة روبارب، فألقيت بحزمـة الخطابـات في مؤخـرة الصنـدوق.

سـمعتُ جلبـة بسـيطة عنـد البـاب. وقلـت، "غـادروا،" فيمـا أمسـح خـداي بكـم ثوبـي. لكننـي لـم أجـد سـوى الصمـت، واسـتدرت لأرى ديكا تمسـك بمقبض البـاب، وقد اتسـعت عيناهـا البنيتـان.

قلـت: "أعتذر، يا آنسة. ظننتكِ..."

قالـت: "أخبرنـي سـول بمـا حـدث. لـم يكـن جديرا بميلـي قط أن تفعل ذلك، لكن باميلا وسـارة أكبر من أن تتصرفا بهذه الطريقة."

أتـت وركعـت إلـى جـواري لتسـاعدني فـي الترتيـب. لـم تدقـق النظـر فـي شـيء أو تطـرح أيـة أسـئلة، وأعـادت فرشـاة شـعري وزرّارتـي وحزمـة مـن المجـلات إلـى الداخـل.

"شـكرا لـكِ" قلتهـا، وأنـا أغلـق الصنـدوق وأحكـم قفلـه. "إنهـا غلطتـي لأننـي تركتـه مفتوحـا."

ردت الفتاة الصغيرة: "لا أظنها كذلك."

"حسن، لقد تعلمتُ درسي. لن أترك ميلي تغيب عن أنظاري بعد الآن."

ابتسامة صغيرة. "لا أعرف لم هي شقية هكذا."

"لولا أنني أملك أختا، لما صدقتُ أن الشقيقات قد يكن مختلفات بهذا الشكل."

سألت ديكا: "هل أختكِ شقية؟"

"كلا. لكن إخوتي الذكور كذلك. أو كانوا كذلك." وابتسمت. "كان أصغر اثنين في إخوتي يختبئان في مخزن فحم الجيران ثم يثبان على الجيران لإخافتهم، فيصل صوت صراخهم إلى آخر الشارع. كانا يعودان دائما بأشياء وجداها في أكوام الخردة أو سقْط العربات؛ وأقسم أنهما نتشاها في غفلة من السائق. ذات مرة أحضرا قطة ميتة أيضا إلى المنزل، فأصابا والدتنا بصدمة. قالت أنهما يشبهان كلاب التِرّير [8] . أما أكبرهم، روبي، فكان يصلح الأشياء التي يجلبانها: قطع معدنية وعلب صفيح وأغراض مكسورة، مختلف الأشكال. مصابيح، ساعات، وأشياء كهذه. كان يفصصها ثم يعيد تركيبها."

8- أحد السلالات أو الأجناس البرية لنوع من الكلاب، التي تتميز عادة بأنها صغيرة الحجم ونحيلة وقوية ونشيطة جدا وشجاعة. (ويكيبديا)

"هل سترينهم في العطلة؟ سيدة مانيون تزور شقيقها في سكاربوروه مرة في السنة، ويكون علينا تناول طعام بارد لثلاثة أيام."

وضعتُ المفتاح في جيبي وحملتُ تشارلي من سريره. "ربما. والآن، دعينا نجد ميلي قبل أن تغرق في بركة من دموعها." ثم عند الباب خطر لي أن أسألها: "ديكا. كانت والدتك ترتدي ضمادة. هل جرحت يدها؟"

أجابت: "آه، نعم. أحرقتها على سيجار بابا."

xxx

هبَّت موجة حارة دون إنذار، واصطحبتُ الأطفال إلى البلدة لتناول الآيس كريم. وأثناء سيرنا على الطريق الترابي الطويل، أخبرتهم كيف كنا نعد الآيس كريم منزليا في الشتاء، فنترك المربى والكريمة أمام الباب طوال الليل.

سأل سول وهو لا يصدق: "لتأكلها الثعالب؟" فلم أتمالك نفسي من الضحك، وبدا راضيا عن نفسه.

إضافة للآيس كريم، أردتُ شراء بطاقة بريدية عليها صورة للصخور الجبلية من أجل إلسي. واخترتُ لنفسي بطاقة للشلال الذي زرناه في إحدى نزهاتنا، وتساقطت مياهه من الصخور كستارة دانتيل؛ كان له اسم جميل، شلال حذوة الفرس، وكان في الصورة مُحاطا بغابة كثيفة ضبابية. رأيتُ ديكا تنظر إلى البطاقات بتوق فاشتريت لها أيضا واحدة. تجوَّلنا في البلدة، فتفرجنا على نوافذ المتاجر، ثم عدنا إلى المنزل سيرا بمحاذاة النهر، ومررنا بمباراة كريكيت في النادي. فأوقفتُ عربة تشارلي، وجلسنا على مقعد

لمشاهدتها أثناء تناولنا الآيس كريم. كان مقعدنا عند حافة الملعب، واستهوت اللعبة سول، فظل يقترب حتى أضحى يقف على بعد ياردات قليلة من أحد اللاعبين.

ناديته ليعود، مُتصورة أنه مصدر إزعاج، فاستدار اللاعب بدوره عند سماع صوتي. فتعرَّفته على الفور، لكني عجزتُ لوهلة عن تحديد شخصه. ثم تذكرت: كان هو نفسه الجالس في المتنزه المواجه للكنيسة. وقد تعرفني بدوره وحيَّاني بإيماءة.

"سول، تعال واجلس."

قال الرجل: "لا بأس."

في الاستراحة بين الشوطين أحضر لسول كرة كريكيت لونها عنبي. وأراه كيف يرمي الكرة، مُحرِّكا ذراعه في دائرة واسعة. قلَّده سول ثم لم يلبث أن اضطر لخلع سترته مع المجهود. كان تشارلي نائما، فعدَّلتُ غطاء عربته وعرَّضت وجهي قليلا للشمس. غفا متفرج أو اثنين عند حافة الملعب، وقد أنزل كل منهما قبعته على وجهه. بدت ميلي وكأنها أهالت معظم الآيس كريم على ذقنها ووجنتيها، فأخرجتُ محرمة وبدأت أمسحه.

"مرحبا مرة أخرى،" قالها الرجل، وقد أقبل تاركا سول يتدرب.

"مرحبا،" أجبته، وأنا أحجب عيني من الشمس.

"وجدتهم إذن."

"وجدتُ من؟"

"بقية الصغار."

لم أبتسم. حك مؤخرة رقبته التي كان لونها بنيا محمرا كذراعيه؛ وقد جعله زي لعبه الأبيض أكثر اسمرارا، ولاحظت أن يديه نظيفتان هذه المرة. فركهما مُحرجا.

سأل الفتاتين: "هل تحبان لعبة الكريكيت؟"

كانتا خجلتين فلم تجيبا.

"لا أظنهما شاهدتاها من قبل."

قالت ميلي: "بل فعلنا في غريتريكس."

قال الرجل: "آه. أنتم أبناء غريتريكس."

صححت له: "إنغلاند."

"عفوا؟"

"إنهم أبناء إنغلاند، وليس غريتريكس."

"بالطبع. هل صغيرهم مُختبئ؟"

"إنه نائم."

نظر إلى اللاعبين الذين كانوا يشربون عصير ليمون في الظل. "ماذا لديكِ هنا؟" سأل ديكا، وهو يقترب. كانت متشبثة ببطاقتها المصورة وكأنها تخشى أن تطير.

تمتمت: "بطاقة بريدية."

نظر إليها بالمقلوب. "شلال حذوة الحصان. أحد أماكني المفضلة."

قالت: "نحن أيضا ذهبنا إلى هناك."

"أراهن أنكِ لم تسبحي في قاعه. لا أوصي به: إنه بعمق حوض استحمام."

منحته ابتسامة ممتعضة.

تابع: "سُمِّيت هذا الشلالات تيمنا بجدي. فقد كان يكسب قوته من صنع أحذية الحصان، مثلي."

حدقت البنتان في وجهه، وعبست ميلي. "لكن الأحصنة لا تنتعل أحذية."

ضحك. "بل تفعل، لكنها تكون تحت أقدامها، لذا لا يمكنكِ رؤيتها."

"وما فائدة ذلك؟"

"إنها تحمي حوافرها على الطريق. لديكم أحصنة، أليس كذلك؟" أجابتا بإيماءة. "أنظرا إلى أحذيتها عندما تقابلاها في المرة القادمة. هل ترغبان في رؤيتها وهي تُصنع؟"

انضم إلينا سول وهو يلهث. "رؤية ماذا يُصنع؟"

"أحذية الحصان. أنا حداد. هل ذهبت إلى ورشة حدادة من قبل؟"

"مطلقا. لكنني أحب أن أذهب. هل يمكننا ذلك، يا دادة ماي؟"

"لستُ متأكدة."

قال الرجل: "ليس اليوم. متى تفرغتم. إنني أعيش في أرض البور، ليس بعيدا عن منزلكم. قرب الشلال في الواقع، على طريق كيثلي-هل تعرفينه؟"

"لا أظن ذلك. ولا أظن ورشة الحدادة مكانا مناسبا للأطفال."

"إنها آمنة كالمنازل. وسأتركك تعودين بحذوة حصان. إنها تجلب الحظ كما تعلمين." كان يوجه لي الحديث.

قالت ميلي: "أرجوكِ، يا دادة ماي."

"الفتاة الصغيرة متحمِّسة. ما قولك؟ يمكنكم المجيء بعد ظهر الغد."

"سيتوجب علي طلب الإذن من والديهم."

أومأ مسلِّما. ثم أضاف: "اسمي تومي شيلدريك. وإذا أعجبكِ ما ترين، فربما تُقنعين سائسكم بالمجيء إلي بدلا من العجوز ترافيس على مفرق الطرق. أخبريه أنني سأمنحه سعرا مناسبا."

نظرتُ بتمعن إلى تومي شيلدريك وحاولتُ تكوين انطباع عنه. لم يكن قبيحا، في الثلاثين ربما أو نحو ذلك، بدون خاتم زواج في إصبعه. كان شعره قد بهت بأثر الشمس، وعيناه داكنتان، ولم أستطع تحديد صورته الحقيقية وهو يحدق بي. تساءلتُ إن كان يغازلني؛ كان ودودا كفاية إنما مُبالغا في رفعه الكلفة ووقحا بعض الشيء بافتراضه أني سأتجول داخل الاسطبلات وأتبادل حديثا عن أحذية الخيول مع برودلي.

"يجدر بنا أن نذهب،" قلتها للصغار وأنا أنهض. "طاب يومك، يا سيد شيلدريك."

"طاب يومكِ."

رفع يده محييا وراقبنا ونحن نبتعد.

نال سول مراده في ذلك المساء، فأخبر والده عن دعوة سيد شلدريك لنا، فيما يستعرض حركاته في رمي كرة الكريكيت بتمثال راعية غنم أخذه من رف المدفأة.

"أظنها فكرة رائعة." هكذا قال سيد إنغلاند، كما توقعتُ أن يفعل. أما السيدة إنجلاند فقد كانت في فراشها مع إحدى نوبات صداعها. لم أرها منذ يوم أو اثنين، لكنني في ذلك الصباح سمعتُ رذاذ الماء الهادئ من الحمام؛ حيث عادتها أن تستحم بعد الفطور، وتمكث هناك لساعة في كل مرة.

أعلنت ميلي: "شخص سمى الشلال تيمنا بجده."

نظر لي سيد إنغلاند وقد رفع حاجبيه. "حقا؟ وهل ستذهبون خمستكم؟"

"في الحقيقة، يا سيدي، لا أعتقد أنني سأستطيع اصطحاب الرضيع." ثم قلت وأنا أسترجع كيف كانت السيدة إنجلاند حنونة به غداة الزيارة العائلية: "ربما يمكن للسيدة أن تعنى به لساعة؟"

هز رأسه في حركة سريعة وقصيرة، وحذرة بما يكفي ألا يراها الصغار.

"سآخذه إذن في عربة الأطفال،" قلتها، آملة أن يرى مثلي سخافة الاقتراح.

"رائع. اتفقنا إذن. سوف أنتظر بفارغ الصبر تقريرا كامل في ساعة الشاي." ثم سحب سيجارا جديدا.

قلت: "لا أظنني أعرف المكان، يا سيدي. لقد أخبرني أنه على طريق كيثلي."

رفع سيد إنغلاند إصبعا، في إشارة أن أنتظر، وغادر الغرفة، ثم عاد بعد دقيقة مع خريطة بحجم مفرش مائدة صغير. نشرها فوق سطح البيانو، واقتربتُ لأرى.

"هنـا،" قالهـا وهـو يصنـع دائـرة بسـبابته، فاضطـررتُ للاقتراب. وبتردد فعلت، وتبعت إصبعه شمالا، خارج البلدة. "هذا هو طريـق كيثلـي. وهـذا منزلنـا."

كانت رائحـة التبـغ قويـة، مع أنه لم يشـعل سـيجاره بعد. شـعرت فجأة بالحـر، وتُقتُ إلـى نسـمة باردة من النـافذة. "انعطفي يسـارا هنا وأكملـي السـير صعـودا. أعـرف ورشـة حـدادة هنـاك، ربمـا هـي نفسـها. كنـتُ لأرسـلكِ مـع برودلـي لكن علي الذهـاب إلى ليدز غدا."

لـم تكـن تفصـل بيننـا سـوى بوصـات وشـعرتُ بعـدة أشـياء فـي وقت واحـد: أنفاسـه التـي تحرك شـعري، وصدره الواسـع القوي. كانت يداه كبيرتان، وظهرت خلف التبـغ رائحة كولونيا حادة ونظيفة. واصلتُ التحديق في الخريطة.

"هـل تريـن كيـف يلتـوي الطريـق هنـا؟" أرانـي مربعـا صغيـرا يشير إلـى مسـكن. "أظنـه المـكان المنشـود."

ابتعدتُ في حركة سريعة. "فهمتُ، يا سيدي."

ولدهشـتي، غمـز لـي. "رائـع." ثـم اسـتدار إلـى الصغـار، وثبَّـت السـيجار بيـن أسـنانه. "مـن يريـد لعبة الجنـرالات البروسـيين؟"

الفصل التاسع

كان سيد إنغلاند مُحقا: فقد قامت ورشة الحدادة على منعطف في الطريق العمومي الذي يقطع أرض البور. رأيناه من على بعد نصف ميل، يتربع على قمة تل كصخرة في قاع بحر واسع وخال، وسماؤه ماء. كانت الأرض هنا قاحلة، ليس فيها شجرة تجذب النظر أو تصد الرياح، ما اضطرنا للتشبث بقبعاتنا. سبقني الصغار ركضا، وعباءاتهم تخفق من ورائهم. تناثرت بضعة بيوت ريفية هنا وهناك، لكن أرض البور كانت مكشوفة على مد البصر، وكأن الحياة غير مرحب بها هنا. وجدته مكانا غريبا وغير طبيعي، واحترتُ كيف أصفه لإلسي.

تكدّست في الفناء دواليب وقضبان حديدية، وعلمتُ أن بقاء الصغار نظيفين أمر محال. خرج سيد شلدريك لاستقبالنا، مُلوحا بيده من بعيد مع ابتسامة عريضة. تعذّر تمييزه تقريبا بدون زي اللعب الأبيض، حيث لطخ الشحم وجهه وغطى مئزر جلدي ملابسه. التحق بورشة الحدادة كوخ عتيق واطئ، نوافذه رفيعة رفع الشقوق لصدّ الرياح. كان المنزل منعزلا، ومكشوفا حد الهشاشة؛ فلم أر مسكنا آخر في الأرجاء، رغم مرور الطريق مباشرة من أمامه.

قال: "عمتم مساء." راقبتنا غنمة شاردة ونحن نقترب.

"عمت مساء، يا سيدي،" قالها الصغار في صوت واحد. وعندها جاء كلب الرعي مندفعا من الفناء نحونا مباشرة.

"تعال، يا سام." أمسكه سيد شيلدريك من قفاه وسحبه بعيدا، لكن ليس قبل أن يطبع بالوحل رسمتين لخفيه فوق مئزري. "آسف بشأن ذلك. آمل أنكِ لا تنزعجين من الكلاب."

لم أكن أنزعج، وهكذا قلت له. نبح سام، راغبا في اللعب، وأحاط به الصغار.

"قبل أن تدخلوا، ابقوا في مكانكم لحظة." اختفى في المحيط المجاور لورشة الحدادة، وعاد بمجموعة مآزر قطنية، كانت جميعها بمقاس كبير غرق فيها الصغار، وخاصة ميلي. ضحك سيد شيلدريك، وقال: "توقعتُ حدوث هذا. تعالوا معي وسأصلحها لكم."

تبعناه إلى داخل الفناء. وهناك لم يخل شبر من الخردوات المعدنية ذات الأشكال والأحجام المتنوعة، بدءا من أعمدة السقالات الطويلة إلى المحاريث الصدئة والماكينات المنبعجة. انتظرنا سيد شيلدريك عند المدخل وبعد لحظة ظهر وبين أسنانه إبرة وخيط، وخلال دقائق قصَّر مئزر ميلي بصورة بدائية. أراد سول أن يكون التالي، لكن مئزر ديكا بالكاد لمس الأرض. وعندما انتهى، دسَّ الإبرة في حزام الأدوات حول خصره.

"الحدادون هم خيَّاطون أيضا، هل كنتِ تعلمين؟" كانت لهجته محلية، إنما منكَّهة بشيء آخر، حيث انبعثت كلماته منغَّمة في نهاية الجملة. مسَّدتُ مئزري ودفعت عربة الأطفال إلى الداخل.

كانت ورشة الحدادة مظلمة، لا يضيئها سوى شقان ضيقان تركا مفتوحين للتهوية ونار لونها أحمر قانٍ تحتدم في مدخنة احتلت معظم الجدار المقابل. تكدس مزيد من الخردة في الأركان، وزينت

عشرات الأدوات -التي لا يسعني تخيل فيما تستخدم- بقية الجدران. وعلى الأرض الترابية كرسيان وطاولة جميعها أُلبست كسوة مبهجة قبالة مدفأة منزلية، ودعاني سيد شيلدريك للجلوس. مع التعتيم الإجباري، بدا المكان أشبه بكهف، أو منزل في قصة خرافية. تمشَّى الصغار يتفحصون ما في طريقهم من أشياء، وعادوا بأصابع سوداء. أراهم سيد شيلدريك كيف يُنفخ الكير لتهوية طبقة الفحم. أخذ سول دوره ثم ديكا، التي لم تبدِ ردة فعل عندما تطايرت شرارة من النيران وسقطت على مئزرها، بل راقبتها بهدوء وهي تتآكل.

كان تشارلي قد نام في الطريق، غافلا عن الأجواء حولنا. هدهدته في عربته، وشاهدتُ من بعيد سيد شلدريك وهو يستعرض عملية صنع حذوة حصان، ممسكا بقطعة فولاذ في الفرن، فيلفها كالعجينة حول نهاية السندان. راقب الصغار، وسام لاهثا عند أقدامهم، لون الحذوة وهو يتحول من أحمر ناري إلى كهرماني متوهج، ثم رمادي باهت في النهاية. اشتغل سيد شيلدريك بسرعة، ومطرقته تنزل في ضربات تصم الآذان. لم أرهم مُستغرقين في أمر هكذا من قبل؛ حتى ميلي زمَّت شفتيها في تركيز. أعاد الحذوة إلى النار، ثم أخذ لها إزميلا، راميا بالمطرقة في دقة، دون أن يبدي اهتماما بسخونتها أو أثر ارتطامها. لاحظتُ أن يديه نفسهما لا تتميزان عن الجلد المدبوغ، وساعداه تشبهان خاصرة حصان متينة.

صاح سول: "دادة ماي، تعالي وانظري."

نهضت لأقف معهم، وأكبح انجذابهم نحو الفرن أثناء إنضاج الحذوة فيه لمرة أخيرة. ترك سيد شيلدريك ديكا تغطسها في قاع الماء، حيث أصدرت هسيسا مُرضيا.

سألته وهو يعيدها إلى السندان: "هل لا بأس في لمسها؟"

أجاب بالإيجاب، فتحسسناها نحن الخمسة؛ كانت دافئة كالخبز الطازج. "هي لكم،" قالها وهو يناول الحذوة الصغيرة لميلي، التي ضمتها إلى صدرها.

سأل سول: "هل يمكننا صنع أخرى؟"

"بالتأكيد."

"لم المكان مظلم هكذا؟ ألن يعجبك وجود نوافذ أكثر؟"

"أحتاج لرؤية درجة توهج المعدن. ليس جيدا العمل في ضوء النهار."

أجاب سول بتعالٍ: "أفضِّل الظلام. حينها يصبح هناك الكثير مما يمكننا رؤيته."

تناول سيد شلدريك قضيب حديد خام ووضعه بين فكي الكلابة. "أتعرفون أن للمعدن عقله الخاص؟ فالمرء لا يصنعه، بل يشكِّله. يدرِّبه ليقوم بما يأمره به، وأمامه ليفعل ذلك وقت قصير جدا. لا يمكنني التوقف لإجابة الباب أو حك أنفي، وإلا فسد كل شيء. أهم ما في الأمر هو ضبط الوقت والدقة. هذا" -وقلب الكلابة- "يمكن أن يصبح مسمارا. يمكن أن يصبح محراك نار، أو سكينا. أو ملعقة. يمكن أن يصبح أي شيء. لكنه خادم، لا عبد، ولن يفعل شيئا رغما عنه."

صرخ تشارلي من جانب الغرفة الآخر، وذهبتُ لأعطيه خشخيشته. جلس ونظر حوله، ثم قرر أنه يريد النزول ومدَّ يديه إلي.

قلت له: "كلا. يجب أن تبقى في مكانك." أثار ذلك غضبه، وأصبح وجهه أحمرا كالنار وهو يملأ المكان صراخا.

ناديتُ ديكا، التي سارت بحذر في العتمة. "هل يمكنكِ اصطحاب تشارلي إلى الخارج في عربته؟ كنت لأفعل ذلك بنفسي، لكني لا أستطيع ترككم جميعا هنا."

قالت: "حاضر، يا دادة،" وإن أمكنني استشعار إحباطها.

كان ضوء النهار ساطعا، وأغلقتُ الباب خلفها وعدتُ للبقية.

قال سيد شلدريك بوجه جاد: "طلب السيد الصغير خوذة فارس. لكنني لا أظنه عملا يناسب فترة الظهر."

"سيف إذن!"

"لا أصنع الأسلحة."

كانت حرارة النار غير مريحة، وبدا سيد شلدريك وكأنه يستعر بنفس القوة. تراجعتُ خطوة للوراء، ووددتُ لو أن هناك فوطة باردة لوجهي.

"ما رأيك أن أبحث عن شيء يحتاج لإصلاحه؟" قال سيد شلدريك وهو ينظر حوله. "عرفت ما هو. أمهلوني لحظة." عبر الغرفة وفتح الباب، ليبهر الضوء أعيننا مرة أخرى، ويخلف بقعة مستطيلة ساطعة رأيتها عندما طرفتُ بجفني.

قلتُ للصغار: "يجب أن نعود إلى المنزل الآن."

قال سول: "لا، أريد أن أبقى هنا!"

"تهذَّب."

"أريد أن أبقى، من فضلك."

"يمكن لسيد شيلدريك أن يريك شيئا ثانيا، ثم سيتوجب علينا العودة إلى المنزل في موعد الشاي، نحن في الثالثة عصرا بالفعل."

"هل يمكننا أن نأتي مرة أخرى غدا؟"

"سيد شيلدريك لديه عمل."

"يمكنني مساعدته."

ابتسمت. "لا أظنه يحتاج إلى مُساعد."

عاد سيد شلدريك أخيرا حاملا مذراة مكسورة. وسأل: "من يعرف ما هذه؟"

قالت ميلي: "شوكة طعام عملاق."

"تخمين جيد، يا آنسة، لكنها شيء أكثر إثارة للتقزز. إنها شوكة روث."

صرخ الأطفال في انبهار متقزز. "عادت معي من أستراليا وانتويتُ إصلاحها منذ ذلك الحين."

سألتُ دون تفكير. "كنتَ في أستراليا؟"

"عشت فيها قرابة عشر سنوات."

سأل سول: "تزيل بها الغائط؟"

"خرفان، بقر، أحصنة، فيلة."

ضحك الصغار.

قلت: "لا أظن هذا ملائما."

"آسف." رسم وجها مذنبا، وضحك الصغار مرة أخرى.

"هل يوجد شيء أكثر ملاءمة يحكونه لوالديهم؟"

"بالتأكيد يوجد. لنرى ما لدينا." نقّب في الأكوام المجاورة للمدخنة وعاد بمكبس تحميص خبز.

قال سول: "هذا ممل. أريد إصلاح شوكة الروث."

"إذا ساعدتني في إصلاح هذا، فسوف أتركك تأخذه معك لإعطائه لطباختكم. هل تعرف ماذا يحمّصون في أستراليا؟ حلوى المارشميلو." ذُهل الصغار. "إذا أحسنتم التصرف، فربما تشتري لكم خادمتكم بعضا من تلك الحلوى. ثم يمكنكم تحميصها في مدفأة غرفتكم والتظاهر بأنكم في مخيم."

"مربية" قلتها عندما أنهى كلامه.

"عفوا؟"

"أنا مربيتهم، وليس خادمتهم."

تحدثتُ بقسوة لم أقصدها، مدفوعة بانزعاجي من كونراد غريتريكس عندما ارتكب ذات الغلطة في المنزل. وجوارنا، أحدثت النيران فرقعات وشرارات، وتفاجأ سيد شيلدريك.

"أعتذر،" قالها، ونظر لي طويلا جدًا.

***

برغم المآزر المرتجلة، بقّعت الأوساخ والتراب ملابس الصغار، وبالوقت الذي وصلنا فيه إلى المنزل لم يكن أمامي سوى خمس عشرة دقيقة لتحميمهم وتبديل ملابسهم. أحضرتُ الماء

بنفسي، وقد تخيلتُ أنني سأجد الصغار قد خلعوا ملابسهم كما أمرت. لكنهم كانوا يُقحمون مكبس التحميص الذي أُصلح في موقد المدفأة الفارغ، فيما جعلت ميلي حذوة حصانها ترمح فوق الأرضية الخشبية. خلعتُ عنها شملتها وبدأت أفك حذاء سول. وقفت ديكا بلا حراك جوار سريرها، وطلبتُ منها أن تناولني الإسفنجة. وعندما أنهيت غسل أيديهم ووجوههم، كان الماء قد صار أسودا، وشتمتُ عند سماعي صوت صينية الشاي في الردهة.

"ديكا، هاتِ ثيابك." ومددتُ يدي.

قالت: "إن بدَّلتُ ثيابي الآن، فسوف يبرد الشاي."

"لا يمكنكِ احتساء الشاي وأنتِ متسخة هكذا. لن يستغرق الأمر سوى دقيقة."

"لا أمانع في البقاء بملابسي."

"لكنكِ مغطاة بالأوساخ. تعالي، سأساعدك."

نزلتُ على ركبتي لأفك مريولها وألقيت به إلى كومة الملابس جوار الباب. ثم فككتُ أزرار فستانها وخلعته هي بنفسها، ثم طوته ووضعته فوق بقية الثياب ودخلت في عباءة نظيفة أمسكتها لها.

سألت: "هل أضع الثياب في كيس الغسيل؟"

"سيكون هذا مُعينا."

"هل أنزل الكيس إلى إميلي؟"

"سيكون هذا مُعينا أكثر. شكرًا لكِ." كنتُ قد اعتدت مساعدتها لي واعتبرتها أحيانا أمرا مُسلما به. أقفلتُ أزرار فستانها وانصرفت هي مسرعة والكيس يتأرجح في يدها.

في الغرفة المجاورة أجلستُ سول وميلي، ووضعتُ تشارلي في كرسيه العالي لصبِّ الشاي. ثم أدركت أنني نسيت مريلته، فذهبت إلى غرفة نومهم. ووجدتُ ديكا وقد عادت وكانت تدس شيئا تحت وسادتها.

"عدتِ بسرعة! ماذا تفعلين؟" سألتها، وأنا آخذ مريلة من خزانة الملابس.

ولشدة دهشتي، بدا عليها القلق أو الذنب، وسحبتْ يدها وكأنها احترقت.

قلت: "هل كل شيء على ما يرام؟"

احمرَّت أذناها. أجابت: "نعم."

"ماذا وضعتِ تحت وسادتك؟"

"لا شيء."

سادت لحظة صمت، ثم مددتُ يدي. "لماذا تتصرفين بغرابة؟ هاته." شيء ما انتقل في الجو بيننا، وشعرتُ أن مرحي يتبخر. كررتُ: "هاته." لم تكن طفلة ممن يحملقن أو يُجادلن، ولا ممن يتمردن؛ كانت هذه أول مرة تبدي فيها أي مقاومة. تحركنا في نفس اللحظة إلى السرير لكنها سبقتني إليه، فأدخلت يدها وأخرجتها في حركة خاطفة، سريعة كالبرق. سمعتُ خشخشة ورق، وأخفته خلف ظهرها الذي ألصقته بالسرير.

"ماذا لديكِ بحق السماء؟"

"لا شيء." ظهر عليها الرعب والملامة، وجثوتُ على الأرض أمامها. "هل هو لكِ؟"

عضت شفتها وهي تهز رأسها.

"لمن هو إذن؟ هل هو لي؟"

هزت رأسها مرة أخرى.

"ديكا، يجب أن تخبريني."

"لا أستطيع."

مددتُ يدي من خلفها فأطبقتُ على ظرف. تركتني آخذه ورأيتُ أنه غير مُعنوَن.

"من أعطاكِ هذا؟"

ازدردت ريقها. "سيد شلدريك."

انعقد حاجباي. "سيد شيلدريك؟"

لم تقل شيئا، وقد اتسعت عيناها البنيتان.

"لم قد يعطيكِ هذا؟ ما هذا؟ ماذا قال؟" تظاهرتُ بأنني سأفتحه، فانطلقت يدها توقفني.

"كلا، أخبرني ألا أنظر بداخله."

"لماذا؟"

قالت همسا: "إنه ليس لي."

"لمن هو إذن؟"

"ماما."

ساد الصمت. وجاء من بعيد صياح وصخب بقية الصغار في الغرفة المجاورة، وتكَّت ساعتي في جيبي. لعقتُ شفتي وازدردتُ ريقي.

"ماذا قال لكِ بالضبط؟ ديكا، ماذا قال لكِ؟"

"طلب مني أن أعطي هذا لماما."

"متي؟ متى فعل ذلك؟"

"عندما كنتُ بالخارج."

سألتها: "ولماذا لم يعطه لي؟"

لم تجب، وطقطق الورق بين أصابعي.

"ينبغي إخبار والدكِ في الحال،" أخبرتها، لكني علمتُ أني لن أفعل: الخطابات أمور شخصية. كنتُ أفهم ذلك أكثر من أي شخص آخر.

توسلت: "لا تفعلي. أرجوكِ، لقد نبهني إلى عدم إخبار أحد."

ضجَّ رأسي بالاحتمالات، لكن ما انفكت جميعها أن عادت إلى احتمال واحد. إما أن السيدة إنجلاند لا تتوقع خطابا من الحداد شيلدريك، أو أنها تتوقعه. وفي هذه الحالة هما يتراسلان. ما يعني... ماذا يعني هذا؟

دسستُ الخطاب في جيبي وأمسكتُ بيدي ديكا. وقلت لها: "دعيه معي. سوف أتحدث مع والدتكِ، وأعدكِ أنني لن أخبر أحدا آخر."

***

كانت السيدة إنجلاند حاضرة في غرفة المعيشة ذلك المساء وقد تعافت من صداعها. بدت متعبة وذابلة وسط اللون الوردي للأريكة، لكنها ابتهجت عندما دخل الصغار، فاعتدلت في جلستها وكتمت تثاؤبها. تجادلتُ مع نفسي حول أفضل وقت للتحدث إليها، ولم أعرف هل الأفضل أن أثير الأمر وزوجها في المنزل أم لا، حيث قد

يسمع شيئا بالصدفة. لكن من الذي كنت أحميه؟ كان الظرف كجمرة في جيبي، وسببا في شعوري بالذنب لمشاركتي في الأمر. كنتُ مُقتنعة أن أحد الصغار سيجده في مئزري ويفتحه، أو أن وجهي سيفضحني.

"حسنا، يا أولاد،" قالها سيد إنغلاند وهو يقص طرف سيجار. وتدحرج الطرف على السجادة واستقر على تنورة السيدة إنجلاند. أشعل عود ثقاب أمام فمه وأخذ نفسا من سيجاره برضا عميق، وكأنه ينتظر هذه اللحظة طوال اليوم. "أخبرونا عن نزهتكم،" قالها عبر الدخان.

نظرت السيدة إنجلاند إلى كل منهم، وأخرجت ميلي من وراء ظهرها حذوة الحصان الصغيرة. ولوح سول بمكبس التحميص كأنه سيف.

سألتُ: "ماذا تحملان؟"

مدت ابنتها يدها بالحذوة في انتصار. بقيت ديكا جواري عند الباب.

"حذوة حصان! أين وجدتها؟"

"صنعها لنا سيد شلدريك."

سادت لحظة صمت، تجمدت فيها ابتسامة السيدة إنجلاند، ونظرت إلى ابنتها. "من، يا حبيبتي؟"

"سيد شلدريك، الحداد."

راقبتُها بإمعان. كانت هناك حركة عند عنقها وكأنها أرادت ابتلاع ريقها، لكنها غيرت رأيها. "ومن يكون؟"

"لقد التقوا به البارحة، أليس كذلك، يا أولاد؟" قالها سيد إنغلاند، وهو يتكئ على البيانو. ومن خلفه، حدق تشامبيون غريتريكس بلطف من بروازه إلى الغرفة. "دعاهم إلى ورشته، ليريهم كيف يصنع الأشياء." سعل في يده وأخذ نفسا آخر من سيجاره. "لطف بالغ منه. كيف رأيتم الأمر؟"

قال سول: "كان ممتعا جدا. لقد تركني أصلح هذا."

"وما هذا؟"

"خنجر!"

قالت ميلي: "إنه مكبس تحميص. لقد طلب سيفا لكن سيد شلدريك لا يصنع الأسلحة."

"ها! داعية سلام." نثر الرماد في منفضة كريستالية كبيرة من تلك المنتشرة في أنحاء المنزل. "ماذا تعلمتم إذن؟"

قال سول: "أن المعدن خادم أكثر منه عبد."

"وكيف ذلك؟"

"يمكنك تدريبه لكن لا يمكنك إجباره."

اختلج شارب سيد إنغلاند. "وما رأي دادة ماي في ذلك؟"

ابتعلتُ ريقي. "وجدته شيِّقا جدا، يا سيدي."

أومأ برأسه. "ديكا، أراكِ هادئة. ماذا لديكِ لتقوليه عن رحلتك؟" وانتظر مبتسما. شدَّت ديكا مريولها، وجلست والدتها دون أية حركة وهي تراقب.

قالت أخيرا: "كانت ممتعة جدا."

قال والدها: "جيد! هل عدتِ بهدية؟"

"لـم يكـن هنـاك شـيء لـي، يـا بابـا." ثـم حولـت أنظارهـا إلـى والدتهـا، ولاح تعبيـر غامض على وجه السـيدة إنجلاند. عادت لتغوص فـي الأريكة وأغمضت عينيهـا ، وكأنهـا شـعرت بصـداع قـادم.

قال سول ببؤس: "عليَّ أن أعطي هذا لسيدة مانيون."

قـال سيد إنغلانـد: "أمـا أنـا فأقول أن كل فتى يحتاج إلى مكبس تحميص للتخييـم فـي البريـة. سـيدة مانيـون لديهـا شـوكة تحميص ممتـازة."

انفرجـت أسـارير سـول وأعـاد المكبـس إلـى جيبـه. وفـي تلـك اللحظـة زحـف تشـارلي بسـرعة البـرق عبـر السـجادة وتنـاول ذبابـة السـيجار؛ فقفـزت خلفـه وانتزعتهـا مـن قبضتـه. مـدَّ سـيد إنغلانـد منفضـة السـجائر، المكدسـة بالرمـاد. أومـأت ممتنّـة وتوجهـت نحـوه، واعيـة لقربـي منـه، والخطـاب فـي جيبـي علـى بعـد بوصـات فقـط مـن سـاقه. أجبـرت نفسـي علـى الابتسـام، محترقة بنفاقـي، ووضعت ذبابة السـيجار فـي المنفضـة.

***

طرقـتُ بابهـا فـي ذلـك المسـاء، عندمـا كان سـيد إنغلانـد فـي الطابـق الأرضـي يدخـن غليونـه. كانـت قـد أخبرتـه فـي غرفـة المعيشـة أنهـا تشـعر بالصـداع يعـود، وأنهـا سـوف تتنـاول عشـاءها في الفراش. سـمعتُ الخـدم وهـم يرفعـون صينيـة الشـاي وتكـة بـاب المكتـب وهـو ينغلق، ثم عبرتُ فسحة السلم. أجابت السيدة إنجلاند الباب وهي في ثوب نومهـا، وشـعرها الذهبـي الداكن ينسـدل فوق كتفيها، ويكاد يصل إلـى خصرهـا.

"سيدتي، هل لي في لحظة من وقتك؟"

علا تغضن بسيط جبينها، ثم تلاشى في الحال. شرعَت الباب، وتبعتُها إلى الداخل. جلسَتْ على حافة السرير كطفلة.

أغلقتُ الباب برفق وناولتها الظرف الدافئ والمجعد. "لقد وجدتُ هذا في حوزة آنسة ديكا، يا سيدتي."

أخذته، فقلبته وفحصته. "ما هذا؟"

"إنه من سيد شيلدريك."

"من؟"

"الحداد، يا سيدتي."

عيناها الداكنتان اشتعلتا كالفحم.

"لقد أعطاه إلى ديكا دون علمي، وطلب منها أن تسلمه لكِ. نبَّهها ألا تخبر أحدا. كانت ديكا مترددة جدا في إخباري."

"لا يسعني تخمين ماذا يريد." ثم سألت: "هل قرأته؟"

"كلا، كلا بالطبع."

"حسن،" قالتها بنبرة خفيفة. "لا بد أنه يعرض خدماته، لكن لدينا حداد لا عيب فيه." ورمت الظرف بلا اهتمام على الفراش.

قلت: "سيدتي. لا أقصد التطفل." امتلأت تعابير وجهها بالحذر، وتكلمتُ بتردد. "لكن إن كنتِ لا ترغبين في تلقي خطابات منه، فبوسعي إخباره بذلك. كان تصرفه غير لائق."

"كيف تعرفين تومي شلدريك؟"

"لا أعرفه، يا سيدتي. صادفته بضع مرات فحسب عندما خرجتُ مع الصغار. دعانا إلى ورشته لمشاهدته أثناء العمل، ورأى سيد إنغلاند أنهم سيستمتعون بذلك."

"لا أريدهم أن يذهبوا مرة أخرى. إلى أي مكان قريب منه. هل تفهمين؟ ولا أنتِ كذلك."

"أمركِ، يا سيدتي."

خفضت أنظارها إلى الظرف ومررت لسانها على شفتيها. وقالت: "سأكون ممتنة لكِ إذا لم تخبري أحدا عن هذا الأمر. أنا متأكدة أنه ليس مهما بكل الأحوال." ظهرت بقعة حمراء على حنجرتها.

قلت: "أمركِ، يا سيدتي."

وفيما أغلق الباب، خطر لي أنه في الحديث الذي دار بيننا، واحدة منا فقط دعته تومي، وهذه الواحدة لم تكن أنا.

***

وضعتُ تشارلي في مهده وحممتُ بقية الصغار، وقد أضناني التعب بدوري، فوجدتُ مشقة في رفع إبريق الماء الساخن. لم تتكلم ديكا إلا أقل القليل منذ أحداث تلك الظهيرة وانكمشت في طرف حوض الاستحمام تكحت الصابون بأظافرها. كانت حييَّة في وقت الاستحمام ولا تنفك تغطي جسدها، فتجلس وقد ألصقت ركبتيها بصدرها وضمت كاحليها. عاهدتُ نفسي أن أحممها بمفردها بعد ذلك، وقد تذكرت كم كنت أشعر بالحرج وأنا في سنها.

سأل سول: "ما هذه الرائحة؟"

تشممتُ فوجدتُ أثرا لرائحة دخان. "ربما تحتاج المصابيح إلى تقليم فتيلها."

صبَّنتُ شعر ميلي في صمت، وقد هدهدني صوت صب الماء الهادئ والمثير للنوم، ونهضتُ لأحضر المشط من على حوض غسيل الوجه. لم يكن وعاء حلاقة سيد إنغلاند قد أُفرغ بعد، فقبع الماء رماديا ورغويا فوق الحوض الخزفي، وشفرة الحلاقة مغبَّشة. أخذتُ المشط وعدتُ إلى حوض الاستحمام.

صرخت ميلي: "شجار، يا دادة!"

"عفوا."

من غرفة بعيدة جاءت أصوات تعلو وتنخفض، لرجل وامرأة. كانت غرفة ملابس سيد إنغلاند مجاورة للحمام، تليها غرفة ملابس السيدة إنجلاند. سرعان ما أصبح واضحا أن نقاشهما كان حاميا أو جنونيا، وكانت هناك تلك الرائحة الدخانية، التي تميز احتراق الخشب، وليس الزيت، أو الفحم عديم الأبخرة.

نهضتُ لألقي نظرة من الباب. وجدتُ فسحة السلم ضبابية، فسعلتُ ونفضتُ الأدخنة بعيدا، وأنا أنظر حولي. كان باب غرفة السيدة إنجلاند مفتوحا، وظهرت بليز أعلى الدرج بدلو واتجهت نحوها.

سمعتُ صوت سيد إنغلاند يقول: "لماذا لم تطلبي من الخدم؟ لقد أفسدتِ كل شيء. من أين حصلتِ على هذا الخشب؟"

سألت: "هل كل شيء على ما يرام يا سيدي؟"

مد جسده من الباب. "قررت السيدة إنجلاند أنها تريد نارا، وأنها ستشعلها بنفسها. لا تهتمي، لقد أُخمدت الآن." سمعتُ فحيح الماء على قطع الخشب المحترقة، وعاد هو للداخل. "ما هذا؟"

وقفتُ عند بداية السلم، أصغي سمعي، وأنا أفكر كيف كان الصوت شبيها بصوت الماء الذي غُمرت فيه الحذوة بورشة الحدادة، هسيس حديد يبرد.

تكلم سيد إنغلاند: "شكرا لك، يا بليز." قالها بشيء من البرود وأغلق الباب خلفها. رمقتني بنظرة شبه مسترقة، وكأنها أرادت أن تدير عينيها في محجريهما، وأخذت الدلو الفارغ للأسفل. أصغيتُ لبرهة أخرى، لكني لم أجد سوى الصمت.

في الحمام، أدار الصغار وجوههم نحوي كزهور في حوضها.

سألت ديكا: "ما الأمر؟"

" أرادت والدتكم نارا."

قال سول: "أعرف كيف أشعل نارا. بابا علمني."

قالت ديكا: "أنا بردانة."

ساعدتهم على الخروج من حوض الاستحمام واحدا تلو الآخر، فجففتهم وألبستهم أثواب نومهم. ورافقتهم عبر فسحة السلم، وأمرتهم بالاستلقاء في فرشهم ونزلتُ إلى الطابق الأرضي. كانت بليز تجلس على طاولة المطبخ الكبيرة أمام فطيرة عليها طبقة سميكة من الزبدة. وسيدة مانيون تكشط موقد المدفأة، وقد تلطخت يداها ومعصماها بالفحم.

أخبرتُ بليز: "لقد انتهى الصغار من حمامهم."

واصلت أكلها الذي تساقط فتاته على الطاولة. "لحظات وأصعد لتنظيفه."

انتظرت أن ترفع بصرها نحوي. "ووعاء حلاقة سيد إنغلاند يحتاج لإفراغه."

"هل أصعد إلى جناح الأطفال وأريكِ كيف تقومين بعملك؟"

"بليز!" هتفت بها سيدة مانيون، "توقفي عن إسقاط الفتات على طاولتي، حسنا؟ وأفرغي حوض الاستحمام. وتذكري إغلاق باب غرفة السيدة وإلا انتشرت الرائحة الكريهة في جميع الغرف."

مسحت بليز الفتات ورمته في دلو القمامة. دارت بتكاسل حول الطاولة وتناولت الغلاية من فوق الموقد. "سوف أحتسي فنجانا من الشاي أولا. لا أريد مقاطعة شيء."

سألت: "ماذا تعنين؟"

أمالت رأسها نحو السقف. "إنهما يتجادلان. وجميعنا نعرف ما يحدث بعدها." ابتسمت على نحو بغيض، ونظرت لي مباشرة. "إنهما يتضاجعان مثل كلبين في جحر."

الفصل العاشر

كتبتُ بطاقتي البريدية إلى إلسي، وأخذتها والبنتين إلى صندوق البريد مع تشارلي في عربته، وفي الطريق أحصينا عدد السناجب التي رأيناها في الغابة. كانت أوراق الشجر والجوز قد افترشت الأرض، والهواء أبرد. داخلني قلق طفيف من دخول الشتاء بأيامه القصيرة، حيث لن نستطيع الخروج كثيرا.

عند عودتنا، استقبلتنا الردهة بدفء وترحاب، وأدخلتُ الصغار. ثم ظهر سيد إنغلاند على باب مكتبه.

قال: "عمتِ صباحا."

"عمتَ صباحا، يا سيدي."

كان سول وسيد بوث في غرفة الطعام؛ لأنني سمعتُ همهمة عبر الباب. مرَّ أسبوع على حادثة الخطاب، وقد جعلها الانتقال المفاجئ للخريف تبدو كحلم ضبابي.

قال سيد إنغلاند: "نزهة جديدة في الغابة، كما أرى."

"مشينا إلى صندوق البريد، يا سيدي."

"لدينا واحد هنا." وأشار إلى صندوق البريد المذهَّب في الردهة.

"لم أكن أعرف أن بوسعي استخدامه، يا سيدي."

"بالطبع. وفري على نفسكِ عناء المشي."

"شكرا لك."

"دادة ماي، هلا أحضرتِ ديكا إلى غرفة المعيشة في الحادية عشرة؟"

لحظة سكوت. "أمرك، يا سيدي."

"شكرا لك."

وقفت ديَكا صامتة بجانبي. أغلق والدها الباب، وأدارت وجهها نحوي.

قلت: "سوف نخلع أحذيتنا هنا يا بنات. فقد نظفتُ لتوي سجادةِ الطابق العلوي."

قُدتهم إلى غرفة تبديل الأحذية الصغيرة والباردة في مؤخرة المنزل والتي احتفظ فيها سيد إنغلاند بملابس صيده. كانت الجدران تصطف بمعاطف لم تجف بالكامل قط وتشبه رائحتها طحالب رطبة.

"لماذا يريد بابا رؤيتي؟" سألتني ديكا وأنا أفك حذائها.

قلتُ ببشاشة: "لا أعرف."

"لماذا لا يريد ميلي أيضا؟"

"أعتقد أننا سنعرف قريبا. أنا واثقة أنه شيء لا يدعو للقلق."

كانت قد أشرفتْ على الانتهاء من صنع موسوعتها في علم النبات، فصنعتْ ثقبين في الصفحات وربطتها معا بشريط أحمر للشعر. كاد المشروع يتلف عندما قلب تشارلي زجاجة صمغ فوق الطاولة، لكن معظمه تقشَّر، واستبعدتُ أنا الصفحات الملطخة.

في الحادية عشرة والربع، وضعت تشارلي في فراشه لينام قيلولته وأجلستُ ميلي مع بعض أختام البطاطس [9] على الطاولة. كان سيد إنغلاند قد زودني بالمال لشراء مشمَّع لسول، ووجدتُ واحدا ضخما في السوق الأسبوعي. فنصَّفته، ووضعت نصفا في الفراش والآخر تحت غطاء الطاولة لحماية خشبها.

9- ثمرات بطاطس تقطع إلى نصفين، ويحفر في البطاطس من الداخل بأشكال منوعة ويُطبع بها. (المترجمة)

كان سول قد تعرض لحادثتين أخرتين بعد حادثته الأولى، لكن تغيير شراشف السرير الآن استغرق خمس دقائق وأنقذه من الإحراج.

نزلنا أنا وديكا معا. حملتْ كُتيِّبها إلى صدرها، ويدها الأخرى تتحرك بنعومة على الدرابزين. كانت في ذلك الصباح قد ارتدت عقد المرجان الذي أهدتها والدتها إياه في عيد ميلادها العاشر، عقد جميل مرصع باللآلئ.

سألتني في جناح الأطفال وهي تفرد ثنية في الشريط: "أليس الأفضل أن يشاهدوه عندما ينتهي؟"

"يمكننا إخبارهم أنه لم يكتمل بعد. أنا واثقة أنهم يرغبون في قراءته ورؤية الجهد الذي بذلته فيه. يمكننا أيضا صنع بطاقة، كالتي في المكتبة، ونطلب منهم التوقيع عليها."

انفرجت أساريرها المغتمَّة قليلا، وطرقتُ باب غرفة المعيشة مرة واحدة ثم فتحته.

كان سيد إنغلاند يقف أمام لوحة تشامبيون وساعته في يده، والتي دسها في مكانها بأناقة إثر دخولنا. وجلست السيدة إنجلاند في الجهة المقابلة من الغرفة، أسفل نافذة الواجهة الكبيرة. كانت تدس يديها تحت تنورتها الحريرية الواسعة وعيناها تحدقان في السجادة، ولم ترفعهما.

"اجلسي، من فضلك،" قالها سيد إنغلاند، مشيرا إلى الأريكة الصغيرة اليابسة جوار الباب. أطاعت ديكا، وهي تسوي تنورتها بعصبية، وقال سيد إنغلاند: "وأنتِ كذلك، يا دادة ماي." وبتيبس فعلت.

"سوف تذهبين إلى المدرسة،" قالها لديكا، مع تنهيدة إذعان قصيرة، وكأنه خسر جدالا. "لقد اتّخذت كل الترتيبات. سوف يصطحبكِ برودلي ودادة ماي في نهاية هذا الأسبوع إلى مدرسة سانت هيلدا في ريبون. كانوا طيبين كفاية ليمنحوكِ مقعدا لديهم في مدة إخطار قصيرة، والفضل يرجع لعلاقات جدتك. بدأ الفصل الدراسي منذ بضعة أسابيع، لذا ستكونين متأخرة قليلا عن البقية. لكنكِ لن تلبثي أن تدركيهم." وأفتر ثغره عن ابتسامة طمأنة، لم يعرف أحد لمن يوجهها.

كانت ديكا قد كتبت في مقدمة موسوعتها: خلاصة نباتات غرب يوركشاير بقلم ريبيكا إنغلاند؛ وتحتها رسمت نرجسة برية وأتقنت تلوينها بالأصفر والأخضر. أمعنتُ النظر في النرجسة، فيما أستوعب كلمات سيد إنغلاند، واتضح لي فورا أمران: أن ديكا ستكون تعيسة جدا في المدرسة، وأن إبعادها هو نتيجة شيء لم أحسن فهمه. أرسلت نظرة خاطفة إلى السيدة إنجلاند، والتي تجمد وجهها كقناع.

ساد صمت مروع. ثم قالت ديكا بصوت خفيض: "ومتى سيمكنني العودة إلى المنزل؟"

"سوف تعودين إلى المنزل في عيد الميلاد المجيد."

"وبعدها؟"

أمال والدها رأسه. "رباه، تريدين العودة إلى المنزل من قبل حتى أن تذهبي. ظننتكِ ستكونين سعيدة قليلا بهذا الخصوص. فكري في كل الصداقات التي ستصنعينها والأمور التي ستتعلمينها. ستعودين إلينا هانم صغيرة، كاملة المؤهلات."

قالت ديكا بصوت عال مفعم بالعاطفة: "ألا يمكنني البقاء هنا؟ لا أريد الذهاب إلى المدرسة."

"جميع الصغار يحبون الذهاب إلى المدرسة! ودادة ماي تشجع هذا، أليس كذلك؟ كان تعليمكم هو أول الأمور التي سألتني عنها. لا بد أن أعترف أن النقاش تركني خجلا من نفسي."

استدارت ديكا نحوي، بشعور متساوٍ من الذهول والخيانة. لم أتحمل تعبيرات وجهها.

"أعترف أني ووالدتكِ قد أهملنا تعليمكِ. لأن الفتيات في زماننا ببساطة لم تتلقين تعليما، لكن الأمور أضحت مختلفة الآن. إنها فكرة والدتكِ، وأراها فكرة ممتازة."

سحب علبة ثقاب من جيبه، ثم السيجار المحتوم. وبقيت عينا السيدة إنجلاند في الأرض.

"أخبريها، يا ليليان، ما قلته لي."

ورفعت السيدة إنجلاند أنظارها لأول مرة نحو ابنتها. "تمنيتُ لو أنني ذهبت إلى المدرسة وأنا صغيرة."

سادت عدة ثوان من الصمت، لم تقطعها سوى تكات ساعة المكتب.

"ماذا تحملين؟" هكذا سأل سيد إنغلاند، وهو يومئ برأسه تجاه حجر ديكا.

همستْ: "إنه كتاب، يا بابا."

"هلا أريتني؟"

كانت الطفلة متسمرة في مكانها؛ فوضعته بين يديها وأنهضتها برفق. سارت بحركات متيبسة إلى والدها وأعطته الكتاب.

"خلاصة نباتات غرب يوركشاير، ها؟ يبدو مثيرا للإعجاب." تصفَّحه بسرعة ثم مدَّه إلى زوجته. "انظري إلى هذا، يا ليليان." بدا متوترا الآن، وهو يسحب أنفاسا متتالية من سيجاره. راقبته مُتعاطفة: كان أبا صالحا، يبذل أفضل ما لديه من أجل ابنته. وكان بإرسالها إلى المدرسة، يقدم لها هدية أغلى من أي جوهرة أو مهر. وهذا المنزل السعيد الذي لا ترغب في مغادرته إنما هو بفضله. أخبرتُ نفسي أن أنانيتي هي التي جعلتني مهجورة بهذا الشكل. ليت كان بوسعي قول شيء لمواساة ديكا، ومواساته، كليهما، لكني أُرغمت على الجلوس صامتة، قلقة من تخلف ديكا الكبير عن بقية التلميذات في المدرسة.

عبرت السيدة إنجلاند الغرفة لتتناول منه الكتيب، ووجهها خال من التعبير بصورة تدعو للاستغراب. راقبتها وأنا أفكر كم هي أحيانا عديمة الشعور، وكم هي بعيدة عن أبنائها. هل صعب عليها أن تحتضن ابنتها؟ أن تخبرها أنه لا يوجد ما تخشاه؟ كنتُ قد حاولتُ جهدي ألا أحكم عليها، لكني لم أستطع منع نفسي هذه المرة. ثم وكأنها استشعرت ذلك، رمقتني بنظرة سريعة، وبنفس السرعة أبعدتها.

"سوف تذهبين بعد ظهر الأحد." بدا سيد إنغلاند مُتحررا بعودته إلى شئون التنظيم والإعداد. "يستغرق الطريق إلى ريبون بضعة ساعات، تختلف حسب حالة الجو."

قالت ديكا: "لكننا لم نكمل بعد ساحر أوز العجيب. وهناك حفل زفاف بليز وسيد بوث."

"أنا واثق أنهم سيدخرون لكِ نصيبا من الكعكة."

وخزت الدموع أنفي، ورمشتُ لأمنعها من الانهمار. تذكرتُ أختي، وكل الجدالات التي خضتها مع أمي لتعليمها. كم مرة قاومتُ رغبة شديدة في كتابة كل ذلك داخل خطاب لاذع عندما شعرت أن إلسي وحيدة ومثبطة. تذكرتها وهي تكشط الموقد وتقشِّر الخضار، ومستقبلها ينهار فوق رأسها كسقف حجرة. حاولتُ تصورها شابة، جالسة على مكتب أنيق وأمامها آلة كاتبة، تحاول جهدها في نقر مفاتيحها "بأصابعها الخدَّاعة"، كما تسميها، وجعلني هذا أرغب في البكاء.

يأتي الأحد بعد خمسة أيام. تخيلتني أقفل صندوق أمتعة ديكا وألوح لها مودعة عند الباب، وانقبض شيء داخلي. تجاهلته، واعتدلتُ أكثر في جلستي.

أعادت السيدة إنجلاند الكتيب إلى ديكا. وكل ما قالته: "إنه جيد جدا."

أخذته ديكا، وارتجفت إلى جانبي. فاقتربت منها وأحطتها بذراعي.

قلت: "أخبرتكِ أنه سيعجبهما."

قال سيد إنغلاند: "يجب أن أذهب للعمل." تحرك مارًّا بنا خلال الصمت المطبق، وخلفه دخان سيجاره. حامت السيدة إنجلاند قرب البيانو وانتظرت حتى انغلق الباب.

ثم قالت: "سوف تقضين وقتا ممتعا هناك. وتتعلمين أمورا كثيرة."

ازدردت ديكا ريقها، ودلكتُ أنا مؤخرة عنقها الصغيرة.

"ستصحبكِ دادة ماي للطابق العلوي الآن."

أجبرتُ نفسي على النهوض ومددتُ يدي، التي أخذتها ديكا بصورة آلية. كان جلدها باردا، فضغطتُ أصابعها وقدتها خارج الغرفة. ثم ونحن نصعد الدرج قالت: "كتابي."

"سأذهب لإحضاره. اصعدي أنتِ."

كانت السيدة إنجلاند جالسةَ على كرسي البيانو، مائلة بجذعها للأمام. وقد استندت بمرفقيها على ركبتيها، وأمسكت رأسها بين يديها. وعندها لاحظتُ أنها نزعت ضمادتها؛ فوجدتُ دائرة كاملة قد انطبعت على ظهر يدها اليمنى أسفل الخنصر.

ترددتُ في الدخول. كان كتاب ديكا يستقر على الأرض جوار الأريكة اليابسة الصغيرة.

رفعتْ يديها ببطء عن وجهها. فوجدتُ بشرتها حمراء ومرقطة، وخداها مبتلان. تمعَّج فمها قليلا، وبدت شبيهة بابنتها في صورة أزالت غضبي، وجعلتني أرغب لا إراديا في مواساتها. أسرعتُ إليها وجثوتُ عند قدميها. حاولتْ تهدئة نفسها، فلم تصدر صوتا من أي نوع، وضغطتْ على خديها براحتيها المبسوطتين وكأنها تحاول إعادة دموعها إلى الداخل.

"لا تبكي، يا سيدتي،" قلتها، وأنا أقدم لها محرمة نظيفة، رغم ارتباكي لمدى حزنها. ألم تكن تلك فكرتها؟

أخذتْ المحرمة، فجففت بها عينيها وتمخطت. ثم نهضت، وهي تسوي شعرها وتمسد تنورتها، وتركتني أتعثر في قيامي من الأرض فيما خرجتْ مسرعة من الغرفة.

***

كانت ديكا شديدة الانفعال. جلستُ على سريرها وهي تبكي لساعة، فمسحتُ وجهها ومسَّدتُ على شعرها. بكت غزيرا حتى خشيتُ أنها قد تكون مريضة. بقيت ميلي جوارنا تراقب المشهد بتعابير جادة، وجلس تشارلي في سريره. ظنت ميلي أن شيئا فظيعا قد حدث وقطبت جبينها في حيرة عندما أخبرتها سبب عناء أختها.

"لا أريد أن أذهب! لا أريد أن أذهب!" كررت ديكا من بين دموعها.

هدأتها ووشوشت لها، محاولة تشجيعها فيما تبكي وترتجف مُغرقة محرمتي بالدموع. "سوف تمر الأسابيع الأولى بسرعة، ثم لن تعودي راغبة في العودة إلى المنزل! سوف تقضين وقتا رائعا وتنسين كل شيء عنا. تستطيعين أخذ رسوماتك وتيدا. وفكري في عدد الأصدقاء الذين ستكونهم تيدا مع دباديب البنات الأخريات! ستحظين بمتعة كبيرة. وسوف أكتب لكِ كل أسبوع، وأرسل لكِ الأشياء التي تحبينها: مشروب السارسابيلا والكرز المحلى، واللوز، وكل مجلاتك. يمكننا الذهاب إلى القرطاسي غدا وشراء كل كتبكِ وأقلامكِ الرصاص. ما رأيك؟"

هدأ البكاء أخيرا، وفي الوقت الذي صعد فيه سول من درسه، كانت تجلس في فراشها.

"ما كانت تلك الضجة بحق السماء؟" هكذا طالب وهو يلقي بكتبه. "لم أستطع سماع سيد بوث إلا لماما."

"سوف تذهب آنسة ديكا إلى مدرسة في ريبون."

"مدرسة؟ ظننتني سأذهب أولا!"

"ديكا أكبر منك."

"هل ستذهب مكاني؟"

"كلا بالطبع. ستذهب عندما تبلغ العاشرة."

ثم تتابعت أسئلة سول التي حرت في جوابها: كم فتاة ذهبت إلى هناك؟ ما الدروس التي ستتلقاها؟ هل سترتدي قبعة؟ وهكذا، حتى لتمنيتُ أن أندس أيضا في فراشي.

***

كنتُ في عمر ديكا عندما جاء دكتور بايك لأول مرة. في مساء شتوي؛ حيث أغلق المحل ورُفع العشاء. أوى أصغر ثلاثة فينا إلى الفراش، وكنت أنا أطيل بنطال آرتشي؛ أضحت سرعة نمو إخوتي أكبر من قدرة إبرتي على الخياطة. كان المطبخ دافئا من حرارة الموقد، وإلى جانبي شمعة مشتعلة. جلس روبي على الطرف المقابل من الطاولة، يلعب في ساعة وجدها في كومة قمامة، في محاولة لتشغيلها مرة أخرى. دق الباب الخارجي، ونزلت أمي لتجيبه. صعد الدرج، وخلع قبعته وألقى تحية المساء على الجميع، وكان يمسك إلى أحد جانبيه حقيبة كبيرة لامعة بقفل ذهبي. أنَّت ألواح الأرضية وهبطت تحت ثقله، وخرج أبي من غرفة النوم، وهو يتنحنح. قميصه نظيف، وقد صفف شعره بمشط مبلل.

قال أبي: "مرحبا، يا دكتور."

وحينها أنزلتُ إبرتي. لم يزرنا طبيب من قبل سوى مرة واحدة منذ سنوات عندما أصيب تيد بالنكاف [10] . فانقطعتُ عن المدرسة لرعاية إلسي فيما اعتنت أمي به؛ وكان دوائه باهظا حتى أنها احتفظت به فوق صوان الملابس بعيدا عن أصابعنا الطائشة.

وضع دكتور بايك حقيبته البراقة على الطاولة.

قالت أمي: "روبي، رابي، اذهبا إلى الفراش."

"لكني لم أنتهي من خياطة-"

"أكمليها صباحا."

كانت غرفة النوم مظلمة، واستكنتُ إلى جوار إلسي، الرضيعة آنذاك، وقد رقدت على هيئة نجمة. بقيتُ مستيقظة، أنصتُ إلى أصوات الكبار الخافتة، والمشحونة بالفزع. عانى آرتشي من سعال خفيف، لكنه ليس أسوأ من المرات السابقة؛ لم يكن أي منا مريضا، وجميعنا نائمون، لذلك علمت أن دكتور بايك لا بد حضر من أجل والدي. لكنهما يبدوان بخير أيضا. ربما هو مرض خفي، صامتا كالطاعون، أو حتى الجذام، والذي قرأنا عنه في الكتاب المقدس بالمدرسة. مضى زمن قبل أن أسمع حركة الكراسي، وصرير ألواح الأرضية، وصوت انغلاق باب الشارع في الأسفل. حدقت في الظلام، وقلبي يخفق. لم يتبادل أبي وأمي الكلام من بعد مغادرة الطبيب، وسمعت ما دل على ذهابهما إلى الفراش: أمي تخلع حذائها، وأبي يضع ساعته على الخوان.

10- معروف أيضا بالْتهابُ النَّكَفيّة الوَبائيّ، هو مرضٌ فيروسيٌّ يسبّبُهُ فيروسُ النُّكاف . قد يُسبِّبُ انتفاخاً وأوجاعاً في الغُدد اللُّعابيّة، وخاصةً في الغُددِ النّكفيّةِ الموجودةِ بينَ الأُذُنِ والفكِّ. (ويكيبديا)

عـاد دكتـور بايـك بعـد بضعـة أشـهر. كان الجـو ربيعـا حينهـا، وكنـت فـي الشـارع ألعـب الحجلـة. لـم أره يدخـل لكنـي رأيتـه يخـرج؛ وأول مـا لاحظتـه كانـت حقيبته. ركضت إلى الطابق العلوي وأنا أخشـى الأسوأ، لأعرف ما الخطب. كان أبي جالسا على الطاولة، وأمي تستند إلـى الخـوان، عاقـدة الذراعين. وكانا قد سـمعا وقـع قدمي على الدرج.

سـألت: "لمـاذا كان الطبيب هنـا؟"

لا أحد منهما استطاع النظر نحوي.

***

"قهوة؟"

جلستُ وسـيد إنغلانـد فـي غرفـة المكتـب قبـل يـوم مـن مغـادرة ديـكا للمدرسـة. مـر الأسـبوع فـي زحمـة من توضيـب الأمتعـة والترتيب، وكانـت أصابعي توجعنـي مـن الخياطـة. لـم أكن أحب القهـوة، لكني مع ذلـك قبلـت فنجانـا. كان سـيد إنغلانـد قـد طلب مني لقـاءه حالما أنهي مهامـي الصباحيـة الشـاقة. جلسـت ديـكا بالرضيـع، لكنـي تلهفتُ علـى العـودة إلـى الطابق العلوي: فقـد اشـتقت إليهـا بالفعل، من قبل حتى أن ترحل.

"كريمة؟"

هـزت رأسـي. "لا، شـكرا لك."

كانـت غرفـة المكتـب صغيـرة ومليحـة، مؤثثـة بألـوان بنفسـجية وقرمزيـة داكنـة. كانـت مظلمـة وعطـرة، لا يضيئهـا سـوى مصبـاح أخضـر، مثـل وكـر عرّاف. احتلت خزانة كتـب واجهتها زجاجية الجدار

المواجه للمدفأة. وتحت النافذة مكتب من خشب الجوز بحجم بيانو، تبعثرت فوقه أوراق وثقالات، مع أن الغرفة خلت من النسيم العابر؛ حيث أغلقت النافذة وامتلأ الجو بالدخان. كان حيزا ذكوريا، احتله سيد إنفلاند طبيعيا.

اتكأ على ذراع كرسيه. "حسن، يا دادة ماي. مضى شهر على عملكِ معنا، وقد فهمتُ من مديرتكِ أن التقييم جزء من الإجراءات. هكذا قالت لالسيدة إنجلاند في خطابها الذي أرسلته في الأسبوع الماضي."

تذكرتُ المنازل الفخمة في ميدان بيمبريدج، وسيل المربيات المتواصل من وإلى مبنى رقم عشرة، شبيهات بطائر الوقواق في ساعة تدق في موعدها. كم بدا كل ذلك بعيدا. حينها شعرتُ أن أربعة أطفال هو عدد كبير من بعد الصغيرة جورجينا. وها أنا الآن أخسر واحدا منهم، وأشعر أن ثلاثة لا يكفونني.

"بداية، فنحن راضون تماما عن أدائكِ، وهذا ما سنبلغ به آنسة سيمبسون."

"شكرا لك، يا سيدي."

"هل لي في سؤال يتعلق بالوكالة؟"

"وكالة نورلاند؟ سأجيب عنه قدر استطاعتي، يا سيدي."

"هل تعرفين النسبة التي يحصلون عليها من راتبك؟"

"ما أعرفه أنها نسبة صغيرة. لكني لا أعرف قدرها تحديدا."

"أليس منطقيا أن تحصلي على راتبكِ كاملا؟ تجاوز الوسيط إن صحَّ التعبير؟"

رمشتُ في مفاجأة. "تعني أن أترك الوكالة، يا سيدي؟"

"أنا رجل أعمال، وأنتِ ابنة رجل أعمال. دوما أفكر في وسائل ملتوية لجمع المال. انها واحدة من أسوأ عاداتي؛ وأخشى أني لا أستطيع تمالك نفسي. سوف يزيد دخلكِ الربع سنوي، ألا توافقينني؟"

"لا أظنني أستطيع فعل هذا، يا سيدي."

"لا تستطيعين، أم لا تعزمين؟" تقوس شاربه في ابتسامة. "فكري في الأمر. إنني أقترحه لمصلحتكِ فحسب."

أومأت برأسي.

"دادة ماي، تبدين مُستاءة كثيرا. تأكدي أنني لا أقترح أن تفعلي شيئا يخالف رغبتك. ابقي مع الوكالة إن كان هذا ما يرضيكِ. كل ما هنالك أنني أذكر حديثكِ عن شقيقة مريضة. كم عمرها؟"

"أحد عشر عاما، يا سيدي."

"وما علتها بالضبط؟"

"عمودها الفقري، يا سيدي. إنه يؤثر على حركة يديها وساقيها. أحيانا تجد صعوبة في المشي وحمل الأشياء."

ضيَّق عينيه في تعاطف. "هل تتألم؟"

"هي تعاني، لكنها متماسكة."

تنهد وحرك صحن فنجانه نصف بوصة إلى اليمين. "هو سؤال حساس -واعذري لي تطفلي- لكنني... أفترض أنكِ تساهمين بجزء في مصاريف عائلتك؟ فواتير الطبيب، وما إلى ذلك؟"

"أجل، يا سيدي."

"بكم تساهمين من راتبك؟"

تضرَّج وجهي وخفضتُ بصري إلى أصابعي. "نصفه، يا سيدي."

أومأ برأسه عبر المكتب وأخذتُ فنجان قهوتي إلى حجري.

"ويُفترض أن تتسلمي راتبكِ الأول في..."

"الأسبوع القادم، يا سيدي."

وضع مرفقه على خشب المكتب المصقول ومسد ذقنه مُفكِّرا.

"لم أرسل إذن الصرف بعد. هل سيساعد أن أزيد راتبكِ خمسة شلنات في الشهر؟"

فغرتُ فاهي، وانكب الفنجان في حجري. وبللت القهوة مئزري، فوضعتُ صحن الفنجان على المكتب لأجفف البقعة. "أنا... معذرة... لم أكن..."

"اتفقنا إذن."

"سيد إنغلاند، أنا..."

"إنه ليس محلا للنقاش." وابتسم.

"شكرا لك، يا سيدي. كلمات الشكر لا تكفي."

"شكرا لك تكفي وزيادة."

نهضتُ لأنصرف. انكفأت الوسادة الحرير القرمزية التي كنت أتكئ إليها على المقعد، فأقمتها. لتنكفئ مرة أخرى، ومرة أخرى أقمتها. ثم تكرر الأمر، ومعه ازداد شعوري بالحر والتوتر، وبعد عدة محاولات تمنيتُ لو أقذف اللعينة إلى الجدار. وفي هذه الأثناء، راقب

سيد إنغلاند، باستمتاع، من خلف مكتبه. وفي المحاولة التاسعة لتسويتها، أخذتها بي الرحمة وثبتت في مكانها.

قال سيد إنغلاند: "مكانك. كلب مطيع." وابتسم ابتسامة عريضة، ظهرت معها أسنانه بيضاء كاللؤلؤ.

***

سرنا جماعة إلى بيت العربة، عائلة إنغلاند، والخدم وأنا، وخلفنا برودلي يجر صندوق ديكا في نقالة. كنتُ وديكا قد طبعنا عليها بأنفسنا ر. إنغلاند. انتهزتُ لحظة أدارت فيها وجهها، وأخذت هيربي من وسادتي ووضعته داخل صندوقها، تحت ثوب نومها. تلبكت معدتي طوال الصباح، ومع كل البهجة التي رسمتها على وجهي لأجل الصغار، عرفتُ أنهم شعروا بما في داخلي.

ودعها والدها ووالدتها، والدها في وقار وتماسك، طبع قبلة على شعرها الداكن، ووالدتها في تعب وإرهاق، وكأنه أمر فعلته مئات المرات من قبل. وفيما برودلي يربط صندوق ديكا، صعدتُ إلى جانبها. لوحت ميلي وسول بيديهما في ابتهاج، ونططت بليز تشارلي فوق وركها، وهي تلوح بمعصمه. سأغيب عن الصغار حتى وقت متأخر من المساء، وكنتُ قد علّمتُ والديْهم كيف يساعدانهم على النوم.

كنتُ قد نبهتُ ديكا ألا تتناول كل غدائها، وكنت محقة في ذلك؛ حيث تقيأت ثلاث مرات في الطريق إلى ريبون، وجلست شاحبة وبلا حراك حتى لكدتُ أظنها على وشك أن تمرض لولا أنني أعرف عن جيلي التوت الذي تناولته. أمضت الرحلة تنظر بصمت

من النافذة، ورأسها متكئ إلى إطارها الجلدي. كان يوما رماديا مع رذاذ مطر، وازداد الطقس سوءا في أرض البور، لكنها ثبتت نظرها على السماء الكئيبة وكأنها لا تراها. أشرت بإصبعي إلى أغنام في الحقول وطائرات ورقية تحلق في السماء، لكنها ظلت جامدة. تمنيتُ لو أملك شيئا من كلمات التعزية، أو وعدا بموعد لقاءنا القادم، لكنني فرَّغتُ نفسي من كل إيجابية، ولم أرغب في التعهد بشيء لن أفي به. عرفتُ أنني سأجدها مختلفة عندما أراها في المرة القادمة وخفته بالفعل. الأخريات ستشكلنها، ستؤثرن عليها؛ ولن تعود قابلة للتشكيل مرة أخرى.

كانت مدرسة سانت هيلدا للبنات بناء رماديا مزودا بأبراج يحيط به سور عال ببوابات معقدة الزخارف. استقبلتنا سيدة موريس، مديرة المدرسة، عند الباب. كانت في الخمسينات أو الستينات من عمرها، ترتدي فستانا أسود قديم الطراز ودبوس زينة على شكل صليب عند عنقها. كانت الردهة صامتة ومعتمة، مفعمة بعطر الزنبق وملمع الأثاث. وتماثيل ملائكة صغار تحد طرفي سلم عريض في المنتصف، وتشرف عليه نافذة ضخمة بزجاج معشَّق عليه صورت عليه مشاهد متنوعة من الكتاب المقدس. أحاطت بنا أبواب غامقة تؤدي إلى مكان ما، ومن بعيد دق جرس ما.

"مرحبًا بكم في سانت هيلدا،" قالتها سيدة موريس بصوت خافت، وكأننا في كنيسة. "أعتقد أنكِ المربية الخاصة بعائلة إنغلاند؟

هل أقدم لكِ مشروبا؟" ألقيتُ نظرة فاحصة على ديكا، التي وكأنها استحالت في العتمة إلى مجرد عينين داكنتين. ومن رحمة السماء أن مريولها كان نظيفا؛ كانت متبصرة في إخراج رأسها من النافذة عند التقيؤ.

"كلا، شكرا لكِ، يا سيدتي. تجدر بي العودة."

"حسن. حيث أن الآنسة الصغيرة إحدى طلبتنا الصغار، فسوف تمكث مع طالبة أكبر سنا، نطلق عليها عمة. لو تسمحين بمرافقتي، يا آنسة. هل هذه كل أمتعتك؟"

كان برودلي قد انتهى من وضع أغراض ديكا في الردهة؛ الصندوق، إضافة إلى حقيبة سفر صغيرة وعلبة قبعات لملابس يوم العطلة. بجانب هيربي، كنتُ قد وضعت بطاقتها بريدية المصورة للشلالات، وكيسا من مشروب السارسبريلا وآخر عدد من مجلة عالم البنات.

لم يعد هناك سبب لبقائي، فعانقتُ ديكا بقوة. "اكتبي لي في أي وقت تحبين. وسوف أكتب لكِ،" كان فمي ملتصقا بشعرها. "سنؤجل قراءة ساحر أوز العجيب إلى حين عودتك في الأجازة." رتبتُ شعرها وحللتُ أول زر في عباءتها لمجرد لمسها، وأنا لا أعلم متى سيلمسها أحد مرة أخرى.

همست: "هل تعرفين العنوان؟"

أجبتها بنعم، وبأنني سأكتب لها مرة في الأسبوع على الأقل، في وقت مختلف عن والديها، حتى تصلها الخطابات كل على حدة.

ثم غادرتُ، بعد أن شكرتُ سيدة موريس وخرجتُ إلى ضوء النهار الرمادي. وكان برودلي قد أخذ مكانه عند المقود.

"كل شيء على ما يرام، يا دادة؟"

"أجل، شكرا لك، يا برودلي."

"إنها تؤذن بالمطر. ستستغرقنا العودة زمنا أطول."

صعدت إلى العربة برائحتها اللاذعة، وداخلي ضيق أكبر مما يحق لي. فالبنات الصغيرات تذهبن إلى المدرسة منذ قديم الأزل: حيث يتعلمن العزف على البيانو وتنسيق الزهور والتحدث بالفرنسية وغيرها من الأمور اللطيفة واللائقة التي تجعل منهن زوجات وبنات صالحات. مؤهلات، حسب تعبير سيد إنغلاند. سوف تحظى بصديقات، قد تدعينها إلى منازلهن الريفية في الصيف، وقد توسِّعن عالمها الصغير. كل أب وأم في شارع لونغمور بشققه المكدسة مثل علب الكبريت فوق المحلات كانوا ليقدموا أفضل شمعداناتهم ليرسلوا أبناءهم إلى مدرسة مثل سانت هيلدا؛ ولن يستوعبوا الدموع والإذعان. جلستُ في مقعد ديكا، الذي كان دافئا بعد، وأرحتُ رأسي على جدار العربة الجلدي وجعلتُ أشاهد السماء طيلة الطريق إلى المنزل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الحادي عشر

صدرت الضجة القوية من عند السلم وقت الفطور. كنت أقطف عنبا لتشارلي عندما أجفلنا صوت قوي، أشبه بخزانة تسقط من علوٍّ كبير. أنا وسول وميلي حدق بعضنا في الآخر، وطلبتُ منهما البقاء، لكنهما لحقا بي إلى الباب. كانت فسحة السلم حطاما، فتناثرت فوق الأرض بقايا أوانٍ خزفية. تصاعد بخار الشاي من الأخاديد بين بلاطات الأرضية، وتلألأ الزجاج وارتجف البيض في قطع تشبه اللؤلؤ. ووسط كل هذا كانت بليز ترمي كل شيء في صينية فضية.

"الباب اللعين مغلق بالمفتاح!" هكذا صرخت، وجثوتُ إلى جوارها وساعدتها في إزالة أسوئها حالا. "دخلتُ بجانبي، ظننا مني أن الباب مفتوح، وفقدتُ توازني." تضرجت وجنتاها من الحرج، وكانت يدها اليمنى تنزف.

"كفى، سأقوم بذلك. لماذا هو مغلق بالمفتاح؟"

نادت السيدة إنجلاند من وراء الباب: "بليز؟"

دارت مقلتا بليز في محجريهما وقالت بصوت عالٍ: "لا يمكنني الدخول، يا سيدتي. سيكون عليكِ فتحه."

"أنا لم أغلقه." وشددت على أول كلمة.

"حسنا، أنا لا أملك مفتاحا لغرفتك."

كان وجهان شاحبان يراقباننا من جناح الأطفال.

قلت: "سول، هلا تحققت من وجود والدك في المنزل؟"

"لماذا؟"

"افعل ما أقوله، من فضلك."

انطلق يقفز درجات السلم فيما غرفتُ وبليز الخزف المكسور في مئزرينا.

سألت: "هل الجرح بالغ؟"

"كلا."

"سأحضر لكِ شيئا من خزانة الأدوية."

رمقتني من زاوية عينها. "شكرا" وبعد لحظة، "هل تلقيتِ تدريبات طبية في تلك المدرسة؟"

"نتمرن ثلاثة أشهر في جناح الأطفال بالمستشفى. والباقي معلومات نظرية من إصدارات دار كاسل ومن المجلات، وما إلى ذلك."

"أفترض أنكِ يجب أن تجيدي القراءة لتتعلمي الطب." في صوتها امتعاض، لكنه امتعاض عام وليس ذلك الذي اختصتني به في العادة.

أزلنا أكثر الأجزاء سوءا وأفرغنا مئزرينا في منشفة أحضرتها بليز من خزانة تهوية الثياب. سألت بصوت أخفت من رنين الشظايا الخزفية: "لماذا بابها مغلق بالمفتاح؟"

بدت بليز مضطربة. وبعد لحظة صمت قالت: "إنه يحبسها ليلا."

"لماذا؟"

رفَّت عيناها باتجاه باب الغرفة، وتحدثت همسا. "كان قد وجدها تتجول ليلا."

"وما الخطأ في هذا؟"

"مرة كادت تشعل حريقا في المطبخ. ومرة أخذت الرضيع إلى الطابق الأرضي أثناء نوم سيدة نانغل نائمة. وفي مرة أخرى وجدها... وجدها في الغابة. إنه يخشى أن تؤذي نفسها."

تذكرتُ أثر الحرق الدائري أدنى خنصرها.

وفي تلك اللحظة نطَّ سول السلالم اثنتين اثنتين. وهتف: "بابا في المصنع."

"شكرا لك. والآن أكمل تناول فطورك."

"لستُ جائعا."

"سول." وبتنهيدة ذهب. وهمست: "ماذا كانت تفعل في الغابة؟"

لوت بليز قسماتها. "من يدري؟ دل مظهرها أنها كانت تمشي: غطى الوحل فستانها. لم تقل لي شيئا ولم أسأل."

كنا نقف جوار الغرفة التي يبدل فيها سيد إنغلاند ملابسه. كان الباب مردودا، ومن خلاله رأيت الستائر معقوصة، والسرير الضيق مرتبا بأناقة. كان باب غرفة زوجته جوار النافذة. وبجانب السرير استقرت كومة كتب على كرسي بدون مسند، وعلى قمتها وُضع كأس بلوري كثقالة ورق. وقبل أن أدرك ما أفعله، دخلتُ الغرفة ووجدت نفسي أرفع زجاج النافذة، متنشقة رائحة البراندي.

"ماذا تفعلين؟"

"قد يكون المفتاح هنا."

على السجادة سهَّارة مسودَّة تحتاج إلى تنظيف. ومعطف مشقوق الذيل علق على باب الخزانة.

"لا يمكنكِ الدخول بهذه البساطة إلى غرفة السيد."

"ولم لا؟ السيدة محبوسة؛ ولا بد أن المفتاح هنا في مكان ما."

"سيتعين على إحدانا الذهاب إلى المصنع وإخباره."

"لا يمكنني ترك الصغار."

تبادلنا التحديق، ثم تنهدت بليز وحلَّت مئزرها. "يبدو أنني سأذهب إذن."

بعدما غادرت، ألقيت نظرة أخيرة في أرجاء الغرفة الضيقة قبل أن أخرج إلى فسحة السلم. انسحق الزجاج تحت قدمي، ووقفت لوهلة، وحدي مع لوحات الأشخاص. كان باب السيدة إنجلاند سورا من الصمت.

قلت: "السيدة إنجلاند؟"

"ماذا؟"

كان صوتها أقرب بكثير مما توقعت، فتراجعتُ خطوة.

"ذهبت بليز لاستدعاء السيد."

سمعتُ حركة من وراء الخشب، وحفيف تنورة. اندفع الهواء من ثقب المفتاح، يدغدغ يدي كريشة. ثم ساد السكون، باردا وثقيلا مثل بحيرة.

xxx

في آخر يوم لبليز، خبزت سيدة مانيون كعكة ليمون إسفنجية، وتجمع أهل البيت في المطبخ لتوديعها. أكلنا واقفين في أطباق كريستالية صغيرة، ووزعت سيدة مانيون كؤوس نبيذ على الكبار.

أخذتُ واحدا لكني لم أشربه. وألقى سيد إنغلاند كلمة وداع مطولة، مازح فيها بليز بقوله أن زوجة المعلم يلائمها أكثر بكثير من الخادمة، وضحك الجميع، ومعهم بليز. هوَّت وجهها بمنديل مائدة، وقد تورد من تركز انتباه الجميع عليها. أزلتُ بقايا الآيس كريم من على وجوه الصغار وأخبرتهم ألا مزيد، لكن ما انفك سيد إنغلاند يضع لهم كورا صغيرة في أطباقهم مع غمزة. أنصتت السيدة إنجلاند إلى قصة من سيدة مانيون وعلى وجهها ابتسامة شاردة. وقفت إميلي بجانبها، وهي ترسل نظرات متوترة إلى بن السائس، حفيد برودلي. كان أكبر من إميلي بعام أو عامين ويتحدث بصوت حاد، وينام فوق الاسطبل مع جده. في كل مرة يأتي إلى المنزل يشبه ذلك جمرات تُلقى في نار خاملة؛ فتوهجت وبرقت عيناها نحوه، فيحار إلى أين ينظر.

ثم أعادتني سيدة مانيون للواقع عندما قالت: "دادة ماي. ألا تريدين الذهاب لإحضار هدية الصغار لبليز؟"

"أنا سأحضرها!" هكذا صرخت ميلي، وضحك الجميع. اصطحبتُ تشارلي معنا إلى جناح الأطفال، حيث باقة زهور برية انتصبت في مزهرية خزفية. كنتُ والصغار قد قضينا العصر في قطفها، وجمعنا حزمة جميلة من الأوركيد والإكليل الأبيض، تتخللها أوراق سرخس مصقولة وأغصان آس. ربطتها بشريط دانتيل أخذته من أحد أثواب تشارلي القديمة. قدمته ميلي إلى بليز، التي أضاء وجهها سرورا. لم تكف عن الابتسام طيلة الليل؛ ومعه تغير وجهها تماما، فتحولت وجنتاها إلى تفاحتين ناعمتين، وأشرقت عيناها الداكنتان.

قالت السيدة إنجلاند: "تمنياتنا بزواج مديد وسعيد، يا بليز.

شكرا لكِ على السنوات التي خدمتنا فيها، وكل ما فعلته لأجلنا."

"شكرا لكِ، يا سيدتي."

"حظا سعيدا غدا. سأصعد الآن إلى غرفتي، إن أذنتِ لي."

قالت بليز: "بالطبع. أراكِ في الكنيسة. لقد كويتُ ثوبكِ. وهو معلق في خزانة الملابس."

فتحت السيدة إنجلاند فمها، ثم أغلقته وابتسمت. "شكرا لكِ. لا أظنني سآتي غدا. فلستُ على ما يرام قليلا."

"أوه، لا أصدق أنكِ ستفوتين حفل زفافي!"

قال سيد إنغلاند: "لن يحدث بالطبع. ستكون العائلة كلها هناك."

"عدا آنسة ديكا." قالتها بليز وقد عبست بصورة درامية. "كيف يجري استقرارها في المدرسة؟"

قال سيد إنغلاند: "على نحو ممتاز."

لم تكاتبني بعد، مع أنني أرسلتُ لها خطابا في اليوم التالي لرحيلها. "هل كاتبتك، يا سيدي؟"

قال سيد إنغلاند: "ليس بعد. لكن الناظرة فعلت."

بقلق ساورني، راجعتُ الأشياء التي حزمتها في صندوقها. لقد وضعتُ أقلامها الجديدة وورق الرسائل، ودفتر طوابع بريد. قلتُ لنفسي أنهم ربما لا يستطيعون كتابة الخطابات إلا في مواعيد محددة، وإن كانت خمسة أيام قد انقضت.

غادرت السيدة إنجلاند المكان في لحظة ما، وتأرجح الباب دون صوت خلفها.

قالت سيدة مانيون: "حسن. سأنظف المكان ثم نذهب إلى

الحانـة، اتفقنا؟"

شـرع الباقـي يجمعـون الأطباق وكؤوس النبيذ، وأخرجت سيدة مـانيـون برطمـان الصـابـون السـائل وسـكبت بعضـه في الحوض. مـلأت إبريق مـا للصغـار وتنـاولتُ يد ميلي اللزجة لأقودهم إلى فرشـهم.

هتفت سيدة مـانيون من المطبخ: "هل ستأتين، يا دادة ماي؟"

أمسـك لنـا سـيد إنغلانـد البـاب، فأوقفنـي النـداء وأنـا تحـت ذراعـه. "إلـى أيـن؟"

"إلـى حانـة الفوانيـس الثلاثـة. سنحتسـي جعـة ليمـون احتفـالا ببليـز قبـل زفافهـا غـدا. كأس واحـد فقـط، إن لـم تمـانعي."

"أوه، لا، لن آتي، لكن شكرا لكِ."

"لا ضـرر في كأس مـن جعـة الليمـون، يـا دادة مـاي، بعـد ذهـاب الصغـار إلـى فرشهم،" قالهـا سيد إنغلانـد. "ليت سيدة مـانيون دعتنـي."

"أوه، كفَّ عـن هـذا،" قالتهـا سـيدة مـانيـون وهـي تفـرك الأرض برغـوة الصـابـون. "أخبرتني بليز أن أدعوكِ." ولدهشتي كانت الكلمات موجهة لي.

"حقا؟"

ألقيت نظـرة خاطفـة علـى بليـز، وكانـت متكئـة علـى المنضـدة جـوار حقيبـة باليـة حـوت داخلهـا بطريقـة أو أخـرى متعلقـات ثمانـي سـنوات. اسـتغرقت فـي نقـاش عميـق مـع تيلـدا ولـم تسـمع.

"اذهبـي إلـى الحانـة،" قالهـا سـيد إنغلانـد. "ضعـي الصغـار فـي فرشـهم وسوف يعيدكِ برودلي مع تيلدا."

كان أمرا، غير مباشر، لكنه أمر. وأومأت برأسي.

"متى تذهبون؟"

أجابت سيدة مانيون: "عشرون دقيقة. سأنتهي من التنظيف هنا فقط."

تسكن سيدة مانيون في كوخ على أطراف البلدة وتسير كل يوم من وإلى المنزل. تقيم إميلي أيضا في منزلها، ما يعني أنه بدءا من الليلة ستنام تيلدا وحدها فوق ملحق المطبخ. لا أعرف هل تهتم أم لا، لكنني لم أعرف عن شخصيتها أي شيء قط.

التقت عيناي بعيني بليز ومنحتني ابتسامة سريعة، ثم عادت إلى حديثها. وضعتُ الصغار في فرشهم؛ غرق الرضيع في النوم بسرعة، مثقلا بالبوظة، وخلع سول ملابسه بينما أحمم ميلي.

سألتني: "إلى أين ستذهبين؟"

منذ رحيل ديكا، وهي تغمرني بالأسئلة. تركتها تنام في سريري أول ليلة، لما اشتاقت لدفء جوار أختها.

قلت: "الحانة."

"وما الحانة؟"

"إنه مكان يلتقي فيه الناس بعد العمل."

قال سول: "ويشربون الجعة."

قلت: "أنا لا أفعل."

سألت ميلي: "وما الجعة؟"

"مشروب يحتسيه الكبار."

"هل يمكنني تذوقه؟"

"الآنسات المهذبات لا تشربن الجعة، ولكن ربما يسمح لكِ

والدكِ برشفة عندما تكبرين."

قال سول: "لقد جربتها. إنها مريعة."

"حقا فعلت؟"

"نعم، مذاقها كمذاق ماء الصرف."

استمعتُ إلى حوارهما بذهن نصف شارد، قلقة نوعا، بشأن السهرة مع الخدم. فكرت في ادعاء الصداع أو التظاهر بأن تشارلي يرفض النوم، لكن أي عذر في هذه المرحلة سيضحى مكشوفا. ربما يحضر آخرون إلى الحانة، من أصدقاء ومعارف بليز، ممن سيرغبون في تبادل الأحاديث، كما سأضطر إلى العودة مع تيلدا في العربة. فيم سنتحدث بحق السماء؟ وماذا لو أرادت المكوث أطول، ولا أظن برودلي يقوم برحلتين لإعادتي ثم إعادتها، كما أنني لا أستطيع تركها وحدها في الحانة. ولا أستطيع الجلوس في صمت مع إميلي الكتومة والمتجهمة، والأصغر من أن تأتي معنا. آخ، لماذا دعتني سيدة مانيون؟ في نورلاند كانت الأمور أبسط بكثير، حيث انحصر التخالط بين الطالبات ولا مجال لذكر التدرج الوظيفي. أما بيريفال غاردينز، فلم يكن معي سوى كوك وإلين، واللذان لم يخرجا ليلا قط أو يقترحا أي نشاط اجتماعي. في أجازاتهم ذهبا للمتاجر، وكانت مكافأتهما فنجانا شاي في مقهى على الناصية.

راقبني الصغار أبدل ثيابي إلى الزي الأنيق الوحيد الذي أملكه: بلوزة بيضاء تحتاج إلى كبسها إنما عليَّ التجاوز عن ذلك، وتنورة صوفية لونها كحلي بزركشة سوداء وأزرار. شعرت باستغراب وأنا في ملابسي الشخصية. فمنذ مجيئ إلى منزل إنغلاند وأنا أرتدي

زي المربيات كل يوم، وتجاهلت الحصول على أجازتي فيما تبقى من يوم الأحد -شيء آخر لن يعجب سيم. لكن هذا المكان لا يشبه لندن في شيء، حيث بوسعي أن أتمشّى دون تمييزي. لم تمل نفسي إلى الجلوس وحيدة في غرفة الشاي بالشارع الرئيسي والانخراط في أحاديث مع النُّدُل والزبائن. الناس هنا ودودون أكثر من اللازم، ولم يتعودوا أن يهتم كلٌّ بشأنه. لم يلحظ أحد في منزل هاردكاسل أنني لا أحصل على أجازاتي، وإن فعلوا، فهم لم يتحدثوا عن ذلك. أو ربما ظنوا أنني أحصل عليها، وأن الصغار يشغلون أنفسهم لخمس ساعات فيما أقرأ كتابا.

وجدتُ سيد إنغلاند في المطبخ بعد. وقد خلع سترته وجلس في صدريته وقميصه، مُشمِّرا عن ذراعيه. "مستعدة لقضاء ليلة في البلدة،" قالها من وراء سيجاره. لم يكن لابتسامته أثر في عينيه، وكان يرمقني بنظرة سمَّرتني في الأرض. عبثتُ بحزام خصري وذهبت لأقف مع البقية، الذين بدلوا ثياب العمل بدورهم. وجدتني بالفعل أتوق لخلع قبعتي والصعود إلى ملاذي في جناح الأطفال بالطابق العلوي والقراءة في ضوء المصباح المرتعش، والصغار آمنون حولي.

كانت بليز في مزاجٍ حلو بسبب النبيذ ودسَّت زهرة في شعرها. "هل نذهب؟"

تبعتُ البقية عبر ملحق المطبخ، لكن سيد إنغلاند ناداني مرة أخرى.

سأل: "هل أغلقتِ جناح الأطفال بالمفتاح؟" فيما يهز سيجاره لنثر الرماد.

"نعم، يا سيدي."

أومأ برأسه. "استمتعي بوقتك."

***

قامت حانة ثري لانترنس جوار الجسر الحجري القديم في مركز البلدة، بسيطة التأثيث بأرضيات حجرية وجدران مكلَّسة. مع الفيضان كل عام جراء ارتفاع النهر وإغراقه المتاجر والأرصفة بمياه بنية جليدية، لذا لم يعطوا المظهر أهمية كبيرة؛ فهو مكان بسيط يحتسي فيه العمال مشروباتهم، وبضعة يطلبون النبيذ الفاخر والمشروبات الروحية المقترحة. وداخل الحانة، بار في المنتصف على جانبيه حجرتان أماميتان، وفي الخلف قاعة بلياردو ومخزن وساحة بعده. كانت هذه أول مرة لي في حانة، لكني وجدت المكان مريحا ومألوفا للغاية، بسقفه المنخفض وصوره المعلقة على الجدران. في الحجرة التي على اليمين جلس مجموعة رجال حول طاولة صغيرة، يضحكون ويتبادلون الصراخ. عرفوا بليز ودعوها، فخاضت وسط القبعات والسترات بحقيبة سفرها وزهورها، وهوت على حجر رجل يجلس على مقعد عريض. أدركتُ أنه سيد بوث، وشاهدتهما بذهول يتبادلان قبلة عميقة، وبليز تمسك بقبعتها، ساحقة الزهور بين جسديهما. انطلق دوي من التهليل والتصفيق، ونهض رجل أو اثنان ليفسحا لنا مكانا، فجلبا مقاعد بلا ظهر وكراسي من الأركان.

قدم لي شاب يرتدي قميصا وقبعة مسطحة مقعدا بلا ظهر

جانبه. وقبلت سيدة مانيون وتيلدا مقعدين بجانب آخرين، بابتسامة مرتبكة، وكلتاهما تشد سترتها وتسوي قبعتها. لم أعرف أن هكذا سيكون الحال، وأننا سنجلس مع رجال: رجال شبه سكارى. عرَّف الشاب الذي يرتدي قميصا نفسه بآلان شوكروس. كان بهيجا ومتورد الخدين، شعره أصفر فاتح ومفلَّج الثنايا.

قلت: "أنا روبي."

"هل أنتِ خادمة كبليز؟ كم لديهم هناك؟"

"كلا، أنا مربية الأطفال."

"مربية!" أثار هذا إعجابه. وفي تلك اللحظة، نهض سيد بوث لإحضار جولة مشروبات للنساء، فشق طريقه عبر السيقان والمقاعد تجاه الركن الذي أجلس فيه مع سيد شوكروس جوار المدفأة الفارغة.

"دادة ماي." صوته مسرور. "لم أتوقع رؤيتكِ هنا."

قلت: "ولا أنا كذلك." أمسك سيد بوث كأسا من البيرة.

"هل أحضر لكِ شرابا؟"

"لا، شكرا لك."

"يجب أن تشربي شيئا. كأس خمر؟ جعة ليمون؟

"احتسيتُ شيري بالفعل في المنزل."

"فليكن الشيري إذن."

ضحكت بليز على شيء ما.

"سيدة مانيون." أطبق سيد بوث يده على كتف الطاهية. "هل يثير اهتمامكِ كأس من البراندي؟"

زعقت سيدة مانيون. "أوه، براندي لا، يا سيد بوث، أشرب

فقط جعة ليمون خفيفة جدا."

"وتيلدا؟"

"كأس بيرة، من فضلك."

"هذه هي الروح المطلوبة."

ربَّت على ظهر سيدة مانيون ثم توارى خارج الغرفة. التفتُّ من جديد لسيد شوكروس، وعيني على الساعة فوق صدر المدخنة. سيعود برودلي في العاشرة، أي بعد ساعتين: وقت لا يُحتمل طوله. تدلى مصباح زيت من السقف، ومع كل التبغ والأبخرة المنبعثة من الجعة الدافئة، والرجال الذين يحتسون شرابهم متلاصقين، شعرت وكأنني في جوف سفينة. وتوجب عليَّ سؤال سيد شوكروس إعادة ما قاله.

"أقول، ما الذي تفعله المربية؟"

"هل لديك أطفال، يا سيد شوكروس؟" كنتُ قد لاحظت خاتم زواجه.

"نعم، صبي صغير. سيتم سبعة أشهر في الثلاثاء المقبل."

"حسن، أعتقد أن وظيفتي لا تختلف كثيرا عما تفعله زوجتك."

"ليتَ أحدا يأجرها مقابل ذلك،" قالها بنبرة استياء تواقة. "تتكلمين بلهجة غريبة. من أين أنتِ؟"

"برمنغهام."

"المدينة السوداء! تقدمت بطلب وظيفة في جريدة بوست منذ زمن."

"برمنغهام بوست؟"

"نعم."

هل أنت صحفي؟

"مراسل في هاليفاكس كورييـر، مثل جون." وأشـار إلى الرجل الذي يجلس على بعد مقعدين أو ثلاثة، ووجدت نفسـي أنظر إلى سيد لودين.

قال: "مرحبا مرة أخرى."

أجبتُ تحيته: "مرحبا."

"دادة ماي، أليس كذلك؟ لم تخبريني باسمكِ الأول قط."

"لم أفعل؟"

قال سيد شوكروس: "لقد أخبرتني به. ما قيمته؟"

سألني السيد لودين: "هل رأيتِ المقال؟"

"رأيته."

قـال سـيد شوكروس: "علينـا أن نمـدح عائلـة غريتريكس مـن حيـن لآخـر، فـي كورييـر. لا أحد يعلـم متـى نحتـاج إليهـم."

قاطعـه سيد لوديـن: "بل هو العكس. هل سـمعت عمـا حدث يوم الاثنين في مصنع كولدن؟ بُترت ذراع صبي في أحد الأنولة. إنها رابع حالة وفاة في أربعة أعوام بأحد مشاغل غريتريكس."

"كأس شـيري، وكأس جعـة ليمـون، وكأس جعـة، وكأس براندي." وضع سيد بوث أربعة كؤوس أمامنا وناول كلا كأسه. "أيهم لكِ، يا روبي؟"

تلاقـت عينـاي بعينـي سيد لوديـن، وأثار شـيء بداخلهما شـعورا

بالبرد داخلي. ويبدو أن ملامحي قد أظهرت له ذلك، فتراجع في مجلسه. راقبتُ وجهه يتحول إلى نسخة من ملامح أعرفها جيدا، وأردتُ الانصراف في الحال. يوجد صف سيارات أجرة في المحطة، مسيرة خمس دقائق حذو القناة. أشارت الساعة المعلقة على الحائط إلى الثامنة والربع.

"لن تغادري بهذه السرعة!" كانت بليز قد خلعت قبعتها، وظهر خداها متوردان.

"يبدو أنني أكثرتُ من البوظة،" قلتها، وسمعت كيف بدت نبرتي مُرثية. عرفت أنني أكذب؛ ضاقت عيناها الداكنتان في شك، لكنها لم تقل شيئا. كانت تيلدا قد سرحت في مكان ما مع الرجل الذي بادلته الحديث، وسيدة مانيون تعطيني ظهرها، مُستغرقة في محادثة. فانسللتُ، أشق طريقي عبر البار إلى جو الليل البارد.

انطلقت مُسرعة إلى المحطة، وانتظرتُ مرور الترام بصليله لأعبر الطريق.

"دادة ماي! روبي!"

أعاد صوت رجل النداء بصوت عالٍ، فأسرعت خطاي، ممتنة للظلام الذي يتيح لي الاختفاء. أدركتني خطى شخص ما، وظهر سيد بوث إلى يميني. دفع يديه في جيبيه. "ماذا جرى؟"

"يجب أن أعود من أجل الصغار."

"لم يمض على غيابكِ ساعة. ألم يأذنوا لكِ في المنزل بالبقاء؟"

"لا يجدر بي، حقا. لدي مهام أخرى بعد أن يأوي الصغار إلى

فرشهم."

"سأرافقك." وبدأ يعبر الطريق.

"لا بأس، سأستقل سيارة أجرة من المحطة."

"لن تجدي سيارة أجرة الآن، فهم يرحل في السابعة تقريبا بعد قطار ليدز."

"أرجوك، يا سيد بوث. ألح عليك أن تعود."

"وأنا ألح عليكِ أن تأتي. لقد غادرتِ فجأة." وأمعن النظر بوجهي في ضوء الشارع.

"لا أشعر أني بخير."

"سأرافقك. المنزل في آخر الشارع."

"إنه يبعد ميلين!"

"لا يمكنكِ السير في الغابات بمفردك."

"عد للداخل رجاءً."

"تعالي معي إذن، وانتظري برودلي." لم أتحرك. فقال: "عرفتُ الآن من أين يأتي سيد سول بعناده. لنذهب إذن."

سار على خطوتي البطيئة في صعود الطريق، الذي تعرَّج مع حدود الوادي، يحفه سور حجري منخفض يظهر منه الانحدار المُدوِّخ للنهر أدناه. كان صوت جريان الماء أسرع ليلا، وتساءلت هل سيسير سيد بوث معي حتى نهاية الطريق إلى المنزل. لم أعبر الجسر في الظلام من قبل سوى مرة واحدة، مع سيد إنغلاند ليلة وصولي، وكان ذلك في ضوء فانوس.

انتقل سيد بوث تلقائيا إلى الجانب الآخر ليواجه الطريق

فطلبت منه تبادل الأماكن.

سأل: "لا تحبين المرتفعات؟"

"كلا."

"كنت في صغري أجلس على هذا السور وأصطاد."

"إنها أربعون قدما! كل ما ستكتشفه هناك هو موتك ".

ضحك وواصلنا سيرنا.

قلت: "لا بد أنك متحمس للغد."

"وماذا في الغد؟"

قلت: "يجدر بي أن أدفعك من فوق هذا السور. تعرف ما أعنيه: يوم زفافك."

"قد حانت خاتمة الحب الذهبية، وداعا لكل تودداتي."

قلت: "آمل ذلك."

ضحك. "لورد تينيسون. أحد كتابي المفضلين."

"لم أسمع عنه من قبل."

"لم تسمعي عن تينيسون من قبل؟" قالها متأوها. "أحسدكِ. مازلتِ ستقرئين لأعظم شعرائنا."

"وأين لي بالوقت لأقرأ الشعر؟"

تجاوزنا عددا أكبر من أضواء الشارع الصفراء، وفيما صعد بنا الطريق، توهجت البلدة في صورة مصغرة.

"هل تأملين أن تصبحي عروسا متوردة الخدين، يا دادة ماي؟"

"أحب أن أتزوج يوما ما." ومن حرجي أن تورد خداي، وأملتُ

ألا يلاحظ ذلك. "كيف تعرف سيد لودين؟"

"آه، تريدين الزواج من لودين،" قالها ممازحا.

"كلا!"

"خطر لي أنه ربما قال شيئا أساءكِ، فقد غادرتِ بسرعة. إذن فلا علاقة له بما طرأ من سوء في حالك؟"

"كلا ، كلا بالطبع. وإن كان يكثر من الأسئلة."

"هذا طبيعي في مجال عمله. أنا أعرف لودين منذ أنا كنا في المدرسة."

"هل هو صديق لعائلة إنغلاند؟"

"لا أظن أحدا صديق لعائلة إنغلاند."

"ماذا تعني بهذا؟"

"الوازيُّون لا يقتنون الأصدقاء. وحدنا البروليُّون من يفعل."

"وما الوازيون والبروليُّون؟"

ضحك. "البرجوازيون؟ البروليتاريون؟ كم أنتِ غرَّة، يا دادة ماي. قلتُ لبليز أنها مخطئة بشأنك."

"لماذا، ماذا قالت بشأني؟"

صمت، كأنما ندم على قوله، ومسح على قطة رقطاء تجلس فوق سور منزل.

"ستقتلني إن أخبرتكِ، لكني لا أظن الأمر يهم الآن وقد رحلت. قالت أنكِ تظنين نفسكِ أفضل منهم."

بسخط واحتدام أجبته: "ليس صحيحا قط."

"هذا ما قلته لها. أعتقد أنها وجدت إهانة في كونكِ من

لندن. فتصورت أنك ستتصرفين باستعلاء."

"لا أفعل. ولستُ من لندن، اشتغلتُ هناك فقط." واصلنا سيرنا في صمت، ثم قلت:" قررت أنها لا تحبني من قبل أن تلقاني."

قال: "قد تستغرق وقتا في إظهار الود. لكن قلبها سليم. إنها طيبة."

ودون أن أشعر لذعني ولاءه أكثر. وأردتُ أن أعرف كيف سأشعر إن امتلكت شخصا يدافع عني بهذه الطريقة.

"تدرين أنها تقدَّمت لوظيفة خادمة أطفال."

"بليز؟"

أومأ برأسه. "وردَّ سيد إي طلبها. لم تملك الخبرة. لكنها ليست حقودة. بل هي راضية جدا أنها خادمة منزل. أو كانت،" قال مصوِّبا.

قلت بمرارة: "هذا يفسر الكثير."

عندما تكلم قال: "اسمها يلائمها على الأقل، ألا توافقينني؟ بليز النار المحتدمة."

وجدتني أبتسم. "يلائمها بالفعل."

"ذاك هو منزلنا، جوار جسر أحصنة النقل." وأشار نحو حشد النوافذ المضاءة بالأسفل. "سبرينغ غروف. سوف ننتقل إليه يوم الاثنين. تريد بليز طلاء الباب بلون أحمر زاه."

ابتسمت. "وهل ستفعل؟"

"ما ظنك؟ سيشبه ذلك العيش داخل كرزة."

قلت: "أتوقع أن تجد حياتها غريبة في البداية بلا عمل."

"أرادت الاستمرار في عملها، لكن..."

"لكن ماذا؟"

هز كتفيه. "لن يكون ملائما، ألا توافقينني؟"

"سيدة مانيون متزوجة."

"إنه لقب شرفي."

رمشتُ متفاجئة. وقلت: "حسنا، أفترض أن زواج المرأة في حد ذاته عمل."

"ماذا تعنين؟"

"إنها تجمع بين وظيفة الأم والخادمة."

"رباه." توقف ونظر حوله. "هل سأتزوج من والدتي؟"

ضحكت. كنا قد قطعنا نصف المسافة إلى المنزل بالفعل، فخلفنا وراءنا النوافذ المضاءة على الطريق إلى مدخل الغابات المظلم.

قال: "أخشى أن عليَّ العودة الآن."

قلت: "أوه!"

"أنا أمزح." ثم تناول ذراعي، ليرسل رعشة في جسدي. "هل أنتِ بخير، يا دادة ماي؟"

"بخير، شكرا لك. آسفة لأنني أجبرتك على مغادرة أصدقائك."

"سأجدهم عند عودتي. سأرجع مع برودلي."

ضيَّقت الغابة طريق الخيالة، ونظرت عبر الظلام المعتم في أرجاء الوادي إلى المنزل، حيث ينام سول وميلي وتشارلي.

سأل وكأنه شعر بما يدور في خلدي: "هل استوحشتِ ديكا؟"

"كثيرا."

"أنتما كفولة انقسمت نصفين."

قطبتُ جبيني. "لم يصلني منها شيء. ولم أفكر في سؤال المديرة متى يُسمح لهن بكتابة الخطابات."

"ربما لا تملك ما تقوله بعد."

أومأتُ وسرنا في صمت قليلا. ثم استطردتُ الحديث في بطء: "منذ قليل، قلت أن سيد إنغلاند لا يملك أصدقاء..."

"همم؟"

"لماذا لا يملك وصيفا؟ أو ساعيا؟ لا يضم المنزل أي خدم رجال."

ما السبب برأيك؟

"لم يخطر لي الأمر سوى الآن."

"يريد أن يكون الديك الوحيد في قن الدجاجات."

"والمقصود؟"

"أوه، لا أعرف. بضعة أمور أخبرتني بها بليز فحسب."

رغبتُ كثيرا في التحدث معه عن اليوم الذي وجدنا فيه سيدة إنجلترا محبوسة في غرفتها ساعة الإفطار، لكن تحفظي منعني. كدنا نحيد بالفعل نحو فحش الكلام، ومُرغمة عدت بنا إلى بر الأمان. كانت هذه أكثر محادثة صريحة أجريتها منذ زمن، وتمنيت لو لم تنته. تحولتُ بالفعل من فتاة لم تنفرد برجل من قبل إلى أخرى تمشي متأبطة ذراع واحد ليلا. كنتُ مرتبكة، مُعتادة فقط على رفقة الأشقاء.

دنونا من الجسر الحجري وعبرناه معا. قلت وأنا أستدير

لمواجهته: "يمكنني إكمال ما تبقى وحدي."

"سأوصلكِ حتى المنزل."

"لا داعي."

كنا نقف متقاربين.

قلت: "حظا سعيدا صباحا."

"سأحتاج اليه."

"لن يحدث."

كان وجهه واقعا في الظل، لكني عرفتُ أنه يبتسم. "أراكِ في الكنيسة، يا دادة ماي. يا روبي."

"أشكرك على مرافقتي، يا سيد بوث. وأرسل شكري لبليز."

"ناديني إيلي. هكذا يفعل البقية. ولا شكر على واجب."

شاهدته يرحل، وشعرت وكأنه أخذ مصباحا معه، لأن الظلام بدا الآن يقترب زحفا، ومعه درايتي بوجود سيد لودين في الحانة مع بليز والآخرين، واقتناعي بأنه عرف من أكون. جدير بي أن يزيد قلقي، لكن فكرة أخرى صعدت إلى السطح، فكرة خائنة: وهي كم كنتُ سعيدة بأن بليز سترحل، وكم كنتُ مسرورة بأن سيد بوث سيبقى.

الفصل الثاني عشر

كان يوما مثاليا لحفل زفاف. فهواء أكتوبر مُنعش، والسماء زرقاء مُشمسة. أما في الداخل فقد عجَّ منزل هاردكاسل بالفوضى، مع أعصاب الخدم مُتوترة، وربطات العنق الحريرية تُعقد وتُفك، والأحذية تُلمَّع باحتدام، وملابس ميلي تحتاج لتبديلها، بعد أن سكبت عليها الفطور. تنقَّلت تيلدا من غرفة لأخرى مثل فرّيرة. واتضح أن بليز كانت أكثر تنظيما مما اعترف لها أهل البيت. لم تأتِ عائلة إنغلاند ببديلة لها؛ بل جعلوا تيلدا خادمة عامة، وكانت مُرتبكة تماما.

أعدت صينية فطور الأطفال بنفسي، وإذ أعبر فسحة السلم، سمعتُ أصواتا مرتفعة من غرفة السيدة إنجلاند. ثم لم يلبث الباب أن انفتح، وخرج منه سيد إنغلاند. والتقطت أذني نهاية جملته: "... أذهب بمفردي مع الصغار."

منحني نظرة متجهمة، إنما افتعالية. "تيلدا؟" صاح من أعلى الدرج. "تيلدا!"

مررتُ بتيلدا تصعد لاهثة في أفضل أثوابها. وكانت قد جعدت شعرها الأشقر في جدائل ولفته في قرص جذاب.

"تيلدا، ساعدي السيدة إنجلاند رجاءً في ارتداء ملابسها. علينا أن نغادر في نصف ساعة. هل برودلي جاهز؟"

"أظن ذلك، يا سيدي." واختفت في غرفة السيدة.

أخذت الصينية إلى المطبخ، وهناك كانت سيدة مانيون

تنظف أواني الفطور. وقد ارتدت سترة وتنورة سوداوين يظهران قوامها، وثبتت دبوس زينة من العنبر عند عنقها. كنتُ الوحيدة بينهن التي ارتدت زي العمل.

صاحت: "يا لكل هذا الهذر. إن تيلدا لا تعرف رأسها من قدميها، وإميلي اختفت لتصفيف شعرها وأنا أتبقع بالصابون في كل جزء من تنورتي."

"أجلي العمل لما بعد. سأساعدكِ عندما ينام تشارلي."

أسرعتُ للطابق العلوي حتى أُجهِّز الصغار، وفي العاشرة والنصف، كنتُ حاضرة بهم عند الباب الرئيسي، وأنا أحمل تشارلي بين ذراعي وهو يرتدي ثوبا أبيض طويلا أملتُ ألا يتغبَّر في الطريق. نزل بعدنا سيد إنغلاند في بدلة غامقة وعصا برأس فضية، شاربه كثيف ومنمَّق. وكنا سنلتقي بالخدم في مرآب العربة، لذا لم يتبقَّ بالطبع سوى السيدة إنجلاند، والتي نزلت السلم بخطى متعثرة وغير مرتَّبة، ترتدي ثوبا لونه بلون حشوة الكريمة البنفسجية. وكانت قد لفَّت حقيبة يدها الحريرية حول ذراعها.

وأمام دهشتي، مدت يدها لي بخطاب. وقالت: "وصلكِ هذا البارحة،" وفي الحال ميَّزتُ خط إلسي. لم تفسِّر السيدة إنجلاند لماذا لم تسلمه لي إلا الآن. شكرتها وأنا أدسه في جيبي، وقدتُ الصغار خارج المنزل.

كنا بين آخر من وصلوا إلى الكنيسة، التي لم تكن نفسها كنيسة آل إنغلاند، ومذهبها مختلف. ساعدت الأطفال على صعود الدرج وتبعت السيد والسيدة إلى مقصورة محجوزة في المقدمة.

كانت أكثر المقاعد مشغولة، والتفت الضيوف لمشاهدتنا نسير في الرواق. جلس سيد بوث في المقدمة جوار عائلته، يجيل بصره ويلوح بيده كل حين وآخر. تلاقت عيوننا وابتسم، وشعرت بنفسي أتضرج.

جلست السيدة إنجلاند إلى جانبي، في قبعة ضخمة حجبت معظم وجهها، وحدقت في قفازيها الناصعين. حمل سيد إنغلاند تشارلي على حجره وأبدى الرضيع اهتماما كبيرا بشاربه، فجعل يشده ويُضحك الضيوف. ثم لم يلبث العزف أن بدأ على الأرغن، ووقفنا جميعا وبليز تُقبل من الممشى مع إشبينتين. ارتدت فستانا بسيطا بلون الكريمة كماه قصيران مع قفازين حتى مرفقيها، وتقبض على غصين ورود ميلاد بيضاء. غطت طرحة شعرها الغامق المجدول بعناية، واحتلت ابتسامة كل وجهها. وجدتني لا أقدر على النظر إلى الزوجين يتبادلان النذور، فاستبدلتُ المشهد بتشكيلة زهور وردية ورؤوس الأشخاص الجالسين في المقدمة. السيدة إنجلاند أيضا أصابتني بالتوتر، وهي تجيش بطاقة من نوع مسعور وتتململ بصورة أسوأ من أطفالها. جعلت تفتح وتغلق كتاب الترانيم وتتزحزح في مقعدها ولم تنهض معنا للغناء.

وخلال نصف ساعة أُعلن الزوجان سيد وسيدة بوث، ونهضنا لننضم إلى صف المشاة البطيء في ممر الكنيسة. تحدث سيد إنغلاند إلى عديد من الأشخاص وصافح كثيرا من الأيادي. استغرقنا الوصول إلى الباب خمس دقائق، وفي الوقت الذي اقترب القس في عباءته السوداء الممشوقة، كانت السيدة إنجلاند قد اختفت.

قال مُصافحا سيد إنغلاند: "لا أظننا التقينا من قبل. أنا

الموقَّر جون بلاكلي." كان ضئيلا وذا مظهر وديع، ويضع نظارة بإطار ذهبي.

"تشارلز إنغلاند. تشرفتُ بلقائك، حضرة الموقَّر."

وفيما تبادل الرجلان الحديث، بحثت حولي عن القبعة المميزة للسيدة وسط أمواج من اللونين البني والأسود.

سأل سول: "هل لنا في لقاء سيد بوث؟"

أجبت: "نعم. إنني أراهما هناك. ما رأيك في أن تبارك لهما؟"

قالت ميلي: "هلا رافقتنا، يا دادة ماي؟"

أخذتهم، وأنا أبحث حولي عن سيد لودين، نحو الحشد الصغير الذي يحيط بالعروسين. وأعطى أحدهم ميلي وسول حفنة أرز لكل واحد، وضحك الجميع عندما ألقيا به فلم يقترب حتى من رأسي العريسين. تظاهر سيد بوث إصابته برصاصة، فضحك الصغيران أكثر. كان تشارلي يصبح أثقل كل أسبوع؛ تمنيت لو بكى حتى يمكنني الانسحاب إلى ركن هادئ، لكنه حدق حوله، مأخوذا بمراسم الاحتفال.

قلت بفرح، "تهانينا."

ردَّ سيد بوث التهنئة وقال: "شكرا لكِ." أما بليز فكانت تتحدث إلى امرأة أكبر سنا؛ فرفعت بصرها نحوي ومنحتني ابتسامة مزدرية قصيرة. ثم وقع نظري على خاتم الزواج الذهبي في إصبعها. عدتُ لمواجهة سيد بوث، لكن بعد ليلة البارحة بدا أن الكلام قد نفد بيننا. وشعرت بالاحمرار ينتشر مرة أخرى في وجنتي، واشتهيتُ كوب

ماء.

سألته: "أين سيقام إفطار العرس؟"

"في كروسلي. ليس شيئا فخما، لحم وبيض مسلوق لعشرين شخصا."

قلت: "جميل."

"لا أعرف المنطق في تسميته إفطارا حينما يكون موعده بعد الغداء."

"أظن ذلك لأنها أول وجبة تتناولانها كزوج وزوجة."

"حقا؟"

أحسست أنه عرف ذلك ويبحث الآن عن شيء يقوله. تذكرتُ سيرنا الهوينى في الغابة، وذراعه مشبوكة بذراعي. وكيف لم أرغب لحديثنا أن ينتهي. ثم جاء الفرج عندما أراد تشارلي أن ينزل.

قلت: "سأتركك لضيوفك."

"فلتصحب مربيتك في نزهة، أيها الشاب،" قالها لتشارلي.

"شكرا لقدومكِ، يا روبي."

سرتُ بتشارلي على درب يجتاز المدفن وتركته يتجول وسط شواهد القبور.

"مرحبا،" قالها صوت رجل من الخلف. فالتفتُّ ووجدتني أنظر في وجه آخر شخص توقعته.

"سيد شيلدريك."

وقف الحداد متكئا بظهره على جدار الكنيسة الحجري، ويدخن سيجارة. كان في أبهى مظهر رأيته به، حيث ارتدى حلة بنية

وطاقية.

قال: "تبدين كمن رأى شبحا."

سحبتُ تشارلي لأحمله فوق خصري ووقفت في مواجهته. "فيم كنتَ تفكر عندما طلبتَ من فتاة صغيرة قضاء شؤونك؟"

حدق في وجهي لوهلة، ثم خفض بصره ورمى سيجارته.

قلت: "أجل، أعرف كل شيء. ولكن لا تقلق، لم تخنك ديكا. لم تكن هي من أخبرني، بل أنا من وجدته."

"هل سلَّمته لها؟"

"أنا فعلت."

استنشق ملء رئتيه ثم زفر ببطء، وارتياح.

"لا يسعني التفكير في الشأن الذي يجعلك تكتب للسيدة، لكني سأكون ممتنة إن لم تورطني أو الصغار فيه. تعرف عنوان عائلة إنغلاند، لذا إن أردت مراسلتهم، فأقترح عليك ابتياع بعض الطوابع."

"دادة ماي." كانت السيدة إنجلاند تقف على المشي خلفي. "الصغيران الآخران يبحثان عنك."

"أمرك، يا سيدتي."

عدتُ أدراجي بخفة مارَّة بها، وقد توقعتُ أن تبقى وترسل بكلمة تحذير إلى سيد شيلدريك، لكني لم ألبث أن سمعتُ وقع قدميها على الممشى خلفي، ثم أصبحت جانبي، وحقيبتها الصغيرة تتأرجح بيننا. بدأت جماعة الناس خارج الكنيسة تخفُّ مع تكثف الغيوم. كان الجو في هذه المنطقة متقلبا، وسماء الصباح الزرقاء لم تكن وعدا بجو صحو لبقية النهار.

قالت السيدة إنجلاند: "سأبحث عن برودلي." كانت جامدة

الملامح ورابطة الجأش؛ واسترجعتُ صورة المرأة المضطربة التي غادرت المنزل قبل ساعتين.

وجدنا العربة وركبنا، وفيما أسوي جلسة تشارلي على حجري، شعرتُ بخطاب أختي فوق فخذي.

قلت: "كانت آنسة ديكا ستحب هذا اليوم." وحدقت السيدة إنجلاند من النافذة. "هل هناك من خبر عنها؟"

أجابت: "ليس بعد."

"آمل أنها ستكتب قريبا. كانت بليز جميلة،" قلتُ مُحاولة تلطيف الجو. "أظنني لمحتُ بعض زهورنا الآس في باقتها."

قالت السيدة إنجلاند: "لقد بدأ يظهر عليها."

حدقت بها. "ما الذي بدأ يظهر، يا سيدتي؟"

أظنها المرة الأولى التي أراها تبتسم، ونظرت لي في شبه مودة. "إن بليز تنتظر..." في إشارة لكونها تنتظر مولودا حاملا.

غلبتني الصدمة، ووجدتني عاجزة عن النطق.

سأل سول الذي كان مصغيا منذ البداية: "تنتظر ماذا؟"

قلت له بعد وهلة: "تنتظر طقسا رائعا طوال النهار."

عادت السيدة إنجلاند لمواجهة النافذة. بإبهام ووسطى يدها اليمنى عبثت بخاتم زواجها، محرِّكة الدبلة لأعلى وأسفل من تحت قفازها، وكأنها تروم التخلص منه.

عزيزتي روبي،

أشكركِ على البطاقة البريدية، لم أكن أعرف أن يوركشاير

فيها شلالات. علقتها على حائط الصالون. تيد يسأل عن حجمها مقارنة بشلالات نياغرا في كندا، ويقول أنه سيحب زيارتها يوما ما. تريد أمي أن تعرف إن قرأتِ خطاب أبي بعد. وتسأل أيضا متى تتسلمين أجركِ لا بد أن يكون قريبا. يريد الطبيب أن يضعني في الآلة الكهرومغناطيسية مرة أخرى. ما زلتُ أكرهها لكن أظنني قد اعتدتها الآن. لم يظهر شيء من شجرة البرقوق التي زرعتها في الفناء، ربما تحتاج إلى تربة أكثر. إن بقي في حوزتكِ بعض المال فأرسلي لي رجاءً بطاقة بريدية أخرى.

مع حبي،

إلسي

طرق باب جناح الأطفال وكان خلفه سيد إنغلاند، الذي شغل إطار الباب بجسده. لطالما بدا أضخم في هذه الغرف، أو أن الغرف هي التي بدت أصغر وهو داخلها.

كان تشارلي واقفا وظهره لفراش ميلي، ساقاه السمينتان ثابتتان فوق ألواح الأرضية. التفت نحو صوت والده ومدَّ يده لأعلى.

"يملك وقفة جنرال،" قالها سيد إنغلاند بفخر. "دادة ماي، ستقام حفلة في عش الغراب نهاية الأسبوع المقبل -منزل جد ليليان- بمناسبة الذكرى الخمسين لمصنع غريتريكس. إنه يبعد خمسة أو ستة أميال فقط، لذا لن نبيت هناك."

" فهمتُ، يا سيدي. هل سيذهب الصغار؟"

"سيفعلون. سبق لكِ مقابلة بعض أفراد العائلة، لكني أحيطكِ

علما باحتمال وجود عدد إضافي من الأطفال الذين يحتاجون لرعاية. من قد يشرد أو يتوه. إنهم يسببون الدوار في مثل هذه الاجتماعات."

"فهمتُ، يا سيدي."

"هل قضيتِ وقتا ممتعا في الزفاف؟"

"فعلتُ، يا سيدي. كان يوما جميلا."

أومأ نحو خطاب إلسي على فراشي. "أخبار من الوطن؟"

أومأت برأسي وشعرتُ بدقات قلبي تتسارع.

ابتسم ابتسامة أظهرت أسنانه. "لم أحسبكِ من الفتيات التي تملكن حبيبا."

"لستُ كذلك، يا سيدي."

"لا أملك التدخل في حياتك الخاصة، لكني آمل ألا نخسركِ لصالح مؤسسة الزواج بعد. وهو ما يذكرني بأن أقول أنني" -ثم تنهد ووضع يده على عمود سرير سول- " أقدر لباقتكِ مع ليليان. أنتِ طيبة جدا، يا دادة ماي، معنا جميعا."

"شكرا لك، يا سيدي."

قال وهو ينظر لي بإمعان: "إن كنتِ تحملين أية هموم، فآمل أن تلجئي لي."

لحظة صمت. "سأفعل، يا سيدي."

دخلت ميلي راكضة وهي تصرخ: "قلت أنك ستساعدني في حل أحجيتي!"

"سأفعل، يا آنسة."

شعَّث سيد إنغلاند شعرها. "ألم يخبرك أحد أن مقاطعة

الحديث وقاحة؟" ثم رفعها وألقى بها على السرير، ودغدغها بعنف شديد، فابتسمتُ والصغيرة تنخرط في ضحك لا يد لها فيه وتترجاه أن يتوقف.

***

يقوم منزل عش الغراب على قمة تل تحيطه أرض غابية، يبعد أربعة أو خمسة أميال عن منزل هاردكاسل ، ويُعتبر قصرا مقارنة به. كان المنزل نفسه فسيحا، بجناحين يقومان على جانبي دار إقامة أساسية. نوافذه بحجم نفق قطار، وبابه الرئيسي تحرسه أشرطة حمراء. فيه بحيرة، ومرج، وشرفات، وحدائق أزهار، ومزارع عنب، ومخمرة. كان بيت موز يقوم غرب حديقة الشتاء الزجاجية، وحيوانات ألبكة ولاما تطوف الأرض، وكأنها مخلوقات من عالم آخر تحت سماء يوركشاير الرمادية. إلى جانب عائلة غريتريكس التي تفوق الحصر، مئات من مستخدميهم -مديرون وكتبة، وعمال نسيج وفرز وغزل، وعمال مكابح، وسعاة- جلسوا أمام مأدبة غداء أنيقة، وكانوا قد تلقوا دعواتهم صيفا في بطاقة سميكة بلون الكريمة. خيَم بيضاء غطت ياردات من طاولات أنَّت تحت ثقل لحم بقر وضأن، وفطائر حمام، وبط مشوي، وطيور طيهوج وحجل، وبودنغ برقوق وتورتات وجيلي، وبوظة للأطفال.

كان هناك عدد كبير من الأطفال. وعندما جلست مع رعيتي وأقاربهم، والذين كانوا أكثر من قدرتي على العد، استوعبتُ حينها فقط حجم وتأثير عائلة السيدة إنجلاند. وفي مركزها، تشامبيون

غريتريكس، الثمانيني ذي الثوب الكاروه الأسكتلندي، والأزرار الذهبية، واللحية الفضية، والذي تقلد خمسين عاما من النفوذ والرخاء بنفس الخفة التي يرتدي بها شخص مبذلا حريريا. في كل لحظة يتوجه نحوه عشرون أو ثلاثون زوجا من العيون، وكأن ضيوفه لا يكادون يصدقون أنه من دم ولحم، هذا الرجل الذي أنجب تسعة أبناء وتملك أربعين مصنعا، والذي عبر بتجارته فترات الانتعاش والكساد دون إغلاق مصنع واحد. طاف بين المجموعات الصغيرة المتفرقة على المرج، وأصابعه النحيلة تمسك بعصا سوداء رفيعة يتوجها حيوان ألبكة فضي.

عندما غادرنا المنزل صباح ذلك اليوم، لم أكن قد توقعتُ عُشر الأبّهة، وكل ما تخيلته هو نزهة في حديقة كبيرة. بدا أبناء عائلة إنغلاند بملابسهم الفاخرة، عاديين وكتومين وسط موجة العباءات البيضاء وبزّات البحارة لأرقى عائلات يوركشاير. وفي ذيل أطفال غريتريكس جاءت الحاضنات والمعلمات، يتخالطن ويتبادلن المجاملات. أبدت واحدة أو اثنتان إعجابا بزي عملي وطرحتا أسئلة حول معهد نورلاند. تحدثن بحرية وألفة مع بعضهن بعضا ومع رعيتهن، وقد جلسن في تجمعات على بطانيات صوفية ومسحن فتات الكعك من على أفواههن. وأنا أشاهد الأطفال يتسابقون فوق العشب، تساءلتُ كيف ستحكمهم سيم؛ وأغلب الأمر أنها كانت ستصفق بكفيها البيضاوين الصغيرين وتحشدهم في طابور. ورغم الفوضى، إلا أن تغيير المشهد أنعشني؛ ولم أكن أدرك حتى وقفتُ في الهواء الطلق النقي، كم بدا الوادي خانقا وكئيبا.

أما أكثر اليوم فقد راقبتُ السيدة إنجلاند. كانت مثل فراشة،

رقيقة في ثوب كتان لونه وردي باهت وسترة تتماشى معه، مع عقدة من الساتان الأسود عند عنقها، تتنقل بخفة بين أطراف المحادثات، دون استغراق في أحدها. وقفت مع أشقائها فوق نتوء عشبي صغير، ثم لم يلبث والداها أنا انضما إليهم، وكان والدها في حلة سوداء داكنة، ووالدتها في ثوب رمادي غامق، وقفازات طويلة وقبعة متخمة بريش النعام. وخلال دقيقة، كان السيدة إنجلاند قد انسحبت من المجموعة وعادت إلى مكانها على الطاولة الشاغرة. بدا أنها تشعر بالبرد، وهي تشد على كميها وتهز قدميها. أدارت وجهها نحوي، لكنها لم تبتسم، مرسلة أنظارها ورائي ناحية البحيرة.

أقبل عليَّ سول، أحمر الوجه ومنقطع الأنفاس، يطلب عصير ليمون. سكبتُ له كوبا، وتركته مع تشارلي، الذي كان يقتلع ملء كفه من الحشيش، ثم جلست بجانبهما. كنتُ مُتعبة وتحرَّقتُ منذ مدة للجلوس. كان سول قد بلل فراشه مرة أخرى، وتسبب تغيير الملاءات في منتصف الليل بإيقاظ ميلي وتشارلي، ولم يتمكنا من العودة إلى النوم. فقضيتُ آخر ساعات الليل في غرفة النشاط، أتمشى ذهابا وإيابا بالرضيع لجلبه إلى معاودة النوم.

شاهدنا سباق الأجولة أسفل التل، ولمحتُ ميلي بين بنات قرابتها، تبرم جدائلها.

سأل سول: "هل بوسعي اللعب الآن؟"

"نعم، إنما حاذر من السرعة الكبيرة، فحولك أناس كثر."

"حاضر."

وانطلق مثل كلب صيد، وتناولتُ أنا قبضة تشارلي البدينة

وذهبتُ به إلى حيث جلست السيدة إنجلاند. عجَّت الطاولات بفوضى من التورتات الممزقة والبوظة الذائبة، التي ملأت الجو برائحتها السكرية المُغثية.

"هل يستمتع الصغار بوقتهم؟" هكذا سألت السيدة إنجلاند. وتحت عينيها هالات سوداء؛ فبدا أنها أيضًا لم تنم جيدا.

"نعم،" قلتها وأنا أكتم تثاؤبي وأُجلس تشارلي على العشب قريبا من قدمي. هو أيضا كان متعبا، وعلمتُ أنه على شفا نوبة غضب.

"أعجبني خطاب جدك."

"حقا؟"

"أحببت ما قاله عن مجتمع المصنع، وأن كل فرد فيه هو بمثابة بلدة."

أطلقت السيدة إنجلاند ضحكة احتقار جوفاء. "وهو حضرة العمدة."

جلسنا نشاهد المحتفلين. وعلى مسافة بعيدة على العشب، خلع رجلان قميصيهما وبدءا مباراة في المصارعة. وجرت لعبة شد الحبل قرب أيكة من شجر الوردية، وداعبت مجموعة أطفال حيوان لاما رمليَّ اللون له سن كالكلاب.

قلت: "يا له من مكان مذهل يعيش فيه المرء. إنه مثل مدينة ملاهي. هل نشأ والدكِ في عش الغراب، يا سيدتي؟"

"نعم. عش الأفعى كما أسميه."

كبحتُ رفع حاجبي تعجبا. وجد تشارلي ملعقة شاردة وراقبناه

يضرب بها الحشيش، ولم تنتبه إحدانا لاقتراب هيلين غريتريكس بخطى خفيفة.

"نهاركِ سعيد، يا ليليان."

"نهاركِ سعيد، يا أمي." لم تنهض السيدة إنجلاند لتقبيلها، ونظرت لي المرأة الكبيرة من فوق نظاراتها.

قلت: "طاب نهاركِ، يا سيدة غريتريكس."

تجاهلتني وجلست في المقعد المجاور لابنتها.

قالت: "إنه كالأيام الخوالي. جميع الأبناء هنا معا."

لم تعلق السيدة إنجلاند.

"سألتُ تشارلز كيف استطاع إقناعكِ بحضور أحد هذه التجمعات. لا أذكر آخر مرة أتيتِ فيها لرؤيتي ووالدكِ في ريديكليف."

قالت السيدة إنجلاند: "يصعب الخروج مع وجود الصغار."

"لماذا جلبتها لو أنكِ لا تستطيعين تركهم؟" وأشارت بقبعتها في اتجاهي. "سأبلغ التاسعة والخمسين قريبا، يا ليليان. ولا يمكنني قضاء اليوم بطوله داخل عربات ترتج على الطريق."

انبعثت ضحكة عالية من الحزب المتجمهر على الحشيش. وكان مصدرها سيد إنغلاند، الذي انسجم بيسر شديد في المجموعة حتى ليَكاد يُقال أنه نفسه واحد من غريتريكس لولا شعره الداكن. أمسك عدة رجال عصيانا تشبه عصا تشامبيون، وكانت عصاتان منهما قد صادرها صبيان يعتركان.

قالت سيدة غريتريكس: "طلب تشارلز التحدث إلى والدك."

أجابت السيدة إنجلاند: "إنهما يتحدثان الآن."

"على انفراد."

"في أي شأن؟"

"أتصور أنه العمل. لا ريب أنه يريد قرضا آخر."

"هل لا ينتفع أبي من منح القروض؟ لا أصدق أنه يقدمهم بدون فوائد."

"أرى أنه يحسن ترك هذه الأمور للرجال." وبعد صمت مطبق، استأنفت سيدة غريتريكس: "كانت جدتكِ ستحب هذا."

"كل هؤلاء الناس يسكبون الجعة فوق عشبها - ماذا هناك حتى لا تحبه؟"

"يمكنكِ أن تبذلي مجهودا أكبر في الانخراط بالجموع. لماذا تجلسين هنا؟ تشبهين زغب القماش الذي انجرف إلى الزاوية."

"إنه بعيد عن الهواء."

"ألستِ على ما يرام؟ تبدين شاحبة."

"أنا بخير."

أجالت المرأة العجوز بصرها حول قبعة ابنتها، حتى ثبتت فوقي عينين باردتين. "هل مربيتكَ تأخذ استراحة؟"

انتفضتُ من على مقعدي وكأن شيئا لذعني.

"اجلسي، يا دادة ماي. تشارلي بخير، كما ترين."

"حلته ستتلطخ."

"سأشتري له أخرى."

أُخذتُ بفظاظتها. إن والدتها صعبة الإرضاء لكن السيدة

إنجلاند كانت فجّة بالكامل، ردودها الحادة كالخل، لاذعة ومرَّة.

"كيف تبلي ريبيكا في المدرسة؟ آمل أن يستحق هذا الرسوم المدفوعة. إن تسألينى، أقل أن إدخال الفتيات إلى المدارس لهو بلا طائل. إهدار للمال. أخبرتُ تشارلز بالفعل أنكما محظوظان بالعثور على مقعد شاغر في مهلة إخطار قصيرة. آمل أنكِ أرسلتِ بكلمة شكر لسيدة أودلي."

"ليس بعد."

لم تكن ديكا قد كاتبتني بعد. مضى على ذهابها إلى سانت هيلدا أسبوعان. كنت قد وضعتُ خطابا ثانيا في الصندوق المذهب بالردهة، والذي يفرغه بن ويأخذ محتواه إلى صندوق البريد في الرابعة والنصف من كل يوم. تخيلتها منحنية فوق طاولتها، وشعرها الغامق ينسدل كستارة. ترى من يسرحه لها ليلا، ومن يقص لها أظافرها. رجوتُ أن تعاملها بقية الفتيات بلطف، لكني عرفتُ كيف يمكن لهذه الأمور أن تسير. وكيف من طبيعة بعض الأطفال أن يتعاملوا بقسوة مع الوديعين منهم.

ثم انتقلت سيدة غريتريكس إلى موضوع آخر: "كارولين تنتظر مولودا. لا ريب أنها تتمنى أن يكون هذا آخر حمل لها. فهي ستبلغ الرابعة والأربعين في كانون الأول."

لم تعلق ابنتها. توتَّر الجو، وبينما أبحث داخلي عن أفضل سبيل لتخليص نفسي وتشارلي، لاحظتُ أن جمهرة صغيرة تكونت عند سباق الأجولة. ثم انشق طفل وركض إلى حيث تقف عائلة غريتريكس، وبعد لحظة ذهب معه سيد إنغلاند على عجل بخطوات واسعة. ونهضتُ

أنا على الفور.

"لقد ركض سيد إنغلاند إلى هناك."

"أين؟" قطبت السيدة إنجلاند جبينها وهي تجيل بصرها وسط المتجمعين.

"هناك، عند سباق الأجولة."

نهضت لترى حيث أشير، واستعانت سيدة غريتريكس بنظاراتها لرؤية ما يجري. "لا أستطيع رؤية شيء. ماذا يجري، يا ليليان؟"

"راقبي الرضيع، يا أمي."

أسرعنا ننزل التل معا، ونحن نتشبث بقبعتينا. وتجمعت دزينة أشخاص في حلقة حول سول، الذي جلس على العشب ورأسه بين ركبتيه. ظننته في البداية يبكي.

"سول؟" تملك صوت والدته خوف حقيقي، وتفرق الحاضرون حتى تمر.

"لديه ضيق في التنفس. إنه الربو،" قالها سيد إنغلاند، الذي كان راكعا جواره. وقبعته مرمية على العشب. "هل يوجد طبيب هنا؟"

جثوتُ إلى جانبه. لم يكن يظهر من سول سوى قمة رأسه الأشقر، وكانت كتفاه الصغيران ترتفعان وتهبطان كمكبس. "سيد سول، سوف أحركك حتى تستطيع التنفس أفضل. لا داعي لخوفك، ارفع رأسك فقط وسأخلع عنك سترتك. أحسنت."

عندما رأى سيد إنغلاند ما أفعله، ساعدني في خلع الذراع

الأخرى، ثم فككتُ ياقته. فشهق بقوة، مثل سمكة خارج الماء.

صرخت السيدة إنجلاند: "يوجد ألف شخص هنا، لا بد أن بينهم طبيب. هل بوسع أحدكم أن يبحث عن واحد، رجاءً؟"

هرع عدد من الرجال في اتجاهات مختلفة. وجاء مصارع، يلمع العرق فوق صدره العاري، ليرى علام الضجة، وتزايد عدد الناس من حولنا، يحمل بعضهم زجاجات جعة وفاكهة من المائدة المفتوحة. أخفى سول رأسه في ذراعيه.

نزلت السيدة إنجلاند على ركبتيها إلى جانب ابنها، وكأنها تحميه. وخط الوحل تنورتها وارتمت قبعتها على الأرض.

قلت: "لنأخذه إلى مكان هادئ." كان المنزل على بعد مئات الياردات، فرفعه سيد إنفلاند بيسر وحمله عبر المرج. حلت خادمة الشريط الأحمر وتبعتهما إلى الداخل.

الفصل الثالث عشر

"إلـى الطابـق العلـوي،" قالتهـا السـيدة إنجلانـد. وقادتنـا فـي ممـر مفروش بالبـلاط ومعتـم، تجاوزنا فيه عدة أبـواب بيضاء إلى بهو مركـزي بارتفـاع ثلاثـة طوابق. ومن خلال سـقف زجاجي مقبَّب تدفق ضـوء النهـار، وارتفـع درج عبـر ثلاثـة جـدران. فـي الطابـق الأول رواق على أعمدة، يقود إلى مزيد من الأبواب والطرقات اللانهائية. ترددت السـيدة إنجلاند في الأعلى، ونظرت في كل الاتجاهات قبل أن تسـتقر علـى أحدهـا. وأخذتنـا إلى ردهة ضيقة، تزينـت جدرانها بالصور، إلى غرفـة نـوم فسـيحة لونهـا فاتـح وتطـل علـى المـروج الخلفيـة. وبالغرفـة سـرير قديـم الطـراز بسـديل، وكان الهـواء آسـنا: لـم تكـن الغرفـة قد هُوِّيت منذ مدة، ولم أرغب في تخمين متى كانت آخر مرة نظفت فيها تنظيفـا كامـلا.

سـألت: "هـل هنـاك أي سـرير حديـدي؟ لأن هـذا النـوع مـن الأسـرة يُراكم في العادة غبارا كثيرا. ويفضَّل أن يكون قريبا من سلم الخدم."

عدنـا إلـى دهاليـز الطرقـات ثـم توقفنـا داخـل غرفـة ضيقـة بهـا سـرير لشـخص واحـد وخزانـة ضخمـة مـن خشـب الماهوجنـي. أنـزل سـيد إنغلانـد ابنـه علـى اللحـاف المحشـو بريش العيدر وخلعتُ أنـا حذائـه ورتبـت الوسـائد حولـه ليجلـس منتصبـا. أثـارت توتـري عدة أشـياء: بجانـب رؤيتـه يكافـح ليتنفس، انبعث من حلقـه صـوت صفيـر عـال، واستسـلام خصوصـي فـي وجهـه وجدتـه مرعبـا. فتحـت السـيدة إنجلانـد النافـذة، وجلسـتُ أنـا علـى حافـة السـرير.

قلـت: "سـول. أريـدك أن تبطـئ مـن سـرعة تنفسـك، إذا

استطعت. أعرف أنه أمر صعب، إنما حاول فقط أن تأخذ نفسا طويلا، ثم تخرجه كله." ثمت استدرتُ إلى والديه. "ماذا تفعلان عادة عندما يحدث هذا؟"

قال سيد إنغلاند: "نتركه يرتاح. ويدلك الطبيب رقبته وصدره. لم يمرض بهذه الصورة منذ وقت طويل. ولا يسعني التفكير في السبب."

"أنا... لا أستطيع... التنفس..."

"ششش، يا سيد سول، لا تتكلم. ركز فقط على أخذ أنفاسك... شهيق... زفير... ببطء، أحسنت... شهيق... زفير..." ثم قلتُ لوالديه: "نحتاج إلى أوعية ماء مغلي. عدد كبير، من أجل البخار. إنه يعاني من الربو الشُّعَبي، أليس كذلك؟"

"نعم."

"لا بدَّ من نشر أوعية الماء في كل أرجاء الغرفة."

"بخار؟" قالها سيد إنغلاند، ومرر يده خلال شعره. كان مبلبلا بالكامل.

قلتُ: "أجل، إنه يرطب الهواء ويوسِّع الحلق. سأذهب إلى المطبخ وأطلب بعضا منه."

قالت السيدة إنجلاند: "أنا سأذهب، أعرف مكانه. كم وعاء؟"

"أكبر عدد ممكن."

"عشرة؟ عشرون؟"

"يكفي خمسة أو ستة الآن. وليحرصوا على أن يكون الماء مغليًّا."

غابت السيدة إنجلاند، وأغلقت الباب خلفها. اقترب سيد إنغلاند ليقف إلى جانبي، ونظر كلانا إلى سول. كان يقبض بيديه على أغطية الفراش، وقد ابيضَّت مفاصل أصابعه. وظهرت بقع حمراء على خديه جراء الجهد الذي يبذله، وفمه مفتوح ومتهدل. لم أقل شيئا، فقط وضعتُ يدي الباردة على يده، وبعد بضع دقائق سمعنا وقع أقدام في الردهة وعصا تدق الأرضية. ثم ولج الغرفة تشامبيون غريتريكس بنفسه، ومعه رجل عجوز بلحية شهباء قصيرة وشارب ضخم.

"سيتولى باول أمره، يا تشارلز،" قالها سيد غريتريكس، مُريحا كفيه على عكازه. جازفتُ بإرسال نظرة إليه، ولاحظت كم كان قصيرا ونحيفا كصبي، وإن أضفت عليه لحيته الطويلة مظهر الساحر.

اتجه الطبيب نحو سول، فأمسك معصمه بيد يكسوها نمش شيخوخي ونظر إلى ساعته مقطبا. مط شفتيه في التواءة شك. "أعتقد أنه بالغ في تناول الكعك. الربو المعوي آثر جانبي شائع للخانوق التشنجي."

قلت: "الولد يعاني من الربو الشُّعبي، يا سيدي."

تجاهلني الطبيب. "أكثر من الراحة، يا فتى. هذا كل ما عليك فعله. يجب أن تتمدد لتساعد معدتك على الهضم."

سأل سيد إنغلاند: "هل يساعده سيجار؟"

"لن يضره، لكنه ربما يحفز حواسَّه. لذا لا أنصح به."

أعاد سيد إنغلاند العلبة الفضية إلى سترته. "كانت مربيتنا قد أوعزت إلى زوجتي إحضار أوعية ماء ساخن."

تفحصه الطبيب عبر نظاراته وكأن لا وجود لي. "لماذا؟"

أجبت: "البخار أسهل في استنشاقه، يا سيدي، كما أنه يوسّع الرئتين."

"هراء. كل ما سيفعله هو تخليصه من حمى -لا يعاني منها- بالعرق. حمض المعدة هو سبب مرضه؛ لذا لن تجدوه الطفل الوحيد الذي يقع مريضا هنا، مع كل التساهل الذي يحدث." ثم أغلق النافذة بخبطة حاسمة. "لم آتِ بحقيبتي لكني سأذهب لإحضارها من المنزل في أقل من ساعة."

ظل سيد غريتريكس العجوز صامتا عند الباب؛ الذي فتحه للطبيب وانصرف كلاهما.

قلتُ بصوت خافت: "سيدي، تعلم أن معدته ليست السبب. إن عسر الهضم لا يسبب هذا النوع من الربو."

قال سيد إنغلاند: "أمر الطبيب أن نمدده."

"سيدي، لقد كان مخطئا في قول ذلك. بل يجب أن يظل سيد سول قاعدا حتى يسهل دخول الهواء في رئتيه."

"مخطئا؟" لم يُخفِ سيد إنغلاند دهشته. "إن دكتور باول هو جراح سيد غريتريكس. وهو طبيب الأسرة منذ أربعين عاما."

"لا أقصد إنكار أهليته، يا سيدي..."

"ومع ذلك تفعلين." لمحتُ ابتسامة أسفل شاربه. "أخبريني، يا دادة ماي، ما هي خبراتكِ في الطب؟"

ازدردتُ لعابي. "عملتُ ثلاثة أشهر في جناح الأطفال، سيدي، بمستشفى تشارينغ كروس."

نظر متأملا إلى ابنه. وكرر: "ثلاثة أشهر." ثم قال: "وهل أصل العلّة مهم؟"

"نعم، يا سيدي. لا بد من جلوس السيد الصغير مستقيما ليسهل سريان الأكسجين في رئتيه، والبخار سيساعده على التنفس. وفي هذه الأثناء، يجب تهوية الغرفة جيدا إلى أن يصل الماء. ومع كل هذه الإجراءات، يجدر بالأزمة أن تمر خلال ساعة أو اثنتين."

استمعتُ إلى نفسي، وكيف كنت مُتمردة. لم أكن لأتجرأ على التحدث إليه بهذه الطريقة سوى في شأنٍ كهذا. وبينما سول يجاهد ليتنفس، راقبني سيد إنغلاند أرتب الوسائد خلفه، وقلبي يدق بقوة. وفي تلك اللحظة، عادت السيدة إنجلاند، ساكنة كفأر، ويبدو عليها الابتلاء.

أخبر زوجته: "دكتور باول قال لا بخار."

تجمدت عند الباب.

"لكن دادة ماي لا توافقه."

حوَّلت أنظارها بيننا.

"قال أيضا أن سول يجب أن يتمدد. ومع هذا، تعتقد دادة ماي أنها أدرى." وابتسم ابتسامة متأسِّفة، مع أن الموقف أبعد ما يكون عن الهزل. "ما رأيكِ يا ليليان؟ هل نسمع كلام الطبيب الذي يملك أربعين عاما من الخبرة؟ أم المربية التي تملك شهرا واحدا؟"

اجتمعت على وجهها عدة تعابير، فيما وقفتُ أنا في صمت عند لوح السرير الأمامي. فتحت فمها، لكنها لم تقل شيئا، وحدَّقت في سول بعينين تواقتين ويائستين.

"بني، سأتركك مع مربيتك ووالدتك،" قالها سيد إنغلاند وهو يمسح على رأسه. "أرجو أن تتحسَّن في القريب."

تراجعت خطواته خارج الغرفة، ووقفتُ والسيدة إنجلاند في صمت. تسللت أصوات المرح البعيدة عبر النافذة، والتي كنتُ قد أعدتُ فتحها عن آخرها، وقررتُ أنني لو قدِّر وخسرتُ وظيفتي، فأقله سأكون قد أنقذت حياة الصغير.

قالت السيدة إنجلاند: "سأخطئ فهم الأمر."

"ماذا تقصدين، يا سيدتي؟"

عبرت الغرفة لتجلس جوار ابنها وتمسك بيده. وكانت هذه أكثر مرة رأيتها بهذه الحميمية معه.

"لماذا لا توافقين الطبيب؟"

"سيدتي، أعرف بالطبع أنه أكثر خبرة مني. لكنه قال أن أعراض سول سببها الإفراط في الملذات، وعندما استرجعتُ ما تناوله في الغداء، وجدت أنه لم يزد عن قليل من لحم البقر وبعض البطاطس. كان أكثر تحمُّسا من أن يهتم بالطعام."

قالت: "دكتور باول هو طبيب جدي. وهو يعرفنا منذ سنوات. وأعتقد أننا يجب أن نأخذ بنصيحته."

أغلقتُ عيني. "إذا مددناه على ظهره فلن يستطيع التنفس."

"وما علمك؟"

"ليس كعلم دكتور باول، يا سيدتي. لكن المستشفى التي عملتُ فيها عالجت الأطفال بأمراض تنفسية عن طريق البخار والهواء المتجدد. وكان بها دار استشفاء، شبيه بمستدفأ، يلجؤون إليه إن ساءت حالتهم."

نظرت إلي وكأنني أتكلم بلغة أجنبية. وبعد دقيقة طرق الباب، وكانت خادمة تحمل الماء.

أخبرت سيدتي: "لا تعيديه. يجب أن نرفع نسبة الرطوبة، أعدكِ أن هذا سيساعد. دخان الفحم يزيد الوضع سوءا هنا. حتى أنني لأتعجب من قدر الجميع على التنفس."

وضعت خادمتان طشوتا وأوعية متنوعة من الماء المغلي؛ وكانت بقية الأدوات قد استخدمت لأغراض الحفلة، لذا جمعوا كل ما استطاعوا من غرف النوم وملحق المطبخ. ولأن الماء المغلي أصبح في الغرفة، أوصدتُ النافذة، واكتسى الزجاج بالبخار فورا. وجدت كرسيين لي ولالسيدة إنجلاند في غرف النوم المجاورة، وجلسنا إلى جانب سرير سول، متواجهتين. أمسكت بيد ابنها وقالت كلمات قليلة، وهي تراقب وجهه وتزيح شعره الذهبي من على جبينه. لم تتحسن حالته لكنها لم تسؤ أيضا، ولم أشعر بمضي الوقت إلا وقد عاد دكتور باول بحقيبة أدواته، يرافقه سيد إنغلاند. ألقى نظرة على الأوعية، التي أعاد الخدم ملأها مرة بالفعل، واختفى فمه تحت شاربه.

طالب دكتور باول: "أخرجوا هذه الأشياء."

ترددت، ولاحظ سيد إنغلاند ذلك.

"دادة ماي، فلتخرجي الأوعية في الحال."

حملتُ أقربهم إلى خارج الردهة وأنا أكبح دموعي، وهناك صادفتُ خادمة مطبخ، مُقبلة من سلم الخدم، وهي تحمل غلاية. طلبتُ منها وأنا أناولها مبولة الغرفة، أن تعيد كل الأواني إلى المطبخ.

رمشت في حيرة، لكنها أطاعت، وفيما يقلِّب دكتور باول في حقيبته، أخرجت بقية الأوعية في صف على باب غرفة النوم. تمدد سول على الفراش، مُتلوِّيا في عذاب منقطع الأنفاس فيما والده يثبت ذراعيه. كنت أرفع آخر دلو عندما وضع دكتور باول سنَّ حقنة كبيرة على عنق سول الأبيض.

"لا!" صرختُ دون تفكير.

استدار الطبيب في ذهول، ونظر في وجهي للمرة الأولى، قبل أن يحول صدمته إلى سيد إنغلاند.

"دادة ماي، غادري الغرفة في الحال،" هكذا أمر بنبرة لم أسمعه يستخدمها من قبل. رمقني بنظرة غاضبة، لكنني تقدمت خطوة نحو السرير.

"سيدي، إن مكاني مع الأطفال."

صرخ: "مكانكِ هو حيثما آمرك. اذهبي للأسفل."

أرسلتُ نظرة سريعة إلى السيدة إنجلاند، والتي كانت تقف إلى جوار ابنها، يحمل وجهها نفس التعبير الصامت عدم التصديق والرعب.

"لا تنظري إلى سيدتك، اذهبي!"

"أنا... أريد... دادة... ماي..." قالها سول لاهثا.

"أرجوك، يا سيدي."

هتف دكتور باول: "لا أريد شوشرة!"

سألتُ بتوسل: "ماذا تحقن؟"

"دادة ماي!"

غـرز الطبيـب الحقنـة فـي عنـق سـول، فانبعـث صـوت ثَقـب مُغثٍ أسـكتنـا جميعـا فـي الحـال. غصَّ سـول، ثم لهـث بلا جلبة ودكتـور باول يفـرغ محتوى الحقنـة، وعينـاه جاحظتـان لأعلـى. بعـد وقـت شـعرتُ بـه كعـدة دقائـق، سـحب الطبيـب الإبـرة، تترقـرق فوقهـا نقـاط دم غامـق. أصابنـي دوار، والتجـأتُ إلـى خزانـة الملابس حتـى لا أفقـد توازنـي.

"أتوقـع أن تكـون النتيجـة فوريـة،" قالهـا دكتـور بـاول وهـو يمسـح الإبـرة بمحرمـة. "حقنته بمحلول مخفف مـن الكوكايين، والذي سيقلص ألـم الرئتيـن ويحفـز الدمـاغ لإنتـاج مزيـد مـن الأكسـجين."

أمسـك سـول بحنجرتـه وابتلـع، لكـن دون صـوت؛ وبـدا كأنمـا نسـي كيـف يتنفس. ثبَّـت دكتـور باول كمـادة فوق ثقب الإبـرة وطلب من السيدة إنجلاند أن تتولى بعده. انتصبت حقيبته فوق الأرض مفتوحة، وقـد تـلألأت بالقواريـر والأدوات، فأغلقهـا بحركة سـريعة.

"سـأعود بعـد سـاعة، يكـون فيهـا التأثيـر الكامـل للحقنـة قـد ظهـر. وحتـى ذلـك الوقـت، احرصـي علـى رؤيتـه مُرتاحـا."

"شـكرا لـك، يـا دكتـور،" قالهـا سـيد إنغلانـد. ودون كلمـة أخرى، ودون الاكتـراث لوجـودي أو زوجتـه، رافـق الطبيـب للخارج وأغلق الباب خلفه بإحكام.

فـي الصمـت الـذي أعقـب ذلـك، عـاد صـوت اللهـو مـن جديـد. وكنتُ قد نسيت تمـامـا وجـود حفلة فـي الخـارج. وضعتُ يديَّ تحت إبطي سول وأجلسته بحرص. لم يقاوم، وتنفس في شهقات صغيرة مرتعشة.

"قال الطبيب-"

"السيدة إنجلاند، لم أسمع ولو مرة عن الكوكايين يُحقن في حلق طفل. الكوكايين يُستخدم في تسكين الآلام والحمى، وليس في الربو." كنت على وشك البكاء؛ فلما رأت ذلك، صمتت. قرَّبتُ الكرسي من السرير وأنا أراقبه بانتباه.

"كيف كانوا يعالجون الربو في المستشفى؟"

"بالبخار، يا سيدتي، كما قلت من قبل."

"لنجربه مرة أخرى إذن."

حدقت في وجهها. "لكن سيد إنغلاند..."

"فليذهب إلى الجحيم! سأغلق الباب بالمفتاح إن توجب الأمر، أخبريهم فقط أن يحضروه الآن."

أوصتُ الرسالة إلى المطبخ، مع اعتذار للخادمة المُنهكة التي كانت قد أزالت لتوها الطشوت واحدا تلو الآخر. كان سلم المطبخ في نهاية رواق طويل، استقر عنده تمثال رخام للنصف الأعلى من تشامبيون غريتريكس على قاعدة عمود أمام نافذة كبيرة تطل على الملعب. رأيتُ ضيوف الحفل كبقع بنية اللون فوق صفحة الأرض الخضراء، وأدركت مصدومة كم مضى من وقت منذ آخر مرة رأيتُ ميلي وتشارلي. أسرعت إلى الطابق العلوي وسألت السيدة إنجلاند إن أرادت مني العودة إلى مهامي في رعاية الصغيرين الآخرين، لكنها هزت رأسها نفيا. وصلت خادمة المطبخ تحمل وعاء ممتلئا، خلفها فتاة أخرى، كانت قد أوقعت ماء مغليا على ذراعيها. ساعدتها في وضعه، وكررت كلتاهما نفس الرحلة مرتين. وعندما أحضرتا آخر

وعاءين وامتلأ الهواء بالبخار الدافئ، عدتُ إلى مجلسي من جديد، ورأيتُ السيدة إنجلاند تنظر إلى الباب. ثم نهضت، وحملت كرسيها معها، ووضعته تحت مقبض الباب، قبل أن تعيد الجلوس وظهرها إلى الباب.

قال سول وسط لهاثه: "لن... يجلب... الحقنة... مجددا؟"

أجبته: "بلى. لن يفعل."

وأخيرا، راح سول في النوم وأنا أنشف العرق من على حدود شعره المبلول. أظلمت السماء في الخارج، وليس معنا مصباح، لكنني لم أجرؤ أن أطلب من السيدة إنجلاند النهوض من مكانها. فواصلنا المراقبة والضوء ينحسر.

قالت بعد فترة: "لم أرغب في المجيء اليوم."

تحركتُ في مقعدي. "لم يكن بوسعكِ التنبؤ بما حدث."

"شيء ما دائما يحدث."

"كان عليَّ أن الانتباه له أكثر."

"ستظل غلطتي،" قالتها بلا رثاء على النفس. "أحيانا أشك أني ملعونة."

تساءلتُ لماذا تكون غلطتها ولم أتصور سيد إنغلاند وهو يتهمها ظلما. أشياء كثيرة أردتُ أن أسألها عنها - ماذا كتب سيد شيلدريك في خطابه؛ لماذا يحبسها زوجها في غرفتها. لماذا تحمل كل هذا الازدراء لعائلتها؛ لماذا كانت، كما وصفتها والدتها، كزغب قماش انجرف إلى الزاوية، هشة ووحيدة. لماذا لا يزور أحد منزلها؛ ولا هي تغادره.

قلت: "لا أومن باللعنات، يا سيدتي."

"لقد عارضتِه."

"الطبيب؟"

قالت "كلا."

"أعتذر، يا سيدتي. لكني اندفعتُ بما رأيته صوابا."

ضيَّقت عينيها، إنما بدون قسوة؛ كانت ترمقني بشي من التعجب، وكأنني لغز يصعب حله.

***

وأخيرا، تفرَّق المدعوون وبدأت عملية التنظيف الكبرى. غادر الضيوف أراضي القصر مثل ماء يتسرب إلى الحافلات والقطارات التي ستعيدهم إلى منازلهم، جارِّين معهم أطفالهم المرهقين وهم يفكرون في أسرَّة نومهم وما تبقى من مؤنهم.

عاد الطبيب في أول المساء، وحاول دخول الغرفة ليجدها مغلقة. فطلب السماح له بالدخول، لكنني أخبرته أن الولد تعافى ونائم، وأن يُعيد الكرة بعد نصف ساعة. فأذعن وانصرف بخطوات ثقيلة.

وفيما تنفس سول عميقا، قالت السيدة إنجلاند، دون أن تبعد عنه عينيها: "أريد أن أبقى هنا معه."

"هل أخرج، يا سيدتي؟"

"كلا، أعني أنني أريد البقاء هنا في عش الغراب. مع سول."

"بالطبع. تقصدين أن أعود إلى منزل هاردكاسل مع البقية؟"

أومأت وهي تعض على شفتها وعيناها على ابنها، الذي رفرف جفناه فيما يحلم. قالت بصوت خافت: "لقد ضاعت مني ديكا بالفعل. لن أتحمل خسارة أخرى."

"لكن، يا سيدتي، قال سيد إنغلاند أن إرسالها للمدرسة كانت فكرتكِ."

حوَّلت أنظارها إلى وجهي. "وصدِّقتِ ذلك؟"

"سأبحث عن البقية،" قلتها وأنا أنهض وأحكم ربط مئزري.

"إذا طرحتِ الأمر على تشارلز، فسوف ينصت إليكِ. اجعليها تبدو وكأنها فكرته."

"سيدتي؟"

لم تزد وواصلت التحديق في ابنها.

أضاءت الخيام مصابيح ومشاعل فجعلتها مخيفة. وجدتُ ميلي تشكل بيديها دمى من الظل مع أبناء قرابتها، وتشارلي نائما في حجر إحدى زوجات أعمامه. سألني العديد عن حال سول وأنا أتنقل بين الكراسي نحو سيد إنغلاند، حيث وجدته جالسا مع دستة رجال. وأمامهم زجاجات نبيذ وبراندي مفتوحة، قد لطخت مفرش المائدة بلون أحمر داكن.

"سيدي،" تمتمتُ وأنا أقف إلى جانبه.

هتف: "آه، دادة ماي. يا سادة، أعرفكم بروبي ماي، مربية أبنائي."

التفت الرجال نحوي، وأومأ بعضهم. شعرتُ بأعينهم تجول فوق جسدي وتظاهرتُ بأنني لم ألاحظ ذلك.

"جلبناها من معهد نورلاند في لندن. جامعة نسائية لتخريج المربيات - هل سمعتم من قبل عن شيء كهذا؟ المربية ماي تحافظ علينا جميعا مرتبين، أليس كذلك يا دادة ماي؟"

"سيدي، هل لي في التحدث إليك لحظة؟"

"كيف حال ابني؟"

"تحسن السيد سول قليلا،" أجبته، متنبهة لإصغاء الجلوس. "لكن السيدة إنجلاند تخشى أن يتسبب طريق العودة إلى المنزل الليلة في تدهور حالته."

"وماذا قال باول؟"

"أن في ذلك مخاطرة،" كذبت.

فكر سيد إنغلاند، وتحرك طرفا شاربه. اجعليها تبدو وكأنها فكرته.

"لماذا لا نتركه يمكث هنا أسبوعا أو اثنين؟ ما رأيكم يا رفاق؟"

قال أحدهم: "يبدو هذا معقولا."

سألت: "وماذا عن السيدة إنجلاند؟"

"حسن، أفترض أنها يجب أن تبقى أيضا، لبعض الوقت."

"كما تأمر، يا سيدي. سأرتب إرسال أغراضهم."

نثر رماد سيجاره في كأس به بقايا نبيذ. "سأكون إذن عازبا بالكامل دون السيدة زوجتي،" قالها مستغرقا في أفكاره. "ستعودين إلى هاردكاسل بالطبع، مع الصغيرين الآخرين."

"أجل، يا سيدي."

"البخار حل المشكلة إذن؟"

رمشتُ ونظرتُ في عينيه، فوجدتهما هادئتين وفي حياد.

"يبدو ذلك، يا سيدي."

"هاتِ الصغيرين، يا دادة ماي، وسأرسل في طلب العربة."

الفصل الرابع عشر

وأنا في التاسعة، جاءت الملاهي إلى بالسال هيث، واصطحبنا أبي أنا وإخوتي. كان الجو بردا، أواخر الخريف أو الشتاء، والظلام مُخيما في الوقت الذي غادرنا الشقة. بقيت أمنا في المنزل، حاملا في إلسي. أقيمت الملاهي في ملعب الكريكيت جوار معبر القطار، وأضاءت المشاعل المتوهجة الأكشاك والألعاب المزدحمة. أخذنا جولة في المكان معا، ثم أعطى أبي فلسا لكل منا ينفقه حسب رغبته. ابتعت تفاحة بالتوفي وتفرَّق إخوتي كالبلي كل في لعبة مختلفة. كانت هناك دوامة خيل، تومض وتدور في ضوء المشاعل، خيولها المطلية تفتن الرائي في ألونها بقوس قزح. وقفتُ وأبي طويلا نشاهد. تناولتُ يده ورفعتُ بصري إليه لأمنحه ابتسامة، وأطمئنه أنني لا أمانع عدم قدرتي على ركوبها، وأنه تكفيني المشاهدة. كانت أصابعه رخوة في يدي، وحدق أمامه بذات التعبير الخاوي الذي كسى ملامحه أغلب الوقت الآن، وكأنه نسي كيف يبتسم. لمعت عيناه، ورقصت الخيول بداخلهما.

أفقتُ عندما توقفت العربة. كان تشارلي نائما في حجري، ورأس ميلي مسترخٍ على كتفي. ابتسم سيد إنغلاند وأنا أعود إلى رشدي.

"أعتذر، يا سيدي."

"لا حاجة للاعتذار. الوقت متأخر."

أطفأ مصباح السقف وترجلنا من العربة.

سأل برودلي: "هل تريد أن أقود لك الطريق بالفانوس، يا سيد إي؟"

"سأتولى ذلك بنفسي، يا برودلي، شكرا لك. تصبح على خير."

"وأنت بخير، يا سيدي."

حمل ميلي، التي غابت عن الوعي من جديد، وقد تدلت ذراعاها على جانبيها، وتناول الفانوس من برودلي. مشيتُ خلفه فوق الجسر وأعلى التل المظلم، وأنا أتثاءب، وأشعر بتشارلي ثقيلا جدا بين ذراعي. كانت تيلدا قد تركت سهّارة واحدة في الردهة وأوت إلى فراشها. بدا البيت وكأنه ينضب من أهله؛ فأولا غابت ديكا، ثم بليز، والآن سول والسيدة إنجلاند. وفيما أصعد بالرضيع إلى الطابق العلوي، تملكني إحساس مزعج بأنني نسيت شيئا، وتساءلتُ كم سأستغرق لأعتاد رعاية صغيرين بدل أربعة.

سبقني سيد إنغلاند إلى جناح الأطفال ومدد ميلي على سريرها. نزع حذائها، وخلعتُ عن تشارلي ملابسه، الذي أنَّ بخفوت قبل أن يغط في النوم. أسدلتُ الستار فوق مهده وانتقلت إلى سرير سول. وكان دبدوبه البني الصوف قد انكفأ على الوسائد، فأجلسته مرة أخرى.

وفيما أسوّي الشراشف، جلس سيد إنغلاند على اللحاف. كان أول من نام في العربة، بعد بضعة دقائق من مغادرتنا عش الغراب. وجدتُ مشاعري وقد تحركت أمام مشهده: كان فمه فاغرا تحت شاربه، ووجهه مرتخيا ومسالما كوجه طفل.

أخبرته: "أستطيع تدبر الأمور من هنا، يا سيدي."

سألت ميلي ناعسة وهي تخلع جوربيها: "متى يعود سول؟"

"قريبا جدا،" أجبتها وأنا أهمُّ لمساعدتها.

"هل ذهب إلى نفس المكان الذي ذهبت إليه ديكا؟"

"كلا، آنسة ديكا في المدرسة، تعرفين ذلك. أما سيد سول ووالدتك فيمكثان في منزل والد جدك إلى أن تتحسن حاله." ألبستها ثوب نوم وداريتها تحت الأغطية.

"لماذا بابا هنا؟"

سحبتُ البطانية حتى ذقنها. "أراد أن يرسلكِ للنوم."

"طابت ليلتك، يا بابا."

"طابت ليلتكِ، يا ميلي."

استدارت الصغيرة قانعة على جانبها لتواجه الحائط.

قال سيد إنغلاند بصوت خفيض: "إنكِ مُراعية جدا، يا دادة ماي. وأخشى أن الصغار قد نسوا دادة نانغل بالكامل."

هاجمتني موجة أخرى من التعب. ابتسمتُ ومسَّدتُ مئزري. تمنيتُ لو يذهب إلى غرفته حتى أعلق ملابسي وأنام.

"دادة ماي؟"

"نعم، يا سيدي؟"

"هل أنا رب عمل صالح؟"

نبرته البائسة فاجأتني. اختلستُ النظر إلى ميلي ثم أجبتُ بصوت خافت: "نعم، يا سيدي."

تناول دبدوب سول. "وهل أنا أب صالح؟"

"بالطبع، يا سيدي."

"هل كان والدكِ صالحا معكِ؟"

لحظة صمت. "كان كذلك، يا سيدي."

تنهد وبدا كليلا. "كان والدي يبغضني."

"أنا واثقة أنه لم يكن كذلك، يا سيدي."

"ماتت أمي بعد ولادتي بيوم. فكانت ذكرى لميلادي تحمل له دائما حزنا عظيما. وعندما بلغتُ العاشرة تزوج ثانية. كان عمرها ثمانية عشر فقط؛ أي طفلة في حد ذاتها. فلم تعرف كيف تكون أما لي، ثم أنجبت أطفالها واحدا تلو الآخر."

أصغيتُ إلى تنفس ميلي واطمأننتُ لما وجدته عميقا وبطيئا.

"بعد عودتي من المدرسة، لم تسمح لي بمشاركة إخوتي اللعب. إنه لشيء بئيس أن يشعر المرء بكونه غير مرغوب فيه بمنزله. بكونه عبئا. ذات مرة أهديتُ أخي جيمس صفارة بمناسبة عيد ميلاده، فألقتها في النار. وقالت أن الصفارات صنعت للكلاب. ماتت وهي تلد وكنتُ حينها في العشرين. فكانت صدمة لم يتعاف منها أبي قط." تغضن جبينه، وتركزت نظراته القاتمة على الحائط.

قلت: "آسفة لسماع هذا، يا سيدي. إلى أي حال صار؟"

"تزوج ثالثة. امرأة أكبر سنا، أرملة. دعوته إلى منزلي لرؤية أحفاده، لكنه لم يأتِ قط."

تحركت ميلي وتنهدت.

قال: "انظري إليهما. كم هما مطمئنان. آمنان مع مربيتهما في غرفة نومهما."

"يجب أن آوي إلى فراشي، يا سيدي،" قلتها وأنا أكتم تثاؤبي.

"هلا أسديتني خدمة واحدة، يا دادة ماي؟ هلا وضعتني في فراشي؟"

اختنق التثاؤب في حلقي. حسبتُ أني لم أسمعه جيدا. "عفوا، يا سيدي؟"

"ضعيني في فراشي، يا دادة ماي."

ازدردتُ لعابي. وهمست: "لا أفهم ما تقصده، يا سيدي."

اشتعلت عيناه بالعاطفة، وخفق ضوء السهَّارة داخلهما. "ليتكِ تهتمين بي، كما تفعلين مع الصغار. لا تخافي. كل ما أريده هو أن يُعتنى بي. وأنتِ تجيدين هذا كثيرا."

سادت ثوان عدة من الصمت، غمرني فيها شكل بطيء من الرعب وأنا أدرك جدِّيته.

"أرجوكِ." كانت كلمة وحيدة بصوت خافت وعميق، كأول مقام في بيانو.

مضى زمن، فيه حدق أحدنا في الآخر. كنت أعلم أنه احتسى النبيذ، لكنه لم يبدو سكرانا. فكرتُ في السيدة إنجلاند، التي تفصلها عنا أميال في عش الغراب، وتيلدا النائمة فوق ملحق المطبخ؛ حيث لم يكن سكن الخدم جزءا من المنزل الرئيسي.

ببطء ناولني السهَّارة، وبيد مرتجفة أخذتها منه. لم أعد مرهقة الآن، إنما مشحونة بتركيز متيقظ وأنا أقوده من جناح الأطفال عبر فسحة السلم المظلمة إلى غرفة تبديل ملابسه.

وقفتُ على عتبة الباب وقلت: "هل أحضر لك شيئا من المطبخ، يا سيدي؟" كم بدا صوتي هادئا، في حين دقَّ قلبي سريعا جدا.

"ماء حارٌّ وويسكي، من فضلك. القليل فقط."

"أين تضع الويسكي، يا سيدي؟"

"في غرفة مكتبي. الخزانة الواقعة على اليمين."

أخذت السهَّارة ونزلتُ إلى المطبخ المظلم في الطابق الأرضي. كانت سيدة مانيون قد تركت جانبا عجينة تحت قماشة؛ ودفترها الخاص بشئون المنزل مغلق على منضدة المطبخ، مُلطخا بالبقع. وقفتُ وأسناني تصطك، في انتظار أن يغلي الماء، وألف ذراعي حولي بينما تتسابق الأفكار داخل عقلي. خيم الصمت على المنزل، وخلت ألواح الأرضية من وقع أية أقدام. بحذر دخلت ملحق المطبخ المظلم، والذي فوقه نامت تيلدا بمفردها. مجموعة درجات سلم علت الجدار الخلفي، وتسلقتها بهدوء وحاولتُ فتح الباب. بيد أنه ككل أبواب المنزل، كان مغلقا أيضا. طرقته برفق وهمستُ باسم تيلدا، لكنني لم أجد سوى الصمت. طرقتُ مرة أخرى، وانتظرت نصف دقيقة، لكنها إما غطت سريعا في النوم أو خرجت خلسة. عدتُ أدراجي إلى المطبخ، حيث كانت الغلاية تبقبق، وصببتُ قدحا صفيحا، وبعدها ذهبت إلى غرفة المكتب بحثا عن الويسكي. وهناك ألقى المصباح بشعاعه الضئيل على ورق كريمي، وخشب ماهوجني مصقول، ومنافض سجائر كريستال وأنا أتحرك نحو الخزانة الواقعة في الركن البعيد. استقر مفتاح في القفل، لكن درفة الخزانة كانت

مواربة. وجدت القنينة وصببتُ قدرا في القدح، فتجعد أنفي أمام الرائحة. تزاحمت الظلال على حافة السهارة، وفكرتُ في إلسي، وما كنتُ سأنصحها بفعله.

"ضعي الشراب خارج باب غرفته وتمني له بحزم ليلة طيبة. ثم اذهبي إلى جناح الأطفال وأغلقي بابه بالمفتاح." منحني ثبات صوتي بعض الراحة. وفيما أمر بطاولة المكتب العظيمة الملمَّعة، توقفت، لأن شيئا ما لفت انتباهي. أجلتُ عيني فوق كومة الأوراق المبعثرة وسلطتُّ الضوء عليها: سطر واحد بخط مبهم، يلوح من تحت كتاب أسود كبير. أملتُ رأسي لأدقق النظر، وشعرتُ كأنَّ أحدهم سكب كوب ماء بارد على صدري. وقبل أن يُتاح لي وضع القدح لأحرك الكتاب، جمَّدني في مكاني صرير أعلاي. وبقيتُ هكذا لثانيتين، ثلاث، أربع، أشعر بوريد ينبض في أذني، ثم هرعتُ من غرفة المكتب إلى الردهة.

"دادة ماي؟" وقف سيد إنغلاند أعلى الدرج يحمل مصباحا.

"ها أنذا، يا سيدي."

كان قد بدَّل ملابسه وارتدى ثوب نومه. راقبني أصعد الدرج وقادني عبر فسحة السلم إلى غرفته، وهناك توقفت مرة أخرى عند الباب.

"تفضَّل، يا سيدي."

"ضعيه هناك فحسب."

وأشار إلى المقعد المجاور لسريره. فوضعته بحذر وتراجعتُ حاملة السهَّارة. "هل تأمرني بشيء آخر، يا سيدي؟"

"أخبرتني سابقا أن دكتور باول قال أن رحلة العودة إلى المنزل قد تكون خطرا على سول."

ازدردتُ ريقي، ورأيت شبح ابتسامة.

"لكن هذا ليس ما قاله. بل زعم أنكِ منعته من الدخول. بحجة أن الولد كان نائما، وأنكِ لا تريدين إزعاجه." سكت قليلا ثم استطرد. "هل طلبت منكِ زوجتي إخباري ذلك، يا دادة ماي؟"

لم أجب. رعشت السهّارة، ملقية ظلالا على الحائط.

"هل كثيرا ما تطلب منكِ زوجتي أن تكذبي علي، يا دادة ماي؟"

"لا، يا سيدي."

جلس متكئا على لوح السرير الأمامي ورفع ساقيه. "اجلسي، من فضلك،" قالها مشيرا إلى طرف السرير. أذعنتُ فجلسنا مثلما تجلس الممرضة إلى مريضها.

"أعتقد أنها كانت قلقة على سيد سول، يا سيدي."

أومأ برأسه. "أتعرفين، لقد أسميته تيمنا بملك إسرائيل. ظننتُ أنه سيمنحه القوة."

"أنا واثقة أنه سيتعافى، يا سيدي."

نظر لي سيد إنغلاند بتمعن. "لقد تحدّيتني اليوم."

مرت ثوان عدة من الصمت، دق فيها قلبي بعنف داخل قفصي الصدري، ولم أدر أين أضع عيني. لقد تمرّدتِ عليه، هكذا قالت من قبل السيدة إنجلاند. طفا وجه سيم داخل عقلي؛ كانت ستدعمني، أعرف أنها كانت ستفعل. كانت كلماتها، مهمتكِ قبل كل شيء، هي الحفاظ على حيواتهم.

"أنا مسرور لأنكِ فعلتِ،" استطرد بصوت خافت وحميمي. "لا أخشى الاعتراف بالهزيمة. ربما تكونين قد أنقذتِ حياته. إن أبنائي محظوظون بوجودك."

تنفستُ الصعداء، وأحكمتُ كلتا يدي على المصباح.

"لقد أظهرتِ شجاعة اليوم، يا دادة ماي. ممن تستمدينها يا ترى؟"

"لا أعرف، يا سيدي."

كنت قد وضعتُ القدح فوق الكتب المكومة على منضدة سريره؛ فرفعه واحتسى رشفة، ساحبا أول كتاب في الكومة ومعيدا القدح إلى مكانه.

"عندما تحدثنا في بداية مجيئكِ، وأخبرتني عن اهتمامكِ بتشكيل الأطفال لينتج منهم بشر صالحون، قلتِ شيئا عن الرخام. أم أنه كان قماش القنَّب؟"

"كلاهما، يا سيدي."

"ذكِّريني؟"

"قالت مديرتي أن عقل الطفل هو مادة أغلى من قماش القنَّب، وأروع من الرخام."

ابتسم. "رائع. أنا أيضا معنيٌّ بأمر العقل، والنقاش الدائر حول الطبيعة والتنشئة. هل سمعتِ عن المثقف ويليام دالبرغ؟" ورفع الكتاب عاليا.

"كلا، يا سيدي."

"إن مبادئه تبحث أصول شخصياتنا: هل نولد عجينة لينة -قماش القنَّب الذي تحدثتِ عنه- أم ننزع إلى سلوكيات... معينة.

ولنأخذ المجرمين كمثال." ولمعت عيناه. يعتقد دالبرغ أن الطبيعة هي العامل الرئيسي في تطورنا منذ الولادة، وأن بعضنا نزّاع إلى الأعمال الإجرامية أكثر من غيره. يظهر بحثه أن الوالدين يساهم كل منهما بالربع، والجدود بالسدس."

انتظرت.

"يفيد هذا بأن المجرمين يلدون مجرمين. هل تفهمين كلامي؟"

"أظن ذلك."

"وعليه، لكي يعيش ابن المجرم حياة خالية من الإجرام، فعليه أن يقلب ثلاثة أرباع نفسه على الربع الـ.... السيء." قال الكلمة الأخيرة همسا، وفي جسدي سرت قشعريرة. "لا بد أنه صعب. ليس مستحيلا، إنما صعب." وأخذ رشفة من قدحه. "أنتِ حيرانة، يا دادة ماي."

"لستُ ذكية في العلوم، يا سيدي."

ابتسم. "أعتذر. لا بد أنني سببتُ لكِ مللا عظيما."

"مطلقا، يا سيدي."

"ما دفعني إلى ذكر الأمر سوى اهتمامكِ بالطب العقلي. ما رأيكِ في عش الغراب؟"

"كان باهرا."

"هل ذهبتِ من قبل إلى مثله؟"

"كلا، يا سيدي."

"كنتُ في سن سول تقريبا عندما رأيته أول مرة."

"هل تعرف آل غريتريكس منذ الصغر؟"

"كان والـدي هـو المحامـي الخاص بهـم. وأصبحـت بمثابـة ابن عم لهم. قضينـا العديد من النهارات السعيدة هناك، نركض في الملاعب." كان في حالة تشبه أحلام اليقظة، ووجدتُ ذهني ينصرف عنـه، ويفكـر فـي طاولـة المكتـب الفوضويـة. قـال: "أنـتِ متعبـة. آسـف لأننـي استبقيتك."

"لا بأس، يـا سيدي." أفرغتُ كل خوف ورجفة الدقائق القليلة الماضيـة. كنـت مذعورة: لـم يكـن يكاتب والـدي بالطبـع. مـا رأيتـه في غرفـة المكتب لـم يكـن سـوى خطاب من شخص آخـر. وارد بالطبع أن يمتلـك رجـلان، أو عشـرة، أو ألـف نفس خـط اليـد. كان عقلـي يوهمنـي بأمور غيـر موجـودة. كل مـا طلبـه منـي سيد إنغلانـد هـو أن أحضـر لـه شـرابا قبـل النـوم وأجلس معـه قليـلا؛ لـم يكـن هنـاك سـبب يدعونـي لإيقـاظ تيلدا. مـاذا لو حضرت الآن! مـاذا سـأقول لهـا – أن السـيد أراد شـرابا قبـل النـوم؟ كنـتُ أهـذي من التعـب، ونهضـتُ لأنصـرف.

"ألن تعطينـي قبلة قبل النوم؟"

ابتسـمتُ، ظنًّـا منـي أنـه يمـزح، لكـن عينيـه الداكنتيـن ظلتـا ثابتتيـن علـى وجهـي. فكـرت في صورته نائمـا في العربـة، وصورته يقرأ فـي فراشـه وزوجتـه نائمـة فـي الغرفـة المجـاورة، بـلا أحـد يناقـش معه كتبه. تخيلته صبيـا، يعدو عبـر المروج في عش الغـراب، ويعود إلـى بيته منهكا وسعيدا، ليس إلا لتمزقه زوجة أبيه بكلمة قاسية، ونظرة حادة. وقبـل أن أدرك مـا أفعلـه، قطعـت المسـافة بيننـا وطبعـتُ قبلـة عفيفـة علـى رأسـه. فاحـت منه رائحة زيت الشعر ودخان السيجار، وثار شـيء

في معدتي. لم يتحرك، أو يبدُ أنه يتنفس، وببطء تراجعتُ، بجسد متصلب جراء صدمة ما فعلته. لم أجد في قدرتي النظر إليه، وكل ما أدركه هو عيناه الداكنتان، اللتين كانتا متأججتين بانفعال لم أفهمه.

"طابت ليلتك، يا سيدي."

عدت مهرولة إلى جناح الأطفال، وأغلقت الباب خلفي بالمفتاح متمنية لو بوسعي ابتلاعه.

***

"هل نومكِ ثقيل، يا تيلدا؟" سألتها وهي تضع الفطور صباح اليوم التالي.

أجابت: "أفقد الوعي. لماذا، هل طرقتِ بابي؟"

"نعم" قلتها، وأنا أقطع خبزا لتشارلي. "كنت... أبحث فقط عن شيء في المطبخ."

أسندت الصينية إلى ردفها. وقالت: "آسفة. عمال الإيقاظ يضطرون لاستخدام مرزبَّة على نافذتي." كانت هذه أول مرة تمزح فيها معي، لكنني لم أقدر على الابتسام. أضافت: "أخبرتني سيدة مانيون عن السيد الصغير سول. أتمنى أن يكون بخير."

"سوف يكون بخير. وهذا يذكرني بسؤالك، هل يمكنكِ حزم حقيبة للسيدة وأنا سأحزم واحدة لسول؟ برودلي سيأخذهم إلى عش الغراب هذا الصباح."

"سأقوم بذلك الآن. هل وجدته إذن؟"

"وجدتُ ماذا؟"

"ما كنتِ تبحثين عنه؟"

"نعم، شكرا لكِ."

قالت بعد وهلة: "حسنا. يحسن بي مباشرة العمل."

كنتُ قد فتحت صندوقي في ضوء الفجر الضعيف، قبل استيقاظ الصغيرين. وأول ما فعلته هو فتح علبتي الصفيح والبحث عن الأظرف، والتي كانت ما تزال هناك، مغلقة ومعقودا عليها برباط حذاء، لم يعبث بها أحد. تناثرت فوق الأركان أختام البريد شبيهة ببقع دم. بعدها أخرجتُ ورقة فارغة من ورق الرسائل وذهبت إلى الفراش؛ كان جناح الأطفال باردا لكن إشعال المدفأة يمكن أن ينتظر عشر دقائق أخرى. كتبت، عزيزي آنسة سيمبسون. جلستُ المدة التي استغرقتها قطرة حبر لتتكون على سن القلم.

قالت ميلي من فراشها: "دادة ماي، أحتاج للتبول."

كرمشتُ الورقة ورميتها في موقد المدفأة وأخرجت مبولة الغرفة.

بعد الفطور أردت الابتعاد عن المنزل. انتظرت صوت الباب الرئيسي، وأنا أختلس النظر من الشيش لأشاهد سيد إنغلاند يقطع الفناء بخطوات واسعة في قبعته ومعطفه. تنازل داخلي الرجاء والخوف أن يأتي إلى جناح الأطفال؛ ووسط إصغائي لكل صرير وهمهمة، أوقعتُ وعاء الرماد على أرضية المدفأة، واضطررت لكنسه وتشارلي يصرخ في سريره.

جهزتُ الصغيرين للخروج ووضعتُ تشارلي مع بقسماطة في عربته. وعلى الممر المؤدي بالبوابة، التي أكافح دائما لعبورها، جاء صوت من الناحية الأخرى للفناء.

"لماذا لا تستخدمين الباب الخلفي؟"

أجفلتُ بشدة. "سيد بوث، لقد روّعتني."

جاء لمساعدتي، فرفع عربة الأطفال ومررها من المساحة الضيقة وأسفل العتبة.

قلت له: "الصغار يستخدمون الباب الرئيسي."

"بأمر من؟"

"أنا. أخشى أن السيد سول ليس هنا."

"أوه. وأين هو؟"

فطفقتُ أبكي.

"ما الخطب؟"

مكتبة
t.me/soramnqraa

أسرعت ميلي لتقف إلى جواري، وعيناها واسعتان من القلق.

"معذرة." تلمستُ جيوبي بحثا عن محرمة. ناولني سيد بوث واحدة، فشكرته، وألصقته بوجهي. فاحت منها رائحة صابون فحم، فارتسمت صورة بليز وهي تغسل ملابسهما، مُدندنة لنفسها في مطبخ مُشمس.

قلت: "إنه ربوه. سقط مريضا في حفل البارحة، لذا سيبقى في عش الغراب أسبوعا أو اثنين. أنا آسفة، كان عليَّ إشعارك."

"لكن طبيبا رآه؟"

قلت، وأنا أدس المحرمة في جيبي: "أجل، أجل، وإن كنتُ آمل ألا يأتي مرة أخرى." ثم كررتُ: "سيكون بخير. معذرة. لا يجدر بي البكاء أمام الأطفال."

"ولم لا؟ الأطفال أكثر من يبكي." ثم استدار إلى ميلي وقال بصوت بهيج: "آنسة ميلي، ما رأيكِ أن نصحب مربيتكِ في نزهة على الأقدام للترويح عنها؟"

"لا بد أن لديك ما تقوم به أفضل من هذا."

"حسنا، لقد جانبكِ الصواب. سيدتي؟" ومد ذراعا لميلي، والتي تناولتها، مُقهقهة، وانطلقنا نسير جماعة.

سأل: "إلى أين نذهب؟"

هتفت ميلي: "الشلال!"

قلت: "أوه، إنه بعيد جدا."

"فليكن الشلال إذن."

عبرنا ساحة المصنع، واختلستُ النظر إلى نوافذه.

سأل سيد بوث: "كيف كان الحفل؟"

قلت: "حسنا. كان..."

"تاهت منك الكلمات هذا الصباح؟"

ابتسمت. "كان لا يشبه أي حفل ذهبتُ إليه. كان حجمه هائلا؛ حتى لأعجز عن تخيل كمية الطعام التي أمروا بها."

"وما الذي جرى للسيد الصغير؟"

توقفتُ عن السير. "ماذا تقصد؟"

"قلت أن ربوه هو السبب."

"آه." لخصتُ له ما حدث، مُغفلة الجزء الخاص بالحقنة، وما حدث بعدها.

خلَّفنا وراءنا صخب المصنع ومررنا بالبركة، حيث عامت أزواج بط في خمول. وطلبت ميلي: "هل يمكننا إطعامها؟"

أخبرتها: "لا نملك أي خبز. ربما في الأسبوع القادم."

ابتعدنا عن دخان الفحم إلى حرم الغابة، حيث الهواء نقي وبارد.

قال سيد بوث: "سيفتقد كرسيه المتحرك. سآخذه إليه في عش الغراب."

"إنه لطف منك. سيفرح بذلك لا شك."

سبقتنا ميلي لتبحث عن عيش الغراب، ودغدغ سيد بوث ذقن تشارلي.

"سمعتُ أنك ستصبح أبا."

رفع عينيه لتقابل عيني، ثم أشاح بهما. "أجل."

قلتُ: "تهانينا،" لكنها خرجت جوفاء.

"شكرا لكِ."

"كيف حال سيدة بوث؟"

"سيدة بوث. أول من يخطر ببالي عندما تقولين هذا هو أمي. إنها بخير." المطبخ المشمس؛ والغسيل. تخيلت سيد بوث وهو يعود إلى المنزل حاملا حقيبته، فيثبت يده على بطنها، وشفتيه على شفتيها.

"متى تتوقعان ولادة الطفل؟"

"شباط."

كانت مفاجأة. "لم يتبق الكثير."

قال: "لم يتبقَّ الكثير". بم وصفني في الليلة التي سبقت يوم الزفاف؟ أنتِ غرَّة جدا، يا دادة ماي.

مشينا على أكثر جزء مستوٍ من ضفة النهر. ومن حولنا، كانت ألوان الغابة تتغير، فانسلت عن الأشجار أوراقها لتتساقط على الأرض، وهناك التصقت بعجلات عربة الأطفال. وكان عليَّ بعد كل

مرة نخرج للتنزه، أن أنظفها في غرفة خلع الأحذية، بيد أنني وجدتُ شفاء لغليلي في إزالة كل الأوساخ.

وصلنا إلى حجر عبور الماء، الشبيهة بأسنان مفلطحة كبيرة في فم النهر الواسع. في غياب منافسها سول، وثبت ميلي فوقها على مهل، وبعد قليل انضم إليها سيد بوث. تظاهر بمطاردتها فنطّت وهي تصرخ من صخرة إلى الأخرى.

ناديتُ: "انتبها."

هتفت ميلي: "دادة ماي، تعالي واقفزي معنا." كانت سعيدة بانفرادها بي، وأنا أيضا، كان يفترض بي أن أجد متعة في منحها المزيد من الاهتمام، لكن جزءا مني شعر أن غياب الاثنين الآخرين كان فشلا مني. فوقفت متوترة ونزقة، على اليابسة، أهز عربة الأطفال.

"عودي الآن، من فضلك، يا ميلي."

"إنه ليس عميقا!"

وصل سيد بوث إلى الضفة المقابلة وعاد أدراجه، فنط الدرجات ورمى بنفسه إلى الخليج الرملي الصغير الذي أحيانا ما بحثنا فيه عن سمك المنوة.

"ميلي، عودي من فضلك."

انزلقت وصرخت، لكنها لم تقع، وفي ثوان كان سيد بوث عندها. فحملها بيسر، وعبر بها الماء، وأنزلها على ضفة النهر.

"أمرتكِ أن تعودي،" صرخت، وأنا أشعر بالحرارة تندلع في خدي فيما تحسستُ تنورتها الداخلية، ووجدتها جافة. "كان محتملا أن تغرقي."

قالت وسط عويلها: "لم أسقط في الماء."

"كلا، ولكن كان ممكنا أن يحدث."

غمز سيد بوث لها. "خيرا حدث، ها؟"

أدرتُ لهم ظهري، وأنا أدفع عربة الأطفال عكس النهر. انهمرت مياه الشلال هادرة فوق تيار النهر الثابت، مصطدمة بالجرف والصخور المسننة لتلحق بالمياه في الأسفل. كانت الأرض المحيطة بالشلال كتلة من الأحجار المتكسرة، وكأن أحدهم دقها بمطرقة عظيمة، وفي الحال تذكرتُ تومي شيلدريك.

"سيد بوث،" قلتها بينما نراقب ميلي تشق طريقها فوق برك الصخور. "من أين تعرف تومي شيلدريك، الحداد؟"

معَّج فمه بلا اهتمام. "لا أعرفه في الحقيقة. أعتقد أنه يواعد إحدى قريبات بليز. لماذا تسألين؟"

"لا شيء. لقد دعا الصغار لزيارة ورشته قبل بضعة أسابيع."

"هذا لطف منه."

"من هي قريبة بليز؟"

"فتاة تدعى لوسي. تعمل صرَّافة في البنك."

تركت الأمر يمر وغرقنا في صمت يعج بالأفكار.

"لستِ على طبيعتكِ، يا روبي." كان قد انتظر أن تبتعد ميلي أكثر قبل مخاطبتي باسمي مجردا، وشعرت بشيء ينهار داخلي.

تنهدت. "أنا مشتتة فحسب."

"إزاء ماذا؟"

"إزاء الكثير من الأشياء."

"أكملي."

"أنا قلقة على ديكا، التي لم تكاتبني حتى الآن. وسول. توجب عليَّ أن أراقبه بعناية لكني كنت على بعد أميال عندما حدث ما حدث. توجب عليَّ أن أمنعه من إرهاق نفسه؛ توجب عليَّ أن أبقى معه.

"لم يكن بوسعكِ فعل شيء. إنكِ لا تملكين عينين خلف رأسك، وقلتِ بنفسكِ أنه سيصبح بخير." قالها ملحا. "أنتِ مهمومة، هذا كل ما في الأمر."

"يداخلني فقط شعور بأن..." راقبتُ ميلي وهي تقفز بين الصخور، وذراعاها مبسوطتان كأجنحة. "لا عليك."

"شعور بأن ماذا؟"

"أن ثمة شيء غير طبيعي هنا."

كنتُ أعي أن سيد بوث يركز أنظاره فوقي، وخيِّل إليَّ أنه يحبس أنفاسه. "ماذا تقصدين؟"

"في المنزل. مع العائلة."

"آه." هبطت الكلمة كالحجر.

"ما الذي ظننتني قصدته؟"

نظر عميقا جدا لي، فذكرني بسيد إنغلاند ليلة البارحة، حتى أنني تراجعتُ أمامه.

"هل كل شيء على ما يرام، يا روبي؟"

أجبتُ: "كلا. لكني لا أعرف ما العمل. لا يمكنني ترك وظيفتي."

"ولم لا؟ وذلك لا يعني أنني أريدكِ أن ترحلي بالطبع."

سادت لحظة صمت حرج. "وعدتُ مديرتي بأنني سأبقى مهما حدث. لقد حاربتُ للحصول على هذه الوظيفة. كانت ممانعة في إرسالي إلى هنا -لأنها لم تكن ترى أنني سأقدر على التعاطي مع أربعة أطفال- لكنني توسلت إليها حرفيا لتوافق على قدومي، وها أنا الآن قد فقدتُ اثنين منهما... وبكل صدق، أشكُّ في أن عليَّ أن أتركهم بأية حال."

"لماذا تقولين هذا؟"

"ضفدع! دادة ماي، وجدتُ ضفدعًا!" أعادتني صرخة ميلي المتهللة إلى رشدي.

"إنس أنني قلت أي شيء."

تقدَّم سيد بوث خطوة نحوي. "روبي، أنا..."

"دادة ماي!"

"أنا قادمة،" هتفتُ. وتركتُ سيد بوث مع عربة الأطفال وسرت بضع خطوات نحو جملة الصخور، ثم التفتُ للحظة. "معذرة، ماذا كنت تقول؟"

لاح تعبير غامض على وجهه وكان حائرا. "لا شيء،" قالها، ومنحني ابتسامة مزيفة كابتسامتي.

الفصل الخامس عشر

انتظرنا في غرفة المعيشة حتى الخامسة والنصف، وعندها أصبح واضحا أن سيد إنغلاند لن يأتي لرؤية الصغيرين. وقفت عند النافذة، لكني لم أجد ضوءا في الفناء، ولا فانوسا يتمايل على الممشى. أمسكتُ بيدي تشارلي وقدته إلى المطبخ.

"سيدة مانيون، هل تعرفين أين السيد؟"

"قال أنه سيتأخر حتى المساء، لذا أعد عشاء خفيفا فقط ليتناوله عند عودته."

بقبق حساء فوق الموقد ورشّت فلفلا، وهي تنشف يديها في مئزرها وتنزل علبة البسكويت. ناولت بسكوتة زنجبيل لكل واحد من الصغيرين، وشكرتها ميلي.

"لم يخبرني أنه سيخرج،" قلتها، محاولة ألا أظهر إحباطي. "لقد جهزت الصغيرين."

"أخشى أن هذا كل ما أعرفه. هاكما واحدة أخرى قبل النوم."

منحت لكل واحد بسكوتة أخرى وعادت إلى موقعها أمام الموقد. تركتُ تشارلي يمشي الهوينى حتى قاعدة الدرج، ثم تذكرت شيئا فوجّهته إلى المطبخ مرة أخرى.

"سيدة مانيون، هل وصلت أية خطابات اليوم؟"

"لا أعرف شيئا عن هذا؛ فالسيدة هي من تتكفل بتلك الأمور. اسألي تيلدا إن وصل شيء. أتصور أنها كانت لتضعه على الطاولة."

عدا المزهرية المألوفة التي حوت زهور بانكسيا جافة، كانت طاولة الردهة فارغة. مررنا بغرفة المكتب، وتذكرتُ ما كنتُ رأيته في الليلة السابقة.

قلت: "ميلي. هلا أسديتني خدمة وصحبتِ تشارلي إلى غرفة المعيشة؟"

أمسكت بيديه كمُحرِّك دمى وابتعدت به. وعندما انعطفت، أدرتُ المقبض النحاسي الأملس لباب غرفة المكتب؛ لم يكن موصدا.

كانت الغرفة معتمة دائما سواء كنا بالنهار أو الليل، مع شعاع ضوء أخضر يتسلل من الغابة. وأنا عند الباب رأيتُ طاولة المكتب مرتبة، وسطحها خال من الورق؛ ولا أثر للكتاب الأسود. أخذتُ خطوة مترددة إلى الداخل عندما سمعتُ صوت تهشم من الغرفة المجاورة، تبعه نواح شديد.

في غرفة المعيشة، وجدتُ تشارلي مفلطحا على السجادة يصرخ، جوار مقعد البيانو المقلوب.

هتفت ميلي: "رفض الاستقرار في مقعده! ما انفك يحاول النزول!"

"لا بأس،" قلتها، وأنا أحمل الرضيع وأهدهده. "اهدأ. أنا هنا الآن."

صُفق الباب الأمامي. "لا بد أن هذا والدكما،" هكذا أخبرتُ الصغيرين، وأنا أتنفس الصعداء لأنه تأخر عن ضبطي أنظر في غرفة مكتبه بفارق ثوانٍ. لكني لم أسمع وقع أقدام، لا حفيف حركة. خرجتُ إلى الردهة ورأيت سيد إنغلاند واقفا عند الباب الأمامي وقبعته في

يديه. كانت عيناه الداكنتان مضطربتين، واندلعت موجة من المشاعر المعقدة في صدري.

قلت: "طاب مساءك، يا سيدي."

"طاب مساؤك." ثم رفع ناظريه إلى أعلى الدرج، والتفتُّ إلى حيث ينظر لأرى السيدة إنجلاند تصعد الدرج. وخيم الصمت للحظة .

"هل نسينا حزم شيء، يا سيدي؟"

هز رأسه نفيا.

"بابا!" تشبثت ميلي به.

شعرت ببرودة فجأة. "هل هو سول؟"

"كلا. دادة ماي، هلا اصطحبتِ الصغيرين إلى جناح الأطفال؟ أخشى أنني لن أستطيع الالتزام بموعدنا هذا المساء."

"أمرك، يا سيدي. حالا، يا سيدي."

فُتح باب المطبخ وأقبل برودلي حاملا صندوقا على كتفه.

"هل تريده في الطابق العلوي، يا سيد إي؟"

"شكرا لك، يا برودلي."

حللتُ يدي ميلي من حول أبيها ورافقتُ الصغيرين إلى غرفة نومهما، وهناك وضعتُ تشارلي في مهده وجثوتُ أمام النار لتحريكها. وجدت دلو الفحم فارغا تقريبا، فطلبت من ميلي أن ترتدي ثوب نومها بينما أنزل لإحضار بعض منه. وفي فسحة السلم، رأيتُ باب السيدة إنجلاند مواربا.

انبعث صوتها الناعم يقول: "تيلدا، هل هذه أنت؟"

"أنا دادة ماي، يا سيدتي."

"هلا طلبتِ من تيلدا أن تجهز لي حماما؟"

"أمركِ، يا سيدتي."

"شكرا لكِ."

نزلتُ مهرولة إلى الطابق الأرضي، مارَّة بغرفة مكتب سيد إنغلاند في طريقي إلى المطبخ. كان الباب مفتوحا، وتوقفت في مكاني. كان السيد جالسا على طاولة مكتبه ورأسه بين يديه. لم يبدُ أنه سمعني، ونظرتُ إليه، متسمِّرة، ودلو الفحم مرتخيا في يدي.

مرر يديه على وجهه، وكأنه يمسح كل غبار ووسخ اليوم. ووجدتني ما زلت عاجزة عن الحركة، والتقت عينانا. تمكن من رسم ابتسامة، وإن بدا أنها كلفته جهدا عظيما.

"هل أحضر لك أي شيء، يا سيدي؟"

هز رأسه ونهض من على مكتبه وأتى ليقف قبالتي. "أنتِ طيبة جدا معي،" قالها، وأغلق الباب برفق.

أردتُ البكاء. تمنيتُ لو أعرف سبب قنوطه. تمالكتُ نفسي ونزلتُ إلى القبو لأحضر الفحم، ثم ذهبت أطلب تيلدا، التي كانت تلمِّع الأواني الفضية في غرفة الطعام. وكانت مستغرقة في عملها تماما، فدندنت لنفسها، ولم تسمعني أدخل. قررت ألا أقاطعها؛ وأجهز حمام السيدة إنجلاند بنفسي.

وضعتُ ميلي في فراشها مع كتاب قصص، ثم شرعتُ في المهمة الشاقة لملئ حوض الاستحمام من المرجل، فحملتُ الماء إلى الطابق العلوي وأفرغته في الحوض. عاينتُ الحرارة بمرفقي،

كما أفعل مع الصغار، وأخرجتُ مكعب صابون جديد ومنشفة نظيفة. وأخيرا، رتبتُ أغراض حلاقة سيد إنغلاند على حوض غسيل الوجه وأخفضتُ إضاءة مصابيح الحائط إلى درجة وهج لطيفة قبل أن أذهب إلى غرفة السيدة.

كان الباب ما يزال مواربا، فطرقته وأخبرتها أن الحمام جاهز.

أجاب صوتها الناعم: "شكرا لكِ، يا دادة ماي."

تلكأتُ في المغادرة، بشوق لأسألها ما الذي أعادها إلى المنزل، ولماذا لم يأتِ سول معها. شعرت في اليوم السابق وكأن شيئا انزاح بيننا؛ لكن ربما كان ذلك بسبب تغير المكان، لأن السيدة إنجلاند أغلقت نفسها ككتاب مرة أخرى. على جانبي، كان باب غرفة ملابس سيد إنغلاند مُغلقا. تخيلتُ ما ستقوله إن عرفت ما حدث، وكم ستكون مجروحة. سرى الذنب في جلدي، ومعه شيء أقل ألفة، وأكثر خطورة، أخذ مكانها في أعماق جسدي، في مكان لم يسبق لي أن شعرت فيه بشيء.

"كيف حال السيد الصغير سول، يا سيدتي؟" نظرت عبرة الفجوة إلى السرير الحديدي، واللحاف الكريمي. يتضاجعان مثل كلبين في حفرة. نفضتُ رأسي.

"تحسن كثيرا. سيعود إلى المنزل خلال أسبوعين."

"يسرني سماع هذا، يا سيدتي. إن احتجتِ لشيء آخر، فأخبريني."

"شكرا لكِ."

في جناح الأطفال، كانت ميلي قد راحت في النوم وهي جالسة. رفعتُ الكتاب من حجرها ووضعته تحت السرير، وحينها لاحظت أن النار تكاد تنطفئ، وأدركت أنني نسيت الفحم في ملحق المطبخ. إحضاره الآن أفضل من إحضاره في الصباح.

في فسحة السلم قابلت السيدة إنجلاند في طريقها إلى الحمام. كانت تتشبث بإفريز الحائط، وكأنها تتعكز عليها، ويدها الأخرى على بطنها. وفورا نسيت نفسي وذهبت لأساعدها، بمدِّ ذراعي. "سيدتي، هل أنتِ على ما يرام؟"

"أنا بخير. إنها معاناة كل شهر." كانت واهنة جدا؛ لم أكن قد لاحظتُ كم ازدادت نحافة.

"سيدة مانيون تعد حساءً، قد يساعدكِ."

منحتني ابتسامة شاحبة. "ربما لاحقا. شكرا لكِ."

أغلقتِ الباب، ووقفتُ في فسحة السلم، أسمع الرنين البعيد لملاعق تيلدا. جلبتُ الفحم، لكني قبل غلق باب جناح الأطفال بالمفتاح لهذا المساء، لم أستطع منع نفسي من التوقف في نهاية الدرج. ثمة شيء غير طبيعي؛ شيء ملوث في الجو. تسللت على أطراف أصابعي إلى الحمام وأنزلت عيني اليمنى إلى ثقب المفتاح، مع إغلاق اليسرى. رأيت قواعد حوض الاستحمام، والمقعد الصغير عليه المنشفة والصابون. وفستان السيدة إنجلاند الوردي -الفستان الذي ارتدته بالحفلة- قد ألقي مكوما على الأرض، وارتفعت عن البلاط أولا قدم بيضاء، ثم الأخرى.

نظرتُ ورائي ثم نزلتُ على ركبتي. تحرك الفحم داخل الدلو، وحبست أنفاسي. حدثت رشرشة ماء خفيفة، ورأيت ساقا، ثم مؤخرة، ثم ظهرا. كانت تتحرك بصعوبة، ونزلت في الماء على مهل، متشبثة بحافتي حوض الاستحمام. كان جلدها بلون الحليب، وشعرها ينسدل على ظهرها مثل ستارة مذهبة. مثل شلال.

تراجعت. ما الذي بحق السماء أفعله بالتسلل والتلصص عبر ثقوب الأبواب؟ تخيلتُ ما ستقوله سيم إن رأتني، وأغثاني الخجل.

***

عزيزتي إلسي،

هل وصلكِ خطابي الأخير؟ سألتُ هل استلمت أمي الحوالة البريدية. آمل أن تكون وصلت. قال الكاتب في مكتب البريد أنها كذلك. وإن لم تكن وصلت فسوف أذهب إلى هناك وأستفسر. هاكِ بطاقة بريدية أخرى، كما وعدت، لصخور هاردكاسل. أعتقد أن المنزل قد سمي تيمنا بها. لا يظهر هذا في الصورة، لكنها بلون الطوفي، وعالية جدا. يحب الصغار اللعب عليها والاختباء في الفراغات. أحيانا يقفزون من مخابئهم ويفزعونني! لم أفتح خطاب أبينا، لكنكِ ستخبريني لو أنه أمر مهم، أليس كذلك؟ أكتبي لي رجاء في نفس يوم وصول الخطاب، حتى أعرف أن النقود قد وصلتكِم.

أقامت العائلة التي أعمل عندها حفلة في نهاية الأسبوع، وكانت هناك حيوانات ألبكة ليلاعبها الأطفال. إنها كائنات غريبة

المظهر: ناعمة جدا يكسوها الفرو، برقاب طويلة وأجسام مربوعة. أظن أصولها من بيرو. أتمنى أن تكوني بصحة جيدة تمكنكِ من الذهاب إلى المدرسة قريبا. لن أحب أن تتخلفي عن الآخرين.

كل حبي لكِ وللصبيان،

روبي

أيقظني بكاء تشارلي، وسحبني إلى السطح من أعماق حلم مبهم. لا نسمة هواء واحدة حركت الستائر، لكن النهر هذر خفيفا في الأسفل. كان تشارلي قد صمت بالفعل وعاد إلى النوم. استدرت على بطني، وأنا أنفض رواسب الأفكار والذكريات التي أيقظها النوم العميق. أنتِ طيبة جدا معي. فكرتُ في غرفة ملابسه التي يضيئها مصباح، والقدح الذي يتصاعد منه البخار إلى جانبه. حفيف وحركة ثياب نومه، ورائحة عطر شعره. قلبت الوسادة، وكان ملمس القطن باردا على خدي. أمسك بيدي. روبي، أنا... كلا، كان هذا إيلي عند النهر. ماذا كان على وشك أن يقول؟

سعل تشارلي. كنت نائمة في وجه الحائط ففتحت عيني، وقد أدركتُ الآن رائحة كبريتية، وكأن أنبوب غاز تُرك مفتوحا. كانت الرائحة ضعيفة، ممتزجة بالهواء البارد القادم من النافذة، واختفت عندما جلستُ في السرير. جثوتُ على ركبتي مقطبة الجبين، لأفحص كتيفة الحائط التي تعلو لوح السرير الأمامي، مقرِّبة أنفي من غطاء المصباح الزجاجي. لم تزدد قوة الرائحة؛ ولا هسيسا منبها. فتحت الباب وفحصت المصابيح في الممر وغرفة النشاط. جميع المحابس مغلقة، والأنابيب صامتة، لكن الرائحة جليَّة. هرعتُ إلى المسكن

الرئيسي.

وفي فسحة السلم، صفعتني بقوة رائحة الكبريت النتنة. هرعت إلى كل مصباح على الحائط ومصباح السقف؛ جميعها مغلقة، وكذلك مصابيح الحمام. طرقت بقوة باب سيد إنغلاند، وأنا أصرخ، وبعدها غرفة السيدة. خرج سيد إنغلاند أولا، مُندفعا إلى فسحة السلم في ثوب نومه، وهو يشد حوله روبا. وفي يده مصباح غير مضاء.

"لا، يا سيدي!" وانتزعته منه ووضعته على الخوان. "سيدتي؟" خبطتُ على الباب مرة أخرى.

"ما الأمر بحق السماء؟"

"الغاز، ألا تشم رائحة غاز؟ لا أعرف من أين تأتي."

"يا إلهي."

غاب سيد إنغلاند في غرفته، وشاهدته من الباب يمد يده إلى قرص مصباح السقف، فيشمه ويديره ويطفئه مرة أخرى. "ليس هو."

"إنه من غرفة السيدة إذن. أو ربما الطابق الأرضي."

أسرعت إلى غرفة مبيت الضيوف في مقدمة المنزل. كانت الغرفة مظلمة وباردة، مع سيل صغير من السخام المتساقط على أرضية المدفأة. وتدفق ضوء القمر عبر الستائر المنفرجة.

عدتُ ركضا إلى فسحة السلم وخبطت بعنف على باب السيدة. "السيدة إنجلاند، استيقظي! لا تضيء أية مصابيح." لم أكترث أني أقف في ثوب نومي أمام السيد مع شعري مُبعثرا، وأصرخ كامرأة مجنونة. "عليك أن تفتح الباب، يا سيدي."

أنبأ وجهه عن استيعابه فورا، وغطس داخل غرفة الملابس. كانت الرائحة تزداد قوة. نزلتُ على ركبتي ووضعتُ أنفي عند فتحة الباب السفلية، لأجعده اشمئزازا على الفور.

"السيدة إنجلاندا" سعلتُ وحاولت كتم أنفاسي.

وبعد لحظة، كان سيد إنغلاند أمام قفل الباب، فأدخل بتخبط مفتاحا نحاسيا صغير ودفع الباب على مصراعيه. كانت الغرفة معبأة برائحة الغاز الخانقة، كافية لأشعر بالغثيان والدوار؛ دختُ ووضعت يدي على فمي. كانت السيدة نائمة، وجسدها الهزيل يصنع بالكاد تلا صغيرا تحت الأغطية.

"ليليان." هزها سيد إنغلاند، لكنها كانت مرتخية كدمية قماش. "ليليان، استيقظي."

أزال اللحاف ورفعها فيما أسرعتُ إلى أكتفة الجدار. كان المصباح المثبت على الحائط المواجه للسرير يصدر هسيسا خافتا، لا يمكن تمييزه عن صوت النهر؛ ومن لطف الأقدار، أن السيدة إنجلاند نامت ونافذتها مفتوحة. أغلقت المحبس ودفعتُ زجاج النافذة على مصراعيه.

حملها سيد إنغلاند من الغرفة وأغلقتُ بابها خلفي، وبعدها ذهبتُ إلى خزانة الملاءات وكوَّمتُ ملاءة سرير عند عتبة باب السيدة. ثم فتحت كل نوافذ الطابق العلوي.

استيقظت ميلي على صرير زجاج النافذة وجلست في سريرها، ووجهها مجعد بسبب النوم والارتباك. وسألت: "ماذا

تفعليـن؟"

اطمأننـت علـى تشـارلي، فوجدتـه يحلـم بسـلام، وقبضتـاه علـى جانبي رأسه.

قلت لها: "شش. عودي إلى النوم."

"دائما تأمرينني بالعودة إلى النوم."

"لأنه وقت الليل."

"لمـاذا النـافـذة مفتوحـة حتـى الآن؟ أنـا بردانـة. هـل يمكننـا إشعال المدفأة؟"

"ليس الليلة. سأغلق النافذة بعد قليل، لكن عليكِ أن تعودي للنوم أولا."

أخـذت اللحـاف مـن سـرير سـول وفرشـته فـوق لحافهـا، وأنـا لا أتوقف عن التفكير في السيدة إنجلاند وجسدها المرتخي كدمية قماش. كيف نامت لساعات جوار أنبوب يسرِّب غازا. ورحلتها العصيبة إلى الحمام سابقا، وكأن كل خطوة كانت تسبب لها ألما.

كانـت سـاعتي فـي جيـب مئزري، الـذي يتدلـى مـن المشـجب؛ وأشارت إلى الحادية عشرة والنصف. كانت الليالي هنا طويلة جدا ونافذة. كان منزل رادليت يتوقف تدريجيا مثل لعبة ميكانيكية، فيُصدر أصواتا خافتة تمهيدا للنوم فيما يغلق المربع نوافذه واحدة تلو الأخرى، أما في يوركشاير فالصمت فوري، والظلام كثيف.

استكانت ميلي في حضني وتذكرتُ ديكا من جديد، بعيدة أميالا وأميال في فراش غريب. هل ترقد مستيقظة تفكر فينا يا ترى؟ شعرتُ في الأيام التي تلت رحيلها بالندم لأنني لم أرافقها إلى المهجع

وأساعدها في إفراغ حقيبتها.

استقرت أنفاس ميلي. وبدأت الرائحة الكريهة تتلاشى بالفعل، وسرت في جسدي قشعريرة مما كان سيحدث لو لم يصرخ تشارلي. عندما نامت ميلي، سوَّيتُ وضعها تحت الأغطية وتسللت إلى فسحة السلم. خلا المنزل من أية جلبة، ولا إشارة للمكان الذي أخذ إليه سيد إنغلاند زوجته.

وجدتها في غرفة المعيشة، ممددة على الأريكة في ثوب نومها. كانت مستيقظة وعيناها نصف مفتوحتان، تطرفان في وجهي تحت ضوء القمر الخافت كمخلوق لا أرضي. أقبلت خطى أقدام من نهاية الردهة، وظهر سيد إنغلاند من المطبخ مع كوب ماء.

"هل أنتِ بخير، يا سيدتي؟ هل تحبين أن أوقظ تيلدا؟"

أجاب سيد إنغلاند: "لا داعي، سأرسل في طلب الطبيب صباحا،" وناول زوجته الكوب. فأخذت رشفة بيد مرتجفة." هل الصغيران بخير؟"

أجبت: "نعم." بقي السؤال التالي معلقا في الجو مثل دخان سيجار. من ترك الغاز مفتوحا؟ أضاءت تيلدا المصابيح ليلا، لكن لا أحد فينا توقع عودة السيدة إنجلاند، والتي أنا واثقة في أنها أوت إلى غرفتها قبل أن يسع تيلدا تجهيزها. وأنا لم أدخلها، بل تحدثت إليها من فسحة السلم فقط. هل كان الأنبوب يسرب حينها بالفعل؟ ربما فتحت تيلدا المحبس والسيدة إنجلاند في الحمام، ثم نسيت سهوا إغلاقه. كان برودلي قد حمل صندوقها إلى الطابق العلوي؛ هل يحتمل أنه أضاء الأنوار؟"

وقف سيد إنغلاند دون حراك فوق السجادة، يداه شاغرتان في مظهر غير مألوف. كنتُ أعرف أنه يتحرَّق لإشعال عود ثقاب، لوضع سيجار في فمه. بخلاف عش الغراب، كان في أكثر حالاته ضيقا.

قلت: "لقد فتحتُ نوافذ الطابق العلوي."

"شكرا لكِ."

تزحزحت السيدة إنجلاند وانكمشت.

"هل أجهز لكِ سريرا هنا، يا سيدتي؟"

قال سيد إنغلاند: "سأقوم أنا بذلك. إنما يمكنكِ إحضار روب نومها وخفيها في هذه الأثناء."

"أمرك، يا سيدي."

وجدتُ روبها المشمشي معلقا على عمود السرير، وبحثتُ بيدين مرتجفتين عن خفيها، لكني لم أجد شيئًا على الأرض. استقر الصندوق الذي كانت تيلدا قد وضَّبته صباحا تحت النافذة. فجثوتُ أمامه وفتحته. كانت معظم الملابس مطوية بعناية، ووجدت خفي النوم مدسوسين في أحد الأركان، تحت ورقة عليها مربعات ملونة. دققتُ النظر، وأنا أقربها إلى ضوء القمر، فوجدتها طوابع بريد، وكان أحدها ناقصا. لم تكن الطوابع شيئًا قد تضمه تيلدا إلى الأمتعة. أعدتها إلى الصندوق، وغطيتها بأحد الأكمام وأغلقتُ صندوقها في الظلام.

***

ظلت السيدة مريضة في الأيام التي تلت الحادثة، وزار طبيبٌ المنزل وأعلن إصابتها بتسمم غاز. وقال أن علاجها الوحيد هو الراحة والهواء النقي. كانت تتقيأ وتشعر بالدوار، وتنقلت تيلدا من وإلى ملحق المطبخ بمباول ليلية تغطيها قطعة قماش. هوَّينا المنزل يوما كاملا، وحضر مهندس لفحص الأنابيب بحثا عن المشكلة، لكنه لم يعثر على شيء. وفي الوقت الذي أضيئت فيه المدافئ والمصابيح مساء اليوم التالي، كنت والصغيران نرتدي طبقتين من الملابس.

لم يصل أي بريد من إلسي، أو من ديكا، وبدأت أشعر بالقلق والغثيان، وكأن الغاز سممني أيضا. عاد الطبيب لفحصي والصغيرين، فضغط سماعته الباردة فوق ثوبي، وقال لسيد إنغلاند أن يبلغه إن ساءت حالة أي منا.

في اليوم الثالث، انتظرت حتى غادر سيد إنغلاند المنزل ثم قصدتُ غرفة السيدة ومعي تشارلي. دعتني للدخول، فوجدتها جالسة في السرير، وبجانبها صينية فطور لم تُمس.

قلت: "عمتِ صباحا، يا سيدتي."

"عمتِ صباحا." كانت شاحبة ويبدو عليها الإرهاق، مع أنها نامت معظم اليوم. واسترجعتُ أعراض شهور الحمل الأولى لسيدة رادليت، شحوبها ونفورها من الطعام المطبوخ. قفز عقلي يستبق ما سيحدث إن أنجبت طفلا خامسا. يجب البحث عن قابلة مقيمة، ولكن أين ستنام؟ لا يتسع المكان لسرير آخر في غرفة نوم الأطفال. لكنها قالت أن دورتها الشهرية هي ما سبب لها الألم، لذا لا يعقل أنها تنتظر

مولودا.

سألتني: "هل أردتِ شيئا؟"

"أردتُ أن أعرض عليكِ، إن كانت صحتكِ تسمح، زيارة جناح الأطفال اليوم، يا سيدتي."

"لماذا؟"

"فكرتُ أنكِ قد ترغبين في تغيير المشهد."

أجالت أنظارها في الغرفة، تفكر في الأمر. "لا أرى ضررا في ذلك."

"فقط إن كانت صحتكِ تسمح."

"سوف آتي لاحقا. هلا طلبتِ من تيلدا أن تعدّ لي حماما؟"

"بالطبع، يا سيدتي."

***

في الحادية عشرة والربع، ظهرت السيدة إنجلاند في روبها الحريري، ويدها تعبث برباطه. استحيت ميلي في الحال وأغلقت دفترها، الذي كتبت فيه كلمة دب عشرات المرات أسفل رسمتي محل السؤال.

"فكرتُ في أن نلعب لعبة كيس القصص،" هكذا أخبرتُ السيدة إنجلاند، التي اتخذت مجلسا على كرسي هزاز.

سألت: "وما هي؟"

"أريد أن أريها!" تناولت ميلي كيس وسادة كانت قد حشته بأشياء من الحضانة؛ كانت قد جعلتني أغمض عيني فيما جمعت

أشياء من أرجاء المكان، وصرخت كلما ظننت أني اختلست النظر.

شرحتُ: "نضع الأشياء في الكيس عشوائيا ونهزه، ثم نفرغه ونحكي قصة تربط بين كل المحتويات. ميلي، هل تحبين أن تبدئي؟"

سحبت أولا جنديا خشبيا. فأخذت مكاني عند أرضية المدفأة وظهري إليها، وشبكتُ يدي معا. وبدأت: "كان يا ما كان، جندي شجاع يدعى الرقيب ريدشيكس." ضحكت ميلي ودفعت يدها داخل الكيس، وأخرجت محراك نار.

"والذي دُعي إلى مبارزة مخيفة أمام..."

وهنا أخرجت فنجان شاي صغير. "ملكة فناجين الشاي! كان على الملكة أن تبالغ في الحذر، لأنها مصنوعة من الخزف، ويسهل كسرها، وعليه أمرت أشجع أباريقها أن يملأ كل منهم نفسه حتى حافته بالماء المغلي وينتظروا فوق الحصون لحين اقتراب الرقيب ريدشيكس. أقبل من ناحية التل بمحراكه..."

أومأت لها أن تسحب شيئا جديدا، وبانفعال مدت يدها...

"قطعة أحجية! ما لم يدركه الرقيب ريدشيكس هو أن أرض المعركة كانت رقعة أحجية ضخمة، وفي الحال بدأت القطع تتحرك في كل الاتجاهات، محاولة الإيقاع به. فقفز يمينا وشمالا وارتبك بالكامل، عندما..."

مدَّت ميلي يدها في كيس الوسادة مرة أخرى.

"مرت إلى جانبه بخفة دوَّامة خشبية هائلة وصرخت: "فليركب الجميع! " فصعد الرقيب ريدشيكس ممتطيا بمحراكه وأمسك برأسها كأنها حصان. لكن المشكلة أنها ظلت تدور وتدور،

فزاده هذا ارتباكا، لذا..."

ثم أخرجت قلم رصاص.

"أشفقت عليه ملكة الشاي، وقالت أنها ستعيِّنه عريفا لديها، بشرط أن يوقِّع على الفاتورة. ففعل بحركة مسرحية، و..."

وخرج غصن القطن الذي أعطاني إياه سيد إنغلاند. تلعثمتُ وانعقد لساني. تركزت فوقي أربعة أعين، وكانت عينا السيدة إنجلاند أوسع حتى من ابنتها. وقف تشارلي في قُنِّه، متشبثا بالقضبان ومصدرا أصواتا طفولية.

"دادة ماي، لا يمكنكِ التوقف!"

"آه، لا تتوقفي." ابتسمت السيدة إنجلاند بخجل. "ماذا يحدث بعد ذلك؟"

ازدردتُ ريقي. "آه. القطن... أوه. يا إلهي. كانت لديه حلة جديدة أنيقة من القطن خيطت بالألوان الملكية، آه، أزرق وأبيض. لكنه بعدها تُرك في المطر وصدأ، وكانت تلك نهاية الرقيب ريدشيكس."

هتفت ميلي: "لكن ما زال لديَّ أشياء!"

"النهاية هي النهاية، يا آنسة ميلي. يكفي مغامرات للرقيب ريدشيكس."

"أحسنتِ!" صفقت السيدة إنجلاند وتهلل وجهها. كان لونها أحمر وحمِّيًّا، لكنها بدت مُنتشية. "كان ذلك رائعا، يا دادة ماي. هل حقا تختلقين الأحداث وأنتِ تتكلمين؟"

"نعم، يا سيدتي."

"أين تعلمتِ هذا؟"

"في بلدتي. كانت لعبة منتشرة بين الأطفال."

اقتربت ميلي من والدتها. "هل تريدين لعب دور؟"

"أوه، لا. لا، لا يمكنني."

"ولم لا؟"

"أنا لست..." تلعثمت. "أخشى أني لا أملك خيالا واسعا."

لم يبدُ على ميلي أنها فهمت.

"الخيال. إنه، آه... إنه مكان في عقلكِ تذهبين إليه، فتشعرين كأنك كنت هناك حقا."

"مثل اختلاَق الأشياء؟"

"يمكنكِ صياغتها هكذا."

"تقول دادة ماي أن علينا ألا نختلق الأشياء،" قالتها ميلي بصوت وقور.

"وهي على حق. لكن أحيانا لا بأس به، لو أنه سيجعلكِ تشعرين بحال أفضل."

رمى تشارلي مكعبا خشبيا من قُنِّه، وعبرتُ الغرفة ورفعته.

"هل تحبين حمله، يا سيدتي؟"

"لا أجيد ذلك كثيرا."

"إنه قوي البنية حقا، يا سيدتي. لن تؤذينه."

"أخشى أن يقع مني."

"لن يحدث، يا سيدتي. وإن حدث، فسوف ينجو. إنه سيصبح فتى ضخما وقويا." رفعته فوق رأسي فصرخ وهو يركل الهواء بساقيه السمينتين.

"ليس كأخيه." كانت تنظر إلى المساحة التي شغلها الكرسي

المتحرك، قبل أن يأخذه سيد بوث إلى عش الغراب.

قلت: "السيد الصغير سول قوي بطريقته الخاصة."

أومأت برأسها وبدت منعزلة مرة أخرى.

"هل لا بأس في كتابة خطاب للسيد الصغير سول؟"

"بالطبع."

سألت ميلي: "هل نكتب لأخيكِ؟" استلقى غصن القطن على السجادة، وجمعتُ الأغراض وأعدتها إلى كيس المخدة.

قالت ميلي: "نعم. وأريد أن أكتب كلمتي دب وتفاح."

"سيسر كثيرا لقراءتها بلا شك. سأحضر أدواتي المكتبية. هل تحبين أن تكتبي له أيضا خطابا، يا سيدتي؟"

شعرتُ بشيء ما يخبو في السيدة. "سوف أفعل هذا الأسبوع. أما الآن فسأجلس هنا وأشاهد، إن كنتِ لا تمانعين."

"لا بالطبع."

جلبتُ عدة الكتابة من صندوقي، وجلست أنا وميلي على الطاولة المنخفضة. أخذت السيدة إنجلاند تشارلي في حجرها وهدهدته. وضع إبهامه الأيمن في فمه واستكان إليها، وما لبث أن نام. جلستُ وميلي متقابلتين، أنا أكتب، وهي تمليني. خربش القلم ونقر المطر النوافذ. وعندما جاء الوقت الذي قمتُ فيه لأضع مزيدا من الفحم في النار، كانت السيدة إنجلاند قد غلبها النعاس وهي تحمل تشارلي، فثبتت يدا حول خصره، وقبضت بالأخرى على ذراع الكرسي الهزاز. شاهدتها وتذكرتُ أمي، التي كثيرا ما غلبها النعاس بعد إنجاب إلسي، ولم تستطع إرضاعها بنفسها. تُرى هل كانت السيدة إنجلاند من الأمهات المرضعات، وحاولت تخيلها تتكئ على عش من

الوسائد البيضاء، وإلى جوارها صينية شاي فضية.

كانت ولادة إلسي متعسِّرة. أنجبت أمي آخرين بيننا نحن الخمسة، لكننا لم نتكلم عنهم قط. فكرتُ فيهم أحيانا، الأطفال الآخرين، مع شعور بالراحة أنهم ذهبوا إلى الجنة، يتبعه شعور آخر بالذنب، لأنه لا مكان لهم في البيت. أما إلسي فقد نجت بطريقة ما. كانت مصفرَّة ومريضة لكنها تشبثت بالحياة في صلابة، محدقة في وجوهنا بعينين كزرين بنيين. كنتُ سعيدة جدا بحصولي على أخت. وأبي أيضا أحبها؛ فكان يدغدغ أنفها بريشة فتعطس. كانت تنام في درج غرفة النوم وهي منمنمة، وراودتني كوابيس فيها أغلق عليها الدرج. ثم بدأت آخذها جواري في الفراش، وأمرغ أنفي في رائحتها الممزوجة بالحليب الدافئ والصابون. وعندما تستيقظ أثناء الليل، كنت أنا من تبكي في طلبي، أنا من أرادتني. وأنا من وثقت بي.

كانت هناك نجوم في تلك الليلة. توقف المطر وامتلأت بهم السماء فيما استلقيتُ على الأرض ونظرتُ للأعلى. كنت بردانة ومبلولة، وتقطر الماس من شعري على عنقي، لكنني لم أرتجف. لم أستطع الإحساس بجسدي مطلقا.

سألوني: "ما اسمك؟"

"أين إلسي؟" هكذا أجبت، كما قالت الصحف. لأنني شخصيا لا أتذكر.

الفصل السادس عشر

أمضيتُ الصباح أمام النافذة، أنتظر ساعي البريد على دراجته.

سألت ميلي: "عمَّ تبحثين؟"

قررت تحويل الأمر إلى لعبة. وأخبرتها: "من يرى ساعي البريد أولا يفوز. هل يمكنكِ مواصلة المراقبة فيما أزيل أطباق الفطور هذه؟"

في طريقي من المطبخ، وجدتُ ميلي تطير فوق الدرج. "لقد رأيته! أنا الفائزة! إنه هنا!"

تراجع ساعي البريد عن عتبة الباب متفاجئا. "عمتِ صباحا، يا آنسة."

"عمتَ صباحا."

سلمني ثلاثة خطابات، وشكرته، وأنا أغلق الباب بشيء من الفظاظة. كان الثلاثة لسيد إنغلاند.

صاحت ميلي مرة أخرى: "لقد فزت!"

"أجل، فعلتِ. أحسنتِ عملا."

"هل يمكننا أن نلعبها مرة أخرى غدا؟"

"فكرة حسنة."

وضعتُ الخطابات على طاولة الردهة، وقد تذكرت قول سيد إنغلاند أن زوجته هي من توزع البريد، وأنها أيضا سلمتني خطاب

إلسي صباح يوم زفاف إيلي وبليز، بعد يوم أو يومين من وصوله.

كانت السيدة في غرفتها تبحث بين ملابسها. طرقتُ الباب ووقفتُ عند المدخل.

"أرجو المعذرة، يا سيدتي، ولكن لا توجد خطابات لي، أليس كذلك؟"

نظرت إلي من فوق كتفها. "ماذا تقصدين؟"

"أتوقع خطابا، لكنه لم يصل بعد."

هزت رأسها. وفي يديها سترة زرقاء فاتحة بصفَّي أزرار مع حواشٍ بارزة لونها أبيض كريمي؛ كانت تملك أجمل ما رأيتُ من ملابس، مقارنة بشخص لا يخرج لأي مكان.

"هل سألتِ ساعي البريد؟"

"رأيته للتو."

"ربما حدث تأخير ما."

قلت: "تلك سترة جميلة، يا سيدتي."

"هذه؟" عاينتها مُميلة رأسها ثم علقتها مرة أخرى. ترددتُ. كنت قد تركت تشارلي في الكرسي المخصص له ملطخا بالخبز والزبدة، وتخيلتُ للحظة أنني أسمع صراخه.

"أنا وآنسة ميلي ستسابق في رمي النحلة هذا الصباح، إن أحببتِ المشاركة."

ابتسمت. "سأحب ذلك."

***

لم تصل خطابات لي ضمن بريد المساء ولا أي بريد في صباح اليوم التالي. نمت نوما متقطعا، تطاردني الكوابيس والتصورات السيئة، وبعد الفطور طلبتُ من السيدة إنجلاند الإذن بالذهاب إلى مكتب البريد. ومن حسن حظي أنها وافقت، بل وعرضت أن ترعى تشارلي. تركتهما في جناح الأطفال وأخذتُ ميلي، فألبستها بسرعة معطفها وقفازيها.

كان سيد إنغلاند في ساحة المصنع يتحدث إلى رجل ما.

"بابا!" ركضت ميلي إليه قبل أن أتمكن من منعها، وهرولتُ لألحق بها.

ناديتها: "آنسة ميلي، إن والدكِ يعمل."

استطعتُ الإمساك بيدها وسحبتها للخلف، لكن سيد إنغلاند بدا مسرورا برؤيتنا. استدار مُحدثه نحو مصدر الإلهاء، ووجدتني أنظر في العينين الزرقاوين الفاتحتين لكونراد غريتريكس. استحيت ميلي وتعلقت بأبيها.

قال سيد إنغلاند: "عمتِ صباحا، يا ميليسنت." كان فكه مطبقا بإحكام. "إلى أين تذهبين؟"

أجابت: "مكتب البريد." لم يلقِ جدها بالا بوجودها، ناظرا فيما حوله وكأن عليه الذهاب إلى مكان آخر.

"هل أرسل لكم برودلي بالعربة؟" بحث سيد إنغلاند عن عربة الأطفال. "أين تشارلي؟"

"مع السيدة إنجلاند، يا سيدي."

بدا على وشك أن يقول شيئا ما، ثم أعاد التفكير. وسأل: "هل

سترسلين طردا؟"

"لا، يا سيدي. إنني أتوقع خطابا من شقيقتي لكن لم يصل شيء حتى الآن، لذا سأستفسر فقط عن أي متأخرات أو أرى إن كان لديهم أي شيء يخصني."

"فهمت." بدا أن شيئا ما يزعجه؛ وإلى جواره، لاح الضجر جليا على كونراد غريتريكس. "دادة ماي، لا أظنه واجبا على زوجتي رعاية الأطفال حتى تتمكن مربيتهم من متابعة مراسلاتها."

خيمت عدة ثوان من الصمت. فتحت فمي لأقول شيئا لكني لم أجد ما يمكنني الدفاع به عن نفسي: كان مُحقا. تضرج وجهي من الإحراج، وأجبرتُ نفسي على النظر في عينيه. "أنا آسفة جدا، يا سيدي. سأعود إلى المنزل."

"لا بأس. لكن خذي العربة وعودي مباشرة." ثم وضع يدا كبيرة على رأس ابنته. "وغير مسموح بجرِّ دادة ماي إلى متجر اللعب."

تلاشى إدراكي لما حولي تقريبا، ولم أسمع إلا همهمات من تحيته الأخيرة عندما انصرف الرجلان إلى المصنع بخطى هادئة. شعرت بإهانة حتى ظننتُ أني سأبكي.

تبيَّن عقم الرحلة إلى مكتب البريد: كان الموظف مشغولا ونافذ الصبر، وأصر أنه لا توجد متأخرات أو متراكمات. ثم مد يده فوق رأسي ليستلم طردا من الشخص الذي يقف ورائي في الطابور، معلنا انتهاء حديثنا. خرجتُ مشتتة إلى الشارع، ووقفت لوهلة مع ميلي، أنظر بلا تركيز يمينا وشمالا بحثا عن برودلي وأجده واقفا حيث تركناه، أمام محل لوازم الخياطة. كيف كنتُ أفكر عندما أرسلتُ

بطاقات بريدية جميلة وظننتُ كل شيء على ما يرام، في حين أن آخر خطاب أرسلته أختي كان... متى كان؟ لم تؤرخ خطاباتها، وقد تخلصتُ من الأظرف. لا بد أنه مضى أسبوعان على الأقل. فكرتُ في الظرف الكريمي المرفق بخطابها، وما الذي قد يحويه.

في رحلة العودة، حدقتُ من النافذة إلى الجريان السريع للغابة الجرداء. كانت ميلي أهدأ من المعتاد، تمرر أصابعها فوق الزهور المنقوشة على محيط محرمتها، وأدركت أنه كان علي إرسال برقية إلى رابي. لكني لن أجد فرصة أخرى للقيام بذلك، إلا لو اصطحبتُ كلا الطفلين في رحلة مسافتها أربعة أميال من وإلى المدينة.

قبل المصنع بربع ميل، مررنا بسيد بوث على طريق الخيالة. رفع طاقيته وبدت عليه الدهشة لرؤيتي خلف النافذة؛ تأخرتُ في التلويح له، وبعد ثانية اختفى. لكني كنتُ أكثر قلقا من أن أتساءل ماذا كان يفعل عند منزل هاردكاسل ، وسول في عش الغراب.

قراءته أمر يرجع لكِ. تقول أمي أن عليكِ ذلك. هذا ما قالته. شعرت بالبرد فجأة وضممتُ عباءتي حولي. وتمنيتُ ألا يكون سيد إنغلاند في المنزل.

قالت ميلي: "دادة ماي، تبدين حزينة."

أجبرت نفسي على الابتسام. وأجبت: "لستُ حزينة."

"هل كنتِ تبحثين عن خطاب من ديكا؟"

"كلا، وإن كان لطيفا أن يصلنا منها واحد. هل نكتب لها واحدا آخر هذا الأسبوع؟"

"نعم. متى تعود إلى المنزل؟"

"ليس قريبا. سوف تعود في عيد الميلاد المجيد."

"عيد الميلاد المجيد بعيد جدا. لا أظنني سأحب النوم وحدي كل هذه المدة."

"عندما يحين الوقت الذي تعود فيه، ستصبحين معتادة على أن يكون لكِ سريركِ الخاص، حتى أنكِ لن ترغبي في مشاركته معها."

لم ترد، والتفتت إلى النافذة، رافعة ذقنها الصغير.

كانت السيدة إنجلاند تجلس على السجادة في غرفة النشاط جوار تشارلي، يبنيان أبراجا من المكعبات الملونة. انهار أحدها عند دخولنا، وأطلق تشارلي صرخة إثارة.

"رباه،" قالتها السيدة إنجلاند مبتسمة. لكن ابتسامتها ضاعت عندما رأت وجهي. "لم تجدي لديهم خطابات لكِ؟"

"كلا، يا سيدتي. سأضع المعاطف في أماكنها فقط."

دخلتُ إلى غرفة نوم الأطفال وأغلقت الباب، وترددتُ لحظة قبل أن أدير المفتاح. توجهتُ مُرتجفة إلى سريري وجثوتُ أمامه وسحبتُ صندوق متاعي. أخرجت علبة الشاي الأحمر، شاي هورنيمان بتصميم قديم اعتدنا بيعه في المتجر. على غطائها، امرأة صهباء تنظر إلى فنجان شاي يتصاعد منه البخار، وكأنها تحاول فك طلاسم في البخار. فتحتها على البساط اليدوي وأخرجتُ منها الرزمة المعقودة برباط حذاء. لم أكن قد أحصيت قط عدد الخطابات فيها، لكني فعلتُ الآن: أربعة عشر، ضمنهم آخر خطاب. ما يعادل خطابين في العام.

سحبتُ أول خطاب في الرزمة. لا يحمل الظرف الكريمي ختم بريد، بل كلمة واحدة فقط. روبي. تذكرتُ جداوله غير المنتظمة، والأرقام التي قال أنها تاهت وتعرجت أمامه. لم يتعلم قط التهجئة الصحيحة لأسماء الأشياء فيكتب: قرنابيط، أجزار، بروكالي. لم يكن لذلك أهمية على أية حال.

بيدين مرتجفتان، حشرتُ إبهامي في الزاوية وسمعت صوت تمزق خفيف. مسدتُ اللسان الصغير وفركته، وكأنما أعيد لزقه. ثم، وبحركة واحدة سريعة، فتحته. كان الخطاب مطويا للداخل؛ فظهرت بروز الكلمات على ظهره، جسسته لتحديد طوله: ربما صفحتان أو ثلاث. وأخيرا، سحبته وفتحته.

عزيزتي روبي.

شعرت بدوار وأغمضت عيني لأنفضه. وعندما تجاوزتُ الإحساس، أجبرت نفسي على فتحهما وتصفحتُ الورقة الأولى، لكن الكلمات هاجمتني كأنها طيور، وفقدت معناها جوار بعضها. مددتُ ذراعي ممسكة بالورقة وقرأتها سريعا. قلبتها وأنا أرتجف بقوة، وقرأتُ الثانية، ثم انتقلت إلى الأخيرة، والموقعة: المخلص، آرثر، والدك.

تصفحتُ الورقات الثلاث مرة أخرى، للتأكد من أنني لم أغفل شيئا. ثم تراجعتُ في جلستي متكئة على السرير وأغمضتُ عيني. لم يكن حكيما قراءة الخطاب بوجود الصغيرين، وواجباتي تمتد أمامي حتى وقت الليل. أردتُ الجلوس هناك في عباءتي على

الأرض حتى يتحول لون السماء الرمادي إلى أسود ويصبح الوقت وقت الارتماء في السرير. لا أعرف كم مر عليَّ وأنا أجلس هناك. كنتُ فاقدة الحس: أكثر خواء من أن أبكي، وأكثر إنهاكا من أن أشعر بأي شيء على الإطلاق.

"دادة ماي؟" جاء صوت ميلي من الممر. حاولت فتح الباب ووجدته مغلقا. دار المقبض مرة أخرى، وبعد قليل: "ميلي، عودي. اتركي دادة ماي قليلا." تراجعت خطى أقدام في الردهة، وأغلق باب جناح الأطفال.

وضعت رأسي على ذراعي وأغمضت عيني. مرض الكلى.

لا أعرف كم من الوقت جلستُ هناك. بعد دقيقتين، ثلاث، أربع، مزقتُ الظرف ووضعتُ القطع في جيب عباءتي. لم أعرف ماذا أفعل بالخطاب. عندما كان مغلقا، لم تُقرأ كلماته، كان بوسعي التظاهر بعدم وجوده مع بقية الخطابات. أما الآن، والحبر ينزف فوق الصفحة... مرض. لا مكان في الغرفة يصلح لإخفاء كلمة مثلها. كانت سامة، مثل غاز متسرب، سيخنقني في النهاية.

أتت طرقة صغيرة على الباب، تبعها صوت السيدة، منخفضا وخصوصيا: "دادة ماي، هل تحبين أن أخرج الصغيرين؟"

استرجع عقلي فورا توبيخ سيد إنغلاند في المصنع، وملامحه القاتمة. فتحت فمي وأغلقته.

ثم تدبرت قول: "لا، يا سيدتي."

"لا أمانع. ناوليني ملابسهما فقط وسأصحبهما في نزهة على الأقدام."

أنهضتُ نفسي عن الأرضية الخشبية وفتحت الباب. كانت السيدة إنجلاند تقف في الردهة المعتمة، والقلق يبدو عليها.

"سآتي معكِ،" قلتها، مع أنه آخر شيء أردت القيام به. تمنيتُ لو آوي تحت الأغطية وأنام.

"لا تبدين على ما يرام."

"أنا بخير."

***

كان للخروج من المنزل بصحبة الرضيع نظام خاص، وقد تكبدتُ كل الحركات، بداية من ربط حذاء تشارلي المخصص للخروج، وإن كان نادرا ما يضع قدميه على الأرض، ثم إغلاق أزرار معطفه والبحث عن قبعة سلمت من دهسه لها. ارتدت ميلي سترتها في صمت. أحسَّت أن شيئا لم يكن طبيعيا؛ يكفي إثارة للاستغراب أن والدتها سترافقنا. جلبتُ عربة الأطفال من غرفة خلع الأحذية وفرشتُ بعض الأغطية المغسولة حديثا، لأن ردهة المدخل لا تدخلها الشمس وباردة، وأي شيء يُترك فيها يصبح رطبا. أحضرتُ خشخيشة وعضاضة تسنين وحفاضة نظيفة ومنشفة للطوارئ، بالإضافة إلى زجاجة ماء بغطاء فلين. أصرَّت ميلي على أخذ لعبة ورق العائلات السعيدة، فدسَّت العلبة في جيب معطفها، وقالت السيدة إنجلاند أنها تشعر وكأننا سنرحل أسبوعًا.

انطلق أربعتنا في حزب صغير، السيدة إنجلاند في معطف جميل من الصوف الأزرق وقبعة قش بشريط أبيض عريض. توقعتُ أن نأخذ الطريق المعتاد إلى المصنع، لكنها انعطفت يمينا مباشرة، وسرنا في ممشى منعزل في الوادي المشجر، حيث تشاركنا حمل عربة الأطفال حينما تعلق. وأعلى التل المسطح قامت قرية غُرزت في الأرض البور بكنيسة تشبه دبوس زينة كهرمانيا أسود والتي لا يُعرف كيف صمدت لقرن من شتاءات الشمال القاسية. كانت شوارع القرية ضيقة، والبيوت مبنية من نفس الحجر ذي اللون الفحمي الذي غطى الطرق، فاتخذ كل شيء مظهرا رطبا ومبلولا كأنما غسلته الأمطار. أحاطت الأرض البور بها، فاحتضنت الأكواخ الخارجية في سيل هائل من الخلاء. في الشارع الرئيسي، وقفت جماعة أطفال وجوههم متسخة بجانب مضخة مياه. تعلق ولد صغير بالرافعة كقرد، فيرفعها ويُنزلها، مهدرا سيولا من الماء على الأرض. عندما مررنا بهم حدقوا فينا، في عربة الأطفال ذات الغطاء الفضي، والسيدة الشقراء ومربيتها في الزي الأزرق. والتفتت امرأة داكنة الشعر كانت تفرك عتبة بابها لتتبعنا بعينيها. خلف الأكواخ المنخفضة، أحاط مدفن بالكنيسة، وفكرتُ كم هو بائس ولا ريب، أن يطل المرء على شواهد القبور والأرض البور الموحشة خلفها.

ثم لم نلبث أن خلَّفنا القرية وراءنا، وأصبح كل ما نشاهده هو أرض وسماء. ومع انعدام الحواجز، هاجمتنا الرياح من كل وجه، ولون السماء رمادي معتم.

رفعتُ صوتي: "إلى أين سنذهب إن أمطرت؟"

قالت السيدة إنجلاند: "لن نبقى كثيرا." كان خداها متوردان، وشعرها متمرد على دبابيسه. أشعت بحيوية لم أرها فيها من قبل؛ شعرت وكأن المخلوقة الشاحبة والحزينة في المنزل قد تاهت مني، واستبدلت بغيرها.

لم يمض وقت طويل حتى نزلنا في الوادي، ندفع عربة الأطفال بمشقة على التل المنحدر، متجنبين الصخور الحادة المطحلبة التي تبرز من الأرض، وبأسرع مما توقعت، سمعنا صوت المياه المتدفقة والسريعة التي ارتفع صوتها مع كل خطوة.

سألت: "هل هذا هو النهر؟"

قالت السيدة إنجلاند: "شلال هاردكاسل." لا أنفك أتفاجئ كلما تذكرتُ أن منزل هاردكاسل هو منزلها منذ الطفولة. بدت أبعد ما يكون عن الألفة مع الغابة، لكنها تنقلت بين الطرق والجداول الصغيرة الصافية وكأنها تعرفها جل المعرفة. فيما يقرب من شهرين، لم أرها تغادر المنزل سوى بضع مرات، رافقتها في معظمها.

لم نلبث أن وصلنا إلى قاع الوادي والنهر البني السريع. كان هناك جسر خشبي هش المظهر لم أره من قبل. كنتُ حرَّانة ومرهقة جراء دفع عربة الأطفال فوق ورق الشجر المخضَّل، وتوقفت عند ضفة النهر.

"هل سنعبره؟"

ابتسمت السيدة إنجلاند. "هل تخافين المخلوقات

الخرافية؟"

هل هناك طريق آخر؟ لا أظنه آمنا لعربة الأطفال."

"لا يوجد جسر آخر حتى نصف ميل. هذا هو الطريق الوحيد إلى الجرف. لا تخافي على عربة الأطفال - انظري، إنه واسع كفاية."

لم أعرف لماذا سلكنا هذا الطريق الطويل عوضا عن ذاك البسيط، الذي يمر بالمصنع ويمتد على طريق الخيالة. عبرت ميلي مهرولة بمفردها وانتظرت على الجانب الآخر. مع شعرها الأشقر ومعطفها وقبعتها البنيين، انسجمت مع الغابة وكأنها في صورة فوتوغرافية. نظرت إلى المياه السريعة، التي زاد حجمها مع هطول المطر.

أخذت السيدة إنجلاند مقود عربة الأطفال وقالت: "سأقودها أنا."

"هل أنتِ متأكدة أنه آمن؟"

"لقد عبرته مئات المرات. إلا إن كنتِ تفضلين العودة."

فكرتُ فيما سيقوله سيد إنغلاند لو أخبرته زوجته بأنني اضطربتُ من جديد وعجزتُ عن رعاية الصغار. أمسكتُ بالمقود لكنها أبعدت يدي.

"أنا سأقودها. وهكذا إن وقعنا جميعا، فسوف يكون ذنبي."

أجبرتُ نفسي على المضي أولا. كانت ألواح الجسر زلقة، ومغطاة بالطحالب، وعند ثلث المسافة تعثرت، لكنني قبضتُ على سور الجسر بإحكام واستعدتُ توازني. ركزت عيني على ميلي، ووجهها الوردي المستدير، وسترتها ذات اللون البني المصفر، وقبعتها القش

الصغيرة، والنهر يندفع كدوامة خيل تحتي. ثم انتهى كل شيء خلال ثوان. قررتُ أن أصر على العودة إلى المنزل من الطريق المعتاد.

صعدنا عبر الغابة ووصلنا إلى الجرف الشاسع ذي اللون الطوفي، تسوِّره بلاطات رمادية مستوية وضعت متجاورة، مكسوة تماما بالطحالب والسراخس واللبلاب، كمعبد هُجر وتحول إلى أطلال. كانت فخذاي تؤلماني، وذراعاي تصرخان احتجاجا ونحن نتسلق الطريق الضيق بين الصخور. لاحظت ذلك السيدة إنجلاند وأخذت مني مقود عربة الأطفال مرة أخرى.

قالت: "أعتقد أننا يجب أن نتركها هنا ونحمله."

"هل سنصعد كل هذا الطريق، يا سيدتي؟"

"علينا أن نفعل. لقد قطعنا مسافة طويلة."

رفعت طفلها من بين البطانيات ووضعته على كتفها، فنظر حوله في دهشة.

"هل هو آمن للأطفال؟"

"آمن جدا. إنني أسلكه مذ كنتُ طفلة."

تنهدتُ ومشيتُ خلفها، وأخيرا انخفضت قمم الأشجار فأصبحنا نسير أعلى منها، وامتدت أمامنا في بساط بني كبير جرداء في أماكن، ومبقعة باللونين الذهبي والكستنائي في أماكن أخرى، مع حشد من النباتات دائمة الخضرة يغطي جانبا واحدا من الوادي. وأخفى السرخس والخلنج الرمادي المشوب بالبنفسجي الحروف الحادة التي انحدر عندها الجرف نحو الهواء مباشرة. لزمنا الطريق المتعرج ووصلنا أخيرا إلى القمة، حيث تموضعت صخرة هائلة بغير

استقرار فوق الحافة.

في كل حياتي، لم أر منظرا يسر العين كهذا المنظر. كنا قد وصلنا إلى ارتفاع هائل، والوادي كله أمامنا مثل لوحة مرسومة، تضيئها أشعة الشمس. استقرت هوة كبيرة بين الجرف والأرض البور وراءه، وكأن شقّين عميقين أُحدثا على مسافة ضيقة في الأرض، وأزيل ما بينهما. خلعتُ قبعتي وشعرتُ بالرياح تبرِّد العرق الذي تكون عند منابت شعري.

سألت السيدة إنجلاند ونحن نشاهد المنظر: "هل تشتاقين إلى موطنك؟"

أجبت: "كلا. أشتاق لأختي وإخوتي الصبيان. أشتاق لرؤيتهم يكبرون. في كل مرة أقابلهم أجد شكلهم اختلف."

"متى رأيتهم آخر مرة؟"

"منذ أكثر من عام."

صمتت قليلا، ثم قالت: "ليس دائما بمقدورنا أن نكون جوار من نحبهم."

فكرتُ في معنى ما قالته، ثم استأنفت: "لابد أن الحياة هنا مختلفة جدا عن برمنغهام. لا أتخيلني أعيش في مدينة."

أجبت: "إنها مختلفة بالفعل. رغم أننا سكنّا على أطرافها. لم يسبق لي أن جئتُ إلى مثل هذا المكان. ولا بدَّ لي من قول أنه ليس ما توقعته على الإطلاق."

"وماذا توقعت؟"

"لا أعرف، يا سيدتي. لم أجد وقتا يكفي للتفكير في هذا."

ابتعدت ميلي عني وبدأت تقطف سيقان الخلنج. أخبرتها أن تحذر وأن تبقى بعيدا عن الحافة. وأحكمت السيدة إنجلاند ذراعها حول تشارلي.

"إنها مثل طائر عقعق صغير،" قالتها السيدة إنجلاند وهي تراقب ميلي: "دائما تجمع الأشياء."

تبعناها في الأرجاء، نقطف سيثان الخلنج الصغيرة اليابسة، ورأيتُ السيدة إنجلاند ترسل أنظارها مرة أو مرتين إلى التلال غير المزروعة التي امتدت في كل اتجاه. أخذتها عصفة ريح على حين غرة وسرقت قبعتها من فوق رأسها؛ فصرخت ومدت يدها لتمسك بها، لكنها طارت فوق حافة الجرف، وسقطت بين قمم الأشجار.

التفتت نحوي، تعلو وجهها الصدمة، وانفجرت في الضحك. ثم قلت: "عفوا، يا سيدتي. لا أقصد السخرية منكِ."

انفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة، وفي ثوان، كان تشارلي يهتز بين ذراعيها، وهو ينظر بارتباك من إحدانا إلى الأخرى وقد انثنى جسدانا داخل المشدات التي نرتديها.

"ما المضحك؟ ماذا؟" شدتنا ميلي بقوة، فاشتدت قهقهاتنا.

مسحت السيدة إنجلاند عينيها. وقالت: "آه، حسن، لا بأس. لم تكن إحدى قبعاتي المفضلة على الأقل."

سألت: "هل ننزل ونبحث عنها؟"

"لا،" هكذا أجابت ضاحكة. "أصبحت من نصيب الجرف

الآن."

بدأنا رحلة النزول، أمامي السيدة إنجلاند مع تشارلي، فيما أمسك أنا جيدا بيد ميلي. على قمة الطريق، اختلستُ نظرة سريعة خلفي، لأنظر مرة أخيرة إلى المشهد الخلاب. ثم لفتت انتباهي بقعة سوداء في المنظر، على قطعة صغيرة من الأرض البور في الوادي. رأيت طريق عربات الخيل يتعرج أمامها، وما بدا أنه فناء طويل ومنخفض بجانبها. ومن المدخنة المنمنمة، تلوت حلقة من دخان أزرق، وأدركت أنها ورشة تومي شيلدريك، وحيدة ومنعزلة وسط الأجمة. أطلتُ النظر إليها، وكأنني من هذه المسافة البعيدة قد أراه يخرج في مئزره الجلدي، ويضع يده على جبينه.

أسفلي، ابتعدت السيدة إنجلاند بخطى واسعة في معطفها الأزرق الأنيق وتنورتها الرمادية، وقبعتها الجميلة استولت عليها الغابة، فطارت مع الريح خصلات شعرها الأشقر الداكن.

الفصل السابع عشر

قالت تيلدا: "أشكركِ على تجهيز الحمام في تلك الليلة." كنا في ملحق المطبخ، نفرز الغسيل أثناء غفوة تشارلي. "ليتهم يجلبون خادمة أخرى. يمكنني الاستفادة ببعض المساعدة."

"أوه، لا داعي للشكر" قلتها، وأنا أعلق جوارب نظيفة على ذراعي اليسرى. "لماذا لا يفعلون؟"

"لا أعرف. أتوقع أنه المال. سألت سيد إي، لكنه قال أن عليَّ تدبير أموري لوحدي مؤقتا."

أصبحنا نتبادل الحديث كثيرا الآن، فنتقابل عند أبواب الغرف ونتلكأ حاملتين الصواني والخرق والمباول، وإن كنا مازلنا نتعامل بحرص وتهذيب. وعرفتُ أن هذا ما كان ليحدث لو أن بليز مازالت تعمل في المنزل.

استطردت: "بدت معتلة الصحة في تلك الليلة. قالت أنها تعاني من دورتها الشهرية."

ناولت تيلدا شحنة غسيل أخرى لإميلي. وقالت: "لم تأتها دورتها هذا الشهر."

نظرتُ إليها. "في ذلك اليوم؟"

سحبت تيلدا سروالا داخليا قطنيا مكشكشا من كومة ورفعته. "خالٍ من أي أثر."

قلَّبت إميلي القدر النحاس وظهرها لنا، وشعرها البني

الفاتح يخرج من طاقيتها. قطبتُ جبيني وواصلتُ صف الجوارب فوق بعضها.

قالت تيلدا: "أوه، نسيتُ أن أسألكِ. هل طلبتِ من سيدة إي أن تحفظ لكِ بريدك؟"

حدقت بها. "لا. لماذا؟"

"وجدت رزمة منه في درج منضدة سريرها."

تسارق دقات قلبي. "ماذا تعنين؟"

"رزمة خطابات في الدرج المجاور لسريرها. أقسم أنها جميعها لكِ. استغربتُ الأمر، ثم قدَّرتُ أنكِ ربما أردتِ الاحتفاظ بهم بعيدا عن متناول الأطفال. لا تتمتعين بخصوصية كبيرة، أليس كذلك؟ وإن كان الصغار لن يتمكنوا من قراءتها على أية حال."

شعرتُ بملحق يدور بي. رأت تيلدا تعابير وجهي وقطبت حاجبيها. "هل دارتهم عنكِ؟"

حاولتُ أن أتذكر كم مرة سألت السيدة إنجلاند إن وصلتني أية خطابات: مرة على الأقل. واصلت إميلي التقليب، وعلق مسحوق الغسيل في هواء الغرفة الرطب، ولسع فتحتي أنفي.

سألت تيلدا: "ما الذي دفعها إلى ذلك؟"

"هل أنتِ متأكدة أن الخطابات لي؟"

"لو أن اسمكِ هو روبي ماي."

هرعت من غرفة الغسيل، وعبرت المطبخ، إلى الردهة وصعدتُ الدرج، تسقط مني الجوارب في الطريق. انبعثت من غرفة

الطعام حركة أدوات المائدة، وخشخشة جريدة؛ كانت السيدة إنجلاند هناك تتناول الغداء. قد تحسنت صحتها الآن، وعادت شهيتها. بتهور، اتجهتُ مباشرة إلى درج سريرها، وفتحته بحركة سريعة، دون مبالاة بمن قد يتبعني أو يضبطني متلبسة. في الداخل قابلتني فوضى من الإكسسوارات: فواصل كتب، سنون أقلام، محارم. مفكرة صغيرة للعام الماضي، دبوس شعر مكسور، كيس قطن صغير يحوي زهور خزامى جافة. وتحت كل هذا، وكأنما يُقصد إخفاؤها: رزمة من الأظرف بأحجام مختلفة، عددها خمسة أو ستة، وكلها مُرسلة لي في منزل هاردكاسل. أخرجتهم ببطء، وكأن عيني تخدعاني. رأيتُ خط إلسي، ويد سيم الواضحة والسريعة، وإلسي مرة أخرى. و... دمعت عيناي. "ديكا،" همستُ، وأنا أمرر أصابعي على خطها غير المرتب. شملتني سحابة من الحيرة، لفَّت وسمكت. منذ متى وهم هنا؟ اتصف الوقت بالجمود في منزل هاردكاسل؛ ودلالة تحركه الوحيدة كانت القشعريرة التي اشتدت كل صباح، وبساط ورق الشجر الذي يزيد سماكة فوق الأرض.

جميع الخطابات كانت مغلقة وسليمة. كنتُ أحملهم، مشدوهة بالحيرة، عندما أجفلني صوت ما. ثم انفتح الباب ببطء، وبعد لحظة ظهر رأس ذهبي.

"ميلي!" تنهدتُ. "لقد أفزعتني."

"استيقظ تشارلي وأنا جائعة."

"أنا قادمة." دسستُ الخطابات مرة أخرى في الدرج وأغلقته.

"ماذا تفعلين في غرفة ماما؟"

"أبحث عن خشخيشة تشارلي."

"إنها في سريره."

"حقا؟ شكرا لكِ."

الآن وقد غمرني الارتياح بعد الذهول لكون إلسي بخير كفاية لتكاتبني، قمتُ وسوَّيتُ مئزري. هل هناك غيرهم يا تُرى؟ أجلتُ نظري في الغرفة، متسائلة عن مخابئ أخرى. فكرة إخفائهم عني... كانت أضخم من أن تصفها الكلمات. أضخم من أن تكون معقولة. خطر لي أنها ربما وضعتهم هناك لتسلمني إياهم لاحقا ولكنها تنسى كل يوم. أم أنها أخفتهم عني لغرض ما؟

طلبتُ من ميلي أن تغسل يديها فمشت تتنطط إلى جناح الأطفال. ودون إدراك لما أفعله، جثوتُ على ركبتي ونظرت تحت السرير، ثم نهضتُ وذهبتُ إلى الناحية الأخرى؛ لم يكن درج الخزانة اليسرى يحوي سوى أشياء قليلة: عملات معدنية، ومحفظة، وعلبة زيت للشعر دلت على أن سيد إنغلاند كان ينام هنا في وقت ما. أما منضدة الزينة فكانت معرضا أنيقا لقناني كريستالية، وجرار بالغة الصغر، وفرش شعر، وأمشاط، ولبِّيسة أحذية. وثقالة ورق انتفخت داخلها زهرة وردية.

كنتُ أرتجف غضبا. تعرف عائلة إنغلاند بشأن أختي، وبشأن علتها، وإعاقتها. جدير بهم أن يعرفوا أننا لا نحصل على الورق والأظرف والطوابع دون مقابل، وأننا تأملنا جوابا عن كل خطاب أرسلناه. كتبتُ خطابا لإلسي يمتلأ ذعرا، والذي كان من الممكن أن يربكها ويقلقها. جثوتُ على ركبتي مرة أخرى وسحبت صندوق أمتعة

السيدة إنجلانـد مـن تحـت سـريرها، عازمـة علـى الكشـف عـن شـيء جديـد، أي شـيء جديـد. ربمـا هـي تعـرف كل شـيء. ربمـا تعـرف مـن البدايـة. لـم يكـن الصنـدوق موصـدا ومازالـت بـه ملابسـها التـي عـادت بهـا مـن عـش الغـراب. فتَّشـتُ بينهـم، باحثـة وسـط الحريـر والقطـن والكتـان عـن ملمـس الـورق النـاعم، عـن أحـرف الظـروف الحـادة، لكنـي لـم أجـد شـيئا. وبوقـت انتهائـي، تحولـت ملابسـها إلـى كومـة ملخبطـة وأغلقـت الغطـاء.

اتضـح أن فـض خطـاب أبـي كـان بـلا جـدوى. نكثـتُ ثمانيـة أعـوام مـن التجنـب، مـن التباعـد والانفصـال بـلا جـدوى، تحولـت الطبقـات التـي أحطـتُ بهـا نفسـي بكل عنايـة، وبكل عزم، إلـى أسـمال. كنـت لأمزقهـم بنفسـي. وأنـا أرتجـف، دفعـتُ الصنـدوق تحـت السـرير مـرة أخـرى وغـادرتُ الغرفـة، دون اهتمـام بالجلبـة التـي أحدثتهـا، ووقفـت عنـد بدايـة السـلم، أصغـي إلـى الأصـوات المعتـادة مـن غرفـة الطعـام: أحاديثهمـا الخافتـة، وصلصلـة أدوات المائـدة. كان حجـم خيانتهـا عسـيرا علـى الفهـم. شـعرت بعنـف شـديد نحوهـا، وأجبـرتُ نفسـي علـى الهـدوء. كنـتُ قـد احتفظـت بسـر يخصهـا، سـر لـم أفهمـه كليـا ولا حتـى جزئيـا، لكننـي مـع ذلـك احتفظـت بـه. كنـت أعـرف طبيعـة الأسـرار، وأعـرف أيضـا أن السـر يقـود إلـى آخـر. كنـتُ حمقـاء فـي اعتقـادي أنهـا لا تملـك المزيـد.

***

لـم يكـن الطقـس مناسـبا للنزهـة، لـذا مكثنـا عصـر ذلـك اليـوم فـي جنـاح الأطفـال وأقمنـا عـرض دمـى لتشـارلي. كنـتُ والصغـار قـد

صنعنا في ذات صباح ممطر مسرحا منمنما من علب أحذية قديمة وزخرفناه بألوان ديكا. كنت أعرف أن السيدة إنجلاند ستأتي إلى جناح الأطفال -فقد أصبحت تزورها كل يوم الآن- وفي الواحدة والنصف سمعتُ وقع أقدامها في الممر. انتظرتُ طرقها على الباب؛ كانت تدخل مباشرة دون انتظار رد.

"أرجو المعذرة،" قالتها وقد رأت ما كنا نفعله، وابتسمت. "هل يتسع المكان لمتفرِّج آخر؟"

"نعم، يا سيدتي،" قلتها، وأنا أشعر بفورة غضب مفاجئة. استقرت في الكرسي الهزاز ورائي أنا وميلي. كلتانا جثت أمام المنضدة المنخفضة، فيما شاهد تشارلي من فوق السجاد قبالتنا.

كنتُ قد حظيت بساعة أو نحوه للتفكير في الأمور، لكني فشلت في الوصول إلى نتيجة، فضلا عن تفسير. ومن جهة أخرى، شعرتُ وكأن إلسي وديكا في غرفة السيدة، تناديانني. تخيلتهما محبوستين، كما تُحبس السيدة إنجلاند. كنتُ دائما أظنها حكيمة وموضع ثقة، وبالأحرى متحفظة وبلا نفع قليلا كزوجة وأم. لكني لم أعد أعرف الآن. ربما كان سيد إنغلاند هو الشخص الوحيد الذي فهمها، وعرفها أكثر من أي أحد آخر.

كان يتجنبني منذ ليلة الحفلة. رأيته مرة أو مرتين عبر فتحات الشيش يدخل المنزل أو يغادره. كنتُ في عذاب من شعوري بأنني ارتكبتُ ذنبا، وأن ما حدث في غرفته كان خطئي. أنه كان عليَّ التحكم في نفسي، أن تصرفي كان مُجانبا للاحتشام. لكن إحساسا انتابني أني لم أكن سوى سبب من عدة أسباب لتغير مزاجه؛ بدا

مُنشغلا ومهموما كأنما شيء يثقل كاهله.

لم أستطع التركيز على عرض الدمى، لكن ميلي إما لم تهتم أو لم تلاحظ، وواصلت اللعب دون أن يثنيها شيء. كانت تمثل شخصيتين في تمثيليتنا: الأميرة والجنيَّة، مما ترك لي شخصيتي الملك والبحَّار. وكل ما شغل تفكيري هو الجدار الذي قضيت ثمانية أعوام أبنيه، وقد تحول إلى أنقاض الآن. فشل كلوي. كانت معرفة ذلك مسؤولية، وفوق كاهلي منها ما يكفي.

"دادة ماي، أنتِ لا تصدرين الصوت!"

قالت السيدة إنجلاند: "ربما على البحَّار أن يقبل الأميرة الآن."

قربت ميلي الدميتان الورقيتان أحدهما للآخر وسحبتُ الحبل، المصنوع من وسادة قديمة، فأسدل الستار.

"أنتِ مبدعة جدا، يا دادة ماي." كان صوت السيدة إنجلاند مفعما بالدفء. "ليت كان لي مربية مثلكِ في صغري."

"ألم يكن لديكِ مربية، يا سيدتي؟" سألت برسمية، وأنا أنهض لترتيب مكان اللعبة.

"معلمة خاصة فقط، تقاسمتها مع أشقائي."

وضعت الدمى أفقيا في صندوقها وأعدتها إلى الخزانة، وهناك جعلتُ أعيد ترتيب الألعاب والدمى عشوائيا حتى لا أضطر إلى النظر إليها.

"ألم تصلني بعد أية خطابات، يا سيدتي؟"

"لا للأسف، على حد علمي." "ليس على حد علمي، للأسف."

"لكن،" تحدثتُ ببطء، ووجدت صعوبة في إخراج صوتي، "تيلدا ذكرت أنها شاهدت خطابا باسمي بين أغراضكِ الشخصية." كان فمي جافا، ولعقتُ شفتي. "ظنَّت أنكِ ربما وضعته هناك بالخطأ."

سادت لحظة صمت. "بين أغراضي أنا؟"

"دادة ماي، هل يمكننا أن نلعب لعبة النمور المتسللة؟"

"نعم، يا ميلي. دعيني أرتب المكان أولا."

سألت السيدة إنجلاند: "أحد خطاباتك؟"

"هذا ما قالته، يا سيدتي."

"هل قالت أين رأتها؟" كانت مرتبكة، وفي حيرة.

"أظن منضدة السرير." حافظت على الحياد في نبرة صوتي، لكن قلبي كان يدق بقوة.

نهضت عن الكرسي الهزاز من فورها وذهبت لتتأكد من الأمر. مسحت ذقن تشارلي ووضعته في حظيرة لعبه. زعق احتجاجا، فناولته عضاضته وأخذها في فمه وهو يراقبني. وبعد دقيقة عادت السيدة إنجلاند بحزمة البريد الصغيرة. كنت أعرف أنهم ستة خطابات، وقد أحضرتهم كلهم. ظهر على وجهها تعبير دهشة صافية.

قالت: "لا أعرف كيف وصلت هذه الخطابات إلى هناك. لا بد أنني وضعتها هناك ونسيتها." احمر خداها، وطرفا أذنيها.

"شكرا لكِ، يا سيدتي." أخذتها منها وحاولتُ ألا يظهر في صوتي المرارة التي شعرتُ بها. "إنهم ستة. هذا خط أختي. وخط ديكا. لم يكن من شيمتها ألا تكاتبنا." حاولت ألا يظهر في صوتي التذمر أو الكدر، لكن لم يبد أن السيدة إنجلاند كانت تستمع لي.

كانت عيناها مغشاتان، وظهر خطا عبوس بين حاجبيها.

انتظرتُ أن تعتذر؛ وأدركت هي ذلك ونظرت في عيني مباشرة. "أنا آسفة، يا دادة ماي. ما الذي تظنينه بي الآن يا ترى؟"

أخذتُ نفسا. "لا بأس، يا السيدة إنجلاند. خيرا حصل."

"صحيح، لكن اللوعة التي عانيتها في انتظار هذه الخطابات. ومن ديكا أيضا." رمشت في ارتباك. "إنها لم تكتب لي."

كان سيد إنغلاند قد شكرني على لطفي مع زوجته، وها هي عيناها البنيتان محزونتان حد شعوري بوخزة تعاطف. فليس منطقيا في النهاية، أن تحجب خطابات أرسلتها ابنتها. لماذا في هذا المنزل يشعر المرء وكأن الأرض تتحرك دائما من تحته؟ لماذا في كل يوم أجدني لا أعرف أين تقف قدماي.

"أتوقع أن يكون هذا موجها لكل الأسرة،" قلتها، وأنا أفتحه.

"ماذا تقول؟"

كانت ديكا قد كتبت وجها واحدا فقط. "تقول أنهم يتناولون المكرونة أيام الجمعة، وأنها تتعلم الفرنسية. وأنها تحب معلمة الفرنسية، سيدة باتريس."

"وماذا تقول أيضا؟"

كان خطها قد تحسن جدا بعض الشيء وشعرتُ بثقل في صدري. "ليس كثيرا." ذكرتُ نفسي أنه مهما كان شعوري، فهي والدة ديكا، ولا حق لي في الطفلة. "ربما في الآخر تقول أكثر."

لكنه كان أقصر وانتهى بجملة: أتمنى أن يأتي عيد الميلاد

المجيد قريبا.

شبكت السيدة إنجلاند يديها ونظرت في وجهي بقلق. "ماذا تقول؟"

"يمكنكِ قراءته، يا سيدتي."

جرت عيناها في لهفة فوق الورقة. "آه، يا إلهي. إنها تقول القليل جدا."

أوضح ما بين السطور كيف شعرت ديكا تجاه سانت هيلدا. قلتُ سرا، كانت هذه فكرتكِ. اشتعلت متأججة كرة من الاستياء بداخلي، وتملكتني رغبة شديدة في الابتعاد عن السيدة إنجلاند، في الذهاب إلى مكان منعزل وقراءة خطابات أختي. بعد كل هذه المدة، ومع ما عرفته عن أبي، كان الأمر أسوأ من حكة لم أستطع فركها. حتى ديكا المسكينة بهتت في الخلفية، وإن كنتُ أعرف أنني لاحقا سأقرأ خطاباتها على مهل وأشعر بالعجز يعتصرني. تذكرتُ الأيام الأولى في نورلاند، عندما بدا أن الجميع عداي يملكون أصدقاء. التخلف عن بداية الفصل الدراسي، لما وجدت الفتيات أسابيعا يشكلن فيها التحالفات ويرتبن السلطات، كان كفيلا بأن يعمل في غير صالحها.

تنهدت. "هل تحبين الاحتفاظ بهما، يا سيدتي؟"

"كلا، إنها باسمك." ثم أضافت بصوت خافت: "هذا ما كنتُ أخشاه."

"ما الذي كنتِ تخشينه؟" هكذا سألت ميلي، وكانت راكعة عند المنضدة المنخفضة، تقدم الشاي لعرائسها.

"لا شيء." رفرفت ابتسامة على وجه والدتها، ثم تلاشت.

"هل يوجد خطاب لي؟"

قلت بابتهاج: "كتبت ديكا لجميعنا، إنها تشتاق إليكِ كثيرا."

"متى سنلعب لعبة النمور؟"

"قريبا، يا آنستي."

"هل لي في بعض الحليب؟"

كان تشارلي يلعب قانعا في الركن. "سأحضره لك شرط أن تراقبي لي تشارلي."

اعتدلت السيدة إنجلاند ومسحت على خصرها النحيف. "سأذهب إلى عش الغراب عصر اليوم."

"هل نرافقكِ؟"

"ربما في المرة القادمة." ثم نظرت في عيني، وكانت نظرتها هادئة وجريئة وثابتة. "أنا آسفة بشأن الخطابات."

وجدتني أصدقها، وزادت حيرتي. "لا عليكِ، يا سيدتي."

"هل تعرف مكان صندوق البريد؟"

"الذي في الطابق الأرضي؟"

"كلا، الذي في نهاية طريق الخيل. على الجدار قرب كوخ الحراسة."

"نعم، يا سيدتي."

"أنصحكِ باستخدامه."

قطبتُ جبيني.

"دادة ماي، أنا عطشانة!"

مسدتُ شعر ميلي. "سأحضر لكِ ما تشربينه."

خرجتُ بعد السيدة إلى فسحة السلم، ودخلت هي غرفتها وأغلقت الباب.

في المطبخ، كانت سيدة مانيون تزين فطيرة بمربى الكشمش الشائك.

"ستذهب السيدة إنجلاند لزيارة السيد الصغير سول،" أخبرتها وأنا أسكب الحليب في كأس زجاجي.

"كم ستمكث؟"

"لم تقل."

دارت عينا الطاهية في محجريهما في نفاذ صبر. "لن يضر إخطار صغير. لن يأكل السيد هذه الفطيرة بمفرده."

"سيدة مانيون، هل عرج سيد بوث على المنزل في وقت سابق؟"

"كلا، لماذا قد يفعل؟"

"لا أعرف. رأيته قادما من جهة المصنع."

دخلت تيلدا من الباب الدوَّار حاملة ريشة غبار.

أنذرتها سيدة مانيون: "لا تدخلي هذا إلى مطبخي." نفضتها تيلدا في وجهها وصرخت الطاهي. "توقفي!"

أخبرتُ تيلدا: " ستذهب السيدة إنجلاند لزيارة سول."

قالت: "أوه، حسن. هل حصلتِ على خطاباتك؟"

أومأتُ، دون رغبة في التحدث عن الأمر أمام سيدة مانيون. "لم تقل إن كانت ستمكث في عش الغراب أم لا، لكنني لاحظتُ أن صندوق أمتعتها موضَّب."

نظرت لي تيلدا مقطبة الحاجبين. "أي صندوق؟"

"الذي تحت سريرها."

"لقد أفرغته ليلة عادت."

"فيم تثرثران؟" قالتها سيدة مانيون. "هذا مطبخ وليس تجمع أمهات."

رافقتني تيلدا إلى باب المطبخ. همستُ: "هل تعرفين لماذا عادت؟"

"لا فكرة لدي. كل ما ذكرته هو أن سول يلقى رعاية جيدة حيث يقيم، وأنها شعرت أن وجودها لا فائدة منه."

دفعت لي الباب، وكاد كلانا يصطدم بسيد إنغلاند، الذي كان يقف على الجهة المقابلة، مرتديا قبعته ومعطفه، وعلى وجهه تعبير مبهم.

قال: "تيلدا. هلا أشعلتِ المدفأة في غرفة مكتبي؟ سأكمل عملي في المنزل عصر اليوم."

"بالطبع، يا سيدي."

"شكرا لك."

انتظرتُ أن يقول لي شيئا كعادته، أن يلقي تعليقا قصيرا أو كلمة جانبية، لكنه حتى لم يلتفت لي وذهب وهو يصفر عبر الردهة. كشَّرت تيلدا وتبعته إلى غرفة المكتب. شعرتُ كمن وُبِّخت، مع أنه لم يقل كلمة واحدة. قررت أن أتحدث إليه لاحقا. سيكون هذا هو التصرف المحترم الواجب، أن أعتذر عن ترك الصغار مع والدتهم، كما يمكنني أيضا إطلاعه على خطاب ديكا، وربما أسأله إن كان يريد إضافة شيء في الجواب. سوف يستاء عندما يعرف أن زوجته احتفظت

ببريدي؛ سوف يوحدنا هذا، ولو لفترة وجيزة. تخيلتُ أنني أخبره، فتمتلئ عيناه البنيتان بالقلق والذعر. بوسعي أن أخفف عنه، أطمئنه أن الأمر لم يعد مهما الآن وقد حصلتُ عليهم، وأن خيرا حصل. خلال بضع ساعات سأصحب الأطفال إلى غرفة المعيشة، وسنتجمع كلنا من جديد؛ فيعزف هو على البيانو وميلي جالسة على ركبته، فيما تشارلي يتنقل في كل مكان كبالون منتفخ، زاعقا بسرور. بعد حادثة الغاز، وأثناء مرض السيدة، طلب سيد إنغلاند منع الصغيرين من دخول المنزل احترازا من وجود بقايا للغاز. كانت تيلدا هي من أبلغ الرسالة في جناح الأطفال، أصابني الإحباط كصاعقة. لكن لا بأس؛ فزوجته كانت مريضة، وشعر بالقلق. كان ذلك مُتفهَّما، إنما يمكن استئناف الحياة كما كانت بعد أن استعادت صحتها الآن. إنها محظوظة لزواجها من رجل حنون مثله.

الفصل الثامن عشر

لكن توقعاتي خابت. في الرابعة عصرا، جاءت تيلدا إلى جناح الأطفال مع خبز وزبدة وتفاح مطهي في الفرن ورسالة تقول: السيد مشغول بالعمل ولن يقابل الصغار اليوم.

لا بد أن ضيقي كان ظاهرا، لأنها قالت: "لكن السيدة ستقابلهم."

"ظننتها ذهبت إلى عش الغراب؟"

"غيرت رأيها في النهاية. سيذهبان معا في الغد."

"أين هو الآن، يا تيلدا؟"

"في غرفة مكتبه." ثم انصرفت مع الصينية.

نظرت لي ميلي. "لا يرغب بابا في رؤيتنا مرة أخرى؟"

"بل يرغب بالطبع. كل ما هنالك أنه يعمل بكدٍّ لدرجة لا يملك معها أي وقت حاليا."

"هل نستطيع رؤية سول غدا؟"

"سأسأل."

أمضى الصغيران ساعة مع والدتهم في غرفة المعيشة، وفي السادسة وخمس دقائق سمعتُ سيد إنغلاند يغادر غرفة مكتبه

ويذهب إلى غرفة الطعام. تسلل دخان سيجاره عبر الباب فيما جمعتُ أنا الكتب المصورة، وقبلتهما السيدة إنجلاند قبلة النوم قبل أن تنضم إلى زوجها. كان إحدى درفتي الباب الزوجي مفتوحة، وسمعتُ صلصلة الأواني الخزفية وصوتها الناعم يلقي التحية.

في الطابق العلوي، حاولت ميلي أن تطيل المساء كالمعتاد، فجعلت تدردش وأنا أصفف شعرها وتطلب مني أن أحكي لها مرة أخرى عن عربات لندن الكهربائية التي تسير بدون خيول، والسلم في محلات هارودز الذي ينزلق لأعلى من تلقاء نفسه. نادتني خطاباتي من تحت مخدتي. منذ انفردتُ بنفسي وأنا أجدني عاجزة عن قراءتها، لأن جزءا مني يخشى الأخبار التي ستجلبها. لقد انتظرت أسابيع بالفعل، ويمكنها أن تنتظر بضع ساعات أخرى. كنت قد أسندتهم على سريري، مرسلة إليهم نظرة خاطفة كل حين وآخر خشية اختفائهم مرة أخرى.

أخبرتها: "والآن يجب أن تنامي."

تذمرت: "لماذا يجب أن أنام كل ليلة؟ هذا ممل جدا."

عندما استكانت في فراشها أخيرا، خفضتُ ضوء المصابيح ونزلت السلم بهدوء. لا أصوات من غرفة الطعام. نظرت داخلها ووجدت الطاولة خالية، والشموع مطفأة. وغرفة المعيشة أيضا، رغم دفئها وضوئها المرحب، كانت شاغرة. طرقت باب غرفة مكتب السيد.

"تفضلي."

تقلصت معدتي وأنا أدخل الغرفة المعتمة. بدا أن سيد إنغلاند وصل العمل حتى بعد العشاء. فتناثرت الأوراق وسنون الأقلام على طاولة مكتبه، وانتصب سجل حسابات مفتوحا عند مرفقه الأيسر.

"دادة ماي." كان تعبير وجهه حياديا في الضوء المظلل لمصباح المكتب. "كيف أساعدكِ؟"

"سيدي، أردتُ الاعتذار عن ذلك اليوم."

طرفت عيناه.

"عندما تركتُ تشارلي مع والدته."

أرسل تنهيدة عميقة وطويلة. ثم مسح على وجهه -وهي عادته، كما لاحظت، عندما يكون مجهدا أو منزعجا- وأشار إلى الكرسي ذي الوسادة القرمزية قبالة المكتب.

"شكرا لك، يا سيدي،" قلتها، آملة أن يدق الجرس ويطلب قهوة. لكني كنتُ حمقاء؛ فهو لن يفعل بالطبع. لأنني لم أكن ندًّا له، ولا صديقته الحميمة، ورغم تفاهة الأمر، إلا أني شعرت وكأنني كنتُ كذلك، وأنني فقدتُ حظوتي.

تمطَّى، وطقطق كتفاه وهو يلفهما. ثم سأل: "هل تمانعين في أن أصب لنفسي كأس براندي؟ كان يوما طويلا."

"كلا بالطبع، يا سيدي." ارتخى كتفاي في ارتياح.

انحنى ومد يده داخل خزانته، ثم اعتدل وهو يحمل دورقا بلوريا. وجدتُ راحة في صوت الانسكاب الحلو للسائل الكهرماني، فاتكأت باسترخاء أكبر إلى الوسادة.

"كان ما حدث مع أنبوب الغاز هذا الأسبوع أمرا بغيضا. نحن ندين بحياتنا لكِ. لو كان أحد قد أضاء مصباحا... حسنا." ثم أعاد الدورق إلى الخزانة وأقفلها بمفتاح نحاسي صغير. "أنتِ فطنة لدرجة مذهلة، يا دادة ماي. أتصور أنكِ قد استنتجتِ بالفعل لماذا أفضل أن

يبقى الصغار تحت رعاية مربيتهم كل الوقت."

تسارعت نبضات قلبي قليلا. "فهمت، يا سيدي." هل كان يتهمها بترك الغاز مفتوحا؟ لا أعرف كيف وصلت هذه الخطابات إلى هنا. علا الاحمرار أذنيها: كانت إما محرجة أو تكذب.

السهو شيء، والخداع شيء آخر بالكامل. احترتُ أيهما أصدق، وهناك أيضا ذلك التعليق الغريب حول صندوق البريد... ربما لم يستطع بن أخذ البريد في الفترة الأخيرة. تذكرتُ المرأة التي كانت تقف بجواري فوق الجرف؛ كانت مختلفة هناك، لم توحي أبدا بأنها شخص قد ينسى شيئا، أو يترك المحبس يسرب ويضع خطابات مستخدميه في غير مكانها. هناك، كانت مكتملة. لم أكن أعرفها بما يكفي لأقول أنها على طبيعتها، لكنني شعرتُ أنني، عصر ذلك اليوم، قد رأيت أقرب شيء إليها. فهي لم تكن فراشة الليل الشاحبة التي تقترب على استحياء من هوامش المحادثات، ولم تكن المخلوقة الشاردة والمشتتة التي تتفحص قفازاتها في الكنيسة. كان شيء ما قد انكشف أمامي فوق الجرف، أو بمعنى أدق، تجلّى في كامل هيئته، كمن يخرج من خلف ستار: السيدة إنجلاند كانت تعيسة بشدة.

"ليت هناك طريقة أرد بها جميلكِ."

"أنت لا تدين لي بأي شيء، يا سيدي."

راقبني من فوق شاربه ولم يقل شيئا. أدركت أنني كنتُ خائفة منه ومشدودة إليه في نفس الوقت. كنت خائفة مما قد يتفوه به ليجرحني، خائفة ألا يراني أهلا للوظيفة. إنما... تمنيتُ جدا لو أجلس معه كل المساء في هذه الغرفة الصغيرة المُدخنة. سوف

أقنـع بمجـرد رؤيتـه وهـو يعمـل، وهـو يملأ كأسـه، وهـو يجفـف الحبر من ورقه. أحيانا، عندما أنفرد بنفسي، ودون غياب لتأنيب الضمير، أفكر في مدى الخيبـة التـي لا بـد شـعر بهـا تجـاه زوجتـه. كان يسـتحق امرأة مشـرقة ومتـوردة ومتألقـة، تهتـم ببيتهـا وبـه. لكنـه عوضـا عـن ذلـك، كان ينـام وحده ويعـزل نفسـه فـي غرفـة مكتبـه. كان تشـارلز إنغلانـد وسـيما واجتماعيـا، غنيـا ودافئـا وحيويـا؛ جديرا بأن يكون في حفلة كل ليلة وليلة، ويدور بين الاجتماعات ورحلات الصيد والمسارح. كم كان سيحب لندن، حيث بوسعه التنقل من مقصورة إلى نادٍ إلى مطعم. كم كانـت الأمـور لتختلـف لـو كنـا زوجيـن. كنتُ لآخـذ معطفـه وأزيل القطن من على كتفيه في المسـاء. وأقص له ذبابات سيجاره. كنا سنأوي إلى الفراش معـا... جعلتنـي الفكرة، أتضرج حمـرة بالكامل. ربما لم يكن يعـرف أن العـادة هـي مشـاركة الرجل وزوجه سـريرا واحـدا، وأن النـوم في غرفتين منفصلتين أمر غريب وغير طبيعي. ربما كانت زوجة أبيه تنـام فـي غرفـة منفصلـة وهـذا مـا ظنـه المفترض. كل ما أريده هو أن يعتنـي أحـد بـي. ومـرة أخـرى، حضرنـي وجهـه، ذلـك الوجـه المعذَّب. نحـن الاثنـان يمكـن أن نعتنـي أحدنـا بالآخر.

وفجـأة حضرتنـي صـورة خطـاب سـيم ينتظـر فـوق مخدتـي، وأخـرى لعباراتهـا تنبثـق فـورا فـي ذهنـي: مرة واحدة من ضبط النفس تساوي ثمانين مرة من الانصياع جبرا. كانت تقصد الأطفال بالطبع، لكنـي كثيرا مـا وجدت قواعدهـا تسـري على أمور أكثر مما يُقصد منها.

"أيـن ذهبتـم فـي نزهتكـم بذلـك اليـوم؟" سـأل سـيد إنغلانـد، وهـو يجلس في كرسيه.

أجبت: "الجرف. هذه أول مرة أصعد فيها إلى القمة."

"يحتاج المرء إلى كثير من الاتزان ليصعد ارتفاعات كتلك." وابتسم.

"صدقت، يا سيدي."

"إنه مبهر، أليس كذلك؟ كنتُ وليليان نصعد إلى هناك كثيرا."

"ألم تعودا تفعلان، يا سيدي؟"

شردت عيناه في ذكرى بعيدة ضائعة. "أحيانا يعترض طريقكِ شيء ما."

لَمحتُ الأعمدة في سجل الحسابات وشعرتُ بموجة توتر قصيرة. "لن أعطلك أكثر من هذا، يا سيدي. أشكرك على وقتك."

"أنا آسف لأنني لم أتمكن من رؤية الصغار."

"لا بأس، يا سيدي. لن يذهبوا بعيدا."

ارتعش شاربه. "لا أظن هذا القول يسري على تشارلي."

كنت أعرف أن عليَّ الانصراف، لكني لم أنهض. "قالت تيلدا أنك والسيدة ستزوران غدا السيد الصغير سول."

قال: "أجل. أنتظر ذلك بفارغ الصبر."

ترقبتُ أن يدعوني والصغيرين لمرافقته، لكنه كان مشتتا، وربما لم تدر الفكرة بباله. ظل المطر ينهمر ليومين متتاليين، فأصبح التنزه مستحيلا وحُرمنا الخروج من المنزل؛ كانت رحلة إلى عش الغراب لرؤية سول سترفع معنويتنا جميعا.

"غيابه يصنع فجوة كبيرة، يا سيدي."

"سيسره أن يسمع هذا. لا بد أنه يجد الحياة شديدة الملل

في غياب أشخاص يتسلط عليهم. هو يفتقد مربيته بلا شك." تنهد مرة أخرى وأسند مرفقيه إلى الطاولة، ممسكا برأسه للحظة قبل أن يتناول ورقة. نهضت من الكرسي وأقمت الوسادة في مكانها. وهذه المرة لم تقع.

"أشكرك على وقتك، يا سيدي. آه،" ثم ازدردتُ لعابي. "نسيتُ أن أخبرك: حدثت لخبطة في البريد. ووجدتُ أن أختي قد كتبت لي في النهاية."

كان يرتب مكتبه، ويحرك الكتب والأوراق. "لخبطة؟"

"حسنا..." رفع عينيه لتقابل عيني. "وضعت السيدة إنجلاند الخطاب في غير مكانه ونسيت أمره."

"في غير مكانه؟" كرر. "أين كان؟"

"في غرفة نومها، يا سيدي."

تقطب حاجباه، وأمعن النظر في وجهي. "منذ متى وهو هناك؟"

"لا أعرف، يا سيدي. أسبوع أو نحوه."

ضمَّ شفتيه وكأنه أراد قول شيء، لكنه تراجع عن رأيه. "آمل ألا يكون التأخير قد سبب مشاكل."

"كلا، يا سيدي. مطلقا."

"عائلتكِ بخير، كما آمل؟"

لن يفهم لماذا لم أقرأها حتى الآن. "أجل. شكرا لك."

ظننت هذا ينهي حديثنا، لكنه قال: "إنها ليست خبيثة، أتدرين."

رمشتُ في مفاجأة. "أعرف ذلك، يا سيدي."

"قد تتساءلين لماذا لا أستدعي طبيبا، لكننا جميعا نعرف إلام ستؤول الأمور إن فعلت. لا أريد خوض هذه التجربة. إنها أفضل حالا في المنزل."

خيم صمت أثناء تدبري كلماته، وصراحتها. ثم أومأت.

"جيد. حسن، أنا عازم على فهم هذه الأرقام قبل أن آوي إلى غرفتي." ثم تثاءب. "أشعر وكأني سأفقد صوابي." بدا مرهقا جدا، وعيناه دامعتان من قوة التثاؤب. "عفوا. يا دادة ماي، تبدو عليكِ الرغبة الشديدة في قول شيء ما. ما هو؟"

"لا شيء، يا سيدي. لا أدَّعي علما بشئون المال والأعمال، ولا أقصد أن أملي عليك ما تفعله، لكن إن كنت متعبا، فربما من الأفضل أن تستأنف العمل صباحا، وقد صفى ذهنك بعد ليلة من النوم الجيد."

"لا أتذكر آخر مرة نمتُ فيها جيدا. لكنكِ مُحقَّة بالطبع." ابتسم، وهذه المرة امتدت الابتسامة إلى عينيه. "ماذا كنا سنفعل بدونك؟"

اشتعل الدفء بداخلي وأمدني بالطاقة ما تبقى من المساء. جلستُ في غرفة النشاط على الكرسي الهزاز، أطيل قمصان تشارلي الداخلية، وأحاول تجاهل الانجراف للماضي، لكنه عندما عمَّ الهدوء، وعندما انشغلت يداي بالعمل وأصبح عقلي حرا في التجول، أصبح أكثر إلحاحا. إنني أفقد صوابي. هززت رأسي: صدفة. لكن عقلي ما انفك يستعين بكلماته، فيسحبها مثل خيط مفكوك.

تذكرتُ اليوم الدافئ والمشرق من نيسان عندما اختفى أبي.

كان في المتجر طوال الصباح كعادته، وأخرج سيدة باركر باقي المبلغ الذي دفعته لشراء طحين وزبيب. شكرته سيدة باركر ولفَّ حول طاولة البيع ليفتح لها الباب. صلصل الجرس، ولكن بدلا من إغلاق الباب خلفها، خرج وراءها وانعطف يمينا، قاطعا شارع لونغمور بخطوات واسعة في أفرولِّه النظيف. لم تعطِ سيدة باركر للأمر أهمية، حيث افترضت أنه يقوم بمأمورية. ركبت عربة الترام من أمام المخبز لزيارة أختها، وعندما عادت إلى منزلها في ذلك المساء، علق سيد باركر من فوق جريدته أن إيما ماي تبحث عن زوجها.

"آرثر ماي، البقال؟" هكذا سألت سيدة باركر في حيرة. "كنت هناك اليوم." هكذا روت لنا على طاولة المطبخ بعد نصف ساعة، وهي تمسك حقيبة يدها في حجرها.

سألت أمي: "ولم يقل إلى أين سيذهب؟" تجمع خمستنا حولها في صمت. كنتُ أحمل إلسي حول خصري.

هزت سيدة باركر رأسها. كانت سيدة خمسينية مكتنزة ومحترمة وتعمل خياطة من منزلها في شارع شيربورن.

"جئتُ حالما أخبرني ألبرت."

كانت أمي تكوي الملابس عندما نادى زبون عبر السلم من المتجر في الطابق الأرضي، طلبا لخدمة. فبحثت عن أبي في المخزن والفناء، وغرفة الغسيل والمرحاض الخارجي، لكنها لم تجده في أي مكان. لبَّت طلبات الزبائن بنفسها وعادت لتجد المكواة قد تركت حرقا على فستانها، وإلسي تلعب بأزرار في الزاوية؛ ولحسن الحظ أنها لم تمد يدها إلى المكواة. قلبت أمي لافتة الباب لتعلن إغلاقه لما

تمكن الذعر منها.

في الوقت الذي أنهيتُ وإخوتي الدوام المدرسي، كان ما يزال بلا أثر. لم يكن قد ترك أفروله، ولا حتى رسالة، وكانت أمي منهارة. لم يأتنا زوار إلا نادرا؛ فتأتينا العمة دوريس مرة أو مرتان في العام، حاملة معها دائما عبوة صغير من الفحم. إنما لم يكن أحد من جدودي على قيد الحياة، وأبي وأمي أكثر انشغالا من أن يكونا أية صداقات. لذا كانت رؤية سيدة باركر المهندمة تجلس إلى طاولتنا وفوق رأسها صف من الجوارب المعلقة لتجف، أمرا غريبا ولا يُنسى.

سألت: "ألا يجب أن تذهبي إلى الشرطة؟"

هزت أمي رأسها. "لا أريده أن يتورط في مشكلة."

"سيدة ماي، ماذا لو أنه في مشكلة بالفعل؟"

أرسلت أمي الولدين الكبيرين للبحث عنه، وعادا بعد أن حلَّ الظلام. لم ينم أحدنا في تلك الليلة، وكان رابي من اقترح أن نشعل شمعة عند النافذة، ليعرف والدنا أننا مستيقظون.

بعد أن دقت الساعة السادسة مباشرة، انفتح باب الشقة، وجلستُ في الفراش في الحال. وهمست: "رابي."

تحرك أخي على الفراش المقابل، فاتكأ على مرفقه وقطب جبينه في ضوء الفجر الخافت. كانت الشمعة قد خمدت؛ وعندما لاحظ ذلك نظر نحوي. ومن الغرفة المجاورة سمعنا صرير خشب الأرضية.

"أبي،" قلتها بلا صوت، وقفزنا حالا من فراشينا. وقبل أن ندير مقبض الباب، أتانا صوت أمنا من غرفة نومهما.

"آرثر، أين كنت؟ كدتُ أموت من القلق."

سمعنا غمغمة خافتة غير مسموعة.

"ماذا تعني بأنك كنتَ تبحث عن عمل؟ أين كنت طوال الليل؟ إنها السادسة صباحا! لقد غادرتَ دون كلمة واحدة، دون أن تغلق المحل، دون- كنت في الطابق العلوي، يا آرثر. ما الذي قصدته من فعلتك بحق الجحيم؟"

التصقنا أنا وروبي بالباب مثل محار البرنقيل. ورغم من أنه عاد إلى المنزل، إلا أن معدتي تقلصت من الخوف. مزيد من الغمغمة؛ سمعت بينها كلمات "مصنع" و "مركبات".

"ذهبت إلى لونغبريدج؟ إنها تبعد عشرة أميال."

"ثمانية."

"لديك عمل هنا؛ لماذا فعلت ما فعلت بحق السماء؟ أنت لا تبحث عن عمل، فلديك واحد بالفعل."

سمعنا صوت جرجرة كرسي وارتطاما مكتوما ووالدنا يجلس.

"أنت تعيش في الأحلام، يا آرثر. وأنا أحافظ بالكاد على تماسكي هنا؛ أشعر وكأني على وشك الانهيار. لا يمكنني تحمل المزيد."

سمعنا صوتا رهيبا، وأدركتُ أن والدنا كان يبكي. خطوات أقدام أخرى، صرير، حفيف. ثم قالت أمنا: "صه. هذا يكفي. سوف تحصل على بضع ساعات من النوم إن استلقيت الآن. لا بد أنك مشيت طوال الليل. تعال، دعني أخلع حذائك."

كنتُ ورابي ننظر في نفس الاتجاه، إلى الحائط. لم يحرك كلانا ساكنا حتى سمعنا حذاء والدنا يوضع على الأرض، وباب

غرفة النوم يُغلق عليهما. ما الذي قصدته بأنها: لا يمكنها التحمل؟ لا يمكنها تحمل ماذا؟ دق قلبي بقوة، وتقلبت معدتي. قرفص رابي أسفلي، وحدقتُ في الخصلات النافرة عند تاج رأسه، حيث تموَّج شعره البني المسترسل.

التفت لينظر نحوي. وهمس: "لماذا كان يبكي؟"

"لا أعرف."

عدنا إلى فراشينا وأسدلتُ الستارة أمام ضوء النهار. كانت إلسي قد تدحرجت وشغلت المساحة التي تركتها وغرقت سريعا في النوم. حملتها برفق ورقدت جانبها على حافة السرير، شاعرة بالبرد، رغم أن الغرفة كانت دافئة ومكدسة بخمسة أجساد نائمة. قالت أمي أن النافذة المفتوحة هي كالباب المفتوح بالنسبة إلى لص.

كان فراشي هو الأقرب لغرفة أبينا وأمنا، حيث استند لوح السرير الأمامي على الحائط الرفيع. أنا ورابي حدَّق أحدنا في الآخر، وبعد قليل استدار لينام على جانبه ونام.

***

بعد ساعة من إصلاح الملابس، سمعت خطوات سيد إنغلاند على الدرج، بطيئة ومهزومة. أدركتُ أنني كنت أنتظر صعوده حتى أذهب للنوم. تركتُ إصلاح الملابس وأطفأتُ المصابيح. وفي الغرفة الأخرى، حيث نام الصغيران، استكنتُ تحت الأغطية، ووضعتُ السهَّارة بجوار السرير، وأخيرا مددتُ يدي إلى الأظرف.

عزيزتي روبي،

وصلتنا النقود، شكرا لكِ على إرسالها. أحتاج إلى بوت شتوي جديد وسوف تصحبني أمي إلى محل بالاردز يوم السبت لشرائه. توظَّف آرتشي في حشو المراتب ذات النوابض بمصنع بلغريف. يعود إلى المنزل مغطى بالريش فنطلق صوت قوقأة يكرهه! اشتعل حريق في الشارع الموازي ليلة الأحد. أمكننا رؤيته من النافذة. لم يتسع الشارع لسيارة الإطفاء وظنناه سينفجر بأكمله. لكنها حمدا لله، تمكنت من الدخول في النهاية. تحذرني أمي من إهدار نصف قرش في طابع لو أنني لا أملك ما أقوله. إن أردتِ إرسال بعض النقود في خطابكِ التالي، فسوف يناسبني ذلك، حتى أستطيع شراء المزيد من الطوابع.

مع حبي،

إلسي

مكتبة
t.me/soramnqraa

عزيزتي روبي،

لقد أرسلتُ لكِ بالفعل ردا على خطابكِ الأخير، آمل أن يكون قد وصلكِ. وصلتنا النقود شكرا لكِ. وشكرا على البطاقة البريدية. لا أظن الجرف يعجبني، فشكله مخيف تماما. لكني أحببتُ القارب في الأسفل وبه السيدة ذات القبعة الجميلة. ليت بإمكاني الذهاب إلى حفلة. ردي أرجوكِ.

مع حبي،

إلسي

استولت عليَّ الراحة فورا وغمرتني بالكامل. وجدتني أبكي وأبتسم في نفس الوقت، وضغطت عيني براحتي يدي لأتمالك نفسي. تنشَّقتُ وتنهدت، ووضعتُ خطابي إلسي فوق اللحاف، لأتناول بعدهما خطاب سيم الذي وجدته أخف وزنا.

العزيزة دادة ماي،

آمل أن تكون الأمور جيدة في يوركشاير وأنكِ تتأقلمين على الحياة هناك. أرسل لكِ مع خطابي دعوة متأخرة وأتمنى كثيرا أن تلبيها. يُقام حفل سبيدويل السنوي بعد أسبوع من يوم الخميس في قاعة ستاينواي بماريليبون، وهذا العام سوف تُمنح أربعة وعشرون مربية وسام الخمسة أعوام خدمة. بعد الترسيم سيُقدم الشاي في الحديقة المغطاة، وسوف يحضر العديد من مستثمرينا وزبائننا. ستقدم سيدة وارد الأوسمة على المنصة، وهناك ستنضم إليها مجموعة من المربيات بسنوات خبرة مختلفة. وبصفتكِ إحدى طالباتنا الحاصلات على منحة دراسية، سأحب أن تكوني ضمنهن، وأن تنضمي إلينا على مائدة الشاي والعشاء بعدها لمشاركة تجربتك كطالبة منحة دراسية مع أصدقاء المعهد.

أرجو أن تقبلي اعتذاري عن مهلة الإبلاغ القصيرة: فدادة غيلبرت، طالبة المنحة التي كانت ستشارك في الحفل، أصيبت بالحصبة، وخطرتِ فورا على بالي كبديل لها. في حال قبولكِ، سأكاتب السيدة إنجلاند أطلب منها أن تقدم لي هذا المعروف الكبير، وأن ترسلكِ إلى لندن لحضور الاحتفالية. يمكنكِ اعتبار المدة (يومان سيكفيان) إجازة سنوية. أرجو أن تردي في أقرب وقت

يناسبكِ وسوف أقوم بالترتيبات اللازمة.

ثقي أنني سأظل،

صديقتكِ المخلصة،

م. سيمبسون

العزيزة دادة ماي،

أكتب لكِ وأنا آمل أن يكون خطابي بتاريخ ٢٣ تشرين الأول قد وصلكِ. وإن لم يكن قد وصل، فأنا أكرر دعوتي لكِ لحضور حفل توزيع أوسمة سبيدويل السنوي في قاعة ستاينواي بماريليبون. سنوفر لكِ أجرة القطار والإقامة في ميدان بيمبريدج مع الإعاشة الكافية لزيارتك. أرجو منكِ الرد فورا في حال موافقتك، لأن الحفل سيقام خلال ستة أيام. وإذا لم تتمكن العائلة من الاستغناء عنكِ أو العثور على بديلة، فسوف أجري ترتيبات أخرى، لكني سأكون ممتنة أن تبلغيني بالرد في الحالتين.

المخلصة،

م. سيمبسون

ورغم تأخر الوقت، إلا أنني كتبت فورا إلى آنسة سيمبسون، أوضح لها حدوث تأخير في مكتب البريد وأسفي البالغ لتفويت حفل سبيدويل. لم يكن ذلك صدقا بالكامل. فقد اشتقتُ إلى لندن، بأضواء شوارعها الساطعة وأرصفتها المزدحمة، صخبها وضجيجها. لكنه أصبح عالما بعيدا بالنسبة لي الآن: المدرسة، وصخب قاعة الطعام وفطيرة الليمون في أيام الجمعة، الفتيات الأنيقات بإطارات التطريز

وأوراق الكتابة برائحة البنفسج. حتى وسام سبيدويل نفسه، منقوشا بشعار نورلاند الشجاعة في المحن، والشيء الذي كنتُ أطمح إليه بشدة، لم يبدُ لي أكثر من رمز تافه للتباهي. وكأنما المربيات جنود، وكأننا خضنا الحروب. حتى المعهد نفسه قد يصبح متعجرفا أحيانا: فبعد حفل تخرجنا، وصفتنا سيدة وارد، مؤسِّسة المعهد "بنواب الدولة المؤثرون، وبناة الشخصية، وصناع الإمبراطورية". هل صناع الإمبراطورية يشطفون مباول الغرف ويمسحون العصيدة من على أفواه يسيل لعابها؟

فكرتُ في عرض سيد إنغلاند بالعمل مستقلة والحصول على راتبي كاملا. إن قبلت، فسوف تزدهر أحوالي، وكذلك عائلتي. لا أظن أي مربية في سبيدويل اضطرت لشراء بوت لأختها وتسديد فواتير علاجها. لا أظن أحدا من أشقائها اشتغل في حشو المراتب. كان آباؤهن ضباط شرطة وأطباء جراحين ومحامين؛ كن يتفاخرن بآبائهن، ويظهرن العاطفة تجاه أمهاتهن. لم يسأل أحد عن عائلتي، وأنا لم أعرض. ربما التقطت أنوفهم رائحة المأساة؛ ربما هي تفوح نفاذة مني.

كان الليل قد توغَّل في الوقت الذي أنهيتُ عنده الكتابة. أعدتُ كل شيء إلى مكانه ونظرتُ في ساعتي: التاسعة والنصف. تناولتُ وأنا أتثاءب، حقيبة مستلزمات الحمام من على عمود السرير وارتديت خفيَّ لقضاء حاجتي. كانت السيدة إنجلاند قد أخذت حماما متأخرا. ظل الماء مرمدًّا في حوض الاستحمام، وتُركت صابونة على الأرض بإهمال. رفعتها ووضعتها على حوض غسيل الوجه، وحينها

رأيتُ شيئا في المرآة.

كانت قد تغشَّت ببخار ماء الاستحمام الساخن، وكتب أحدهم بإصبعه على البخار. قطبتُ حاجبيَّ وتراجعتُ خطوة، لأن المسافة القريبة لم تسمح لي بقراءتها. ظهرت صورة وجهي متكسرة. حيث بدأ البخار ينقشع عن الزجاج ويتدلى في جداول صغيرة، لكن الرسالة كانت واضحة. كلمة واحدة خُطَّت على المرآة بيد خرقاء: عاهرة.

الفصل التاسع عشر

كان سيد بوث في ساحة المصنع صباح اليوم التالي، يترجل عن دراجته ونحن نعبر الجسر. "عمتم صباحا،" قالها ببشاشة، وهو يركنها على الجدار. "ذاهبون لإطعام البط؟"

أجبت: "ليس اليوم. إنها مجرد نزهة."

وفي الصمت الذي أعقب ذلك لاحظتُ حقيبته.

سألت: "لماذا أنت هنا؟"

"أعطي دروسا في محو الأمية للعمال، لحين عودة السيد الصغير سول."

قلت: "هذا لطف لك. هل هي فكرتك؟"

"بل فكرة سيد إنغلاند. يأخذون الحصة في ساعة غدائهم، عجبا، لكني أراهم يستمتعون بها. وعلى الأقل لا أمكث في المنزل صباحا ألهو بإبهاميَّ، معترضا طريق بليز."

"هل ما زلت تعطي دروسا في ليث هول في العصاري؟"

"نعم."

أجلت بصري في الساحة. تسللت أصوات العمال من باب حجرة التحميل المفتوح، وكان بن يكنس حظيرة العربة، فيصنع

أكواما صغيرة من القش على الأرض المرصوفة بالحصى.

قلت: "أريد أن أطرح عليك سؤالا."

أومأ سيد بوث مُترقبا.

"إنه عن تومي شيلدريك."

"آه، فهمت. هل أنتِ مغرمة به؟"

"لا، لا طبعا."

"لماذا طبعا؟"

"سيد بوث، أحتاج منك معروفا. هل يمكنك أن تعرف لي لماذا ومتى عاد من أستراليا؟"

"يمكنكِ سؤال بليز."

"لا أستطيع ذلك."

"ولم لا؟ اذهبي لزيارتها، ستحب ذلك. إنها لا ترى في يومها سواي ووالدتها. ستفيدها صحبة جديدة."

"لا أستطيع اصطحاب الأطفال إلى منزلك. لن يكون ذلك لائقا."

تراجع في استياء ساخر.

"معذرة، لم أكن أعني ذلك. كل ما عنيته هو أنني لا أعرف ما قد يقوله السيد."

"هل عليك تفسير كل خطوة تقومين بها؟"

"كلا."

"حسن إذن. إنني لستُ غريبا عنهم. لقد نسيتِ أنني في هذا المكان قبلكِ بكثير." عدَّل وضع الحقيبة المتقاطعة على صدره. "سأنهي عملي هنا في الحادية عشرة والنصف؛ يمكننا العودة معا.

ستحب بليز رؤية الصغار."

حدَّق تشارلي بوداعة من عربته. وكانت ميلي على الجسر تقذف أعوادا في الماء، وأخبرتها أن تعود. فجاءت وثبا إلينا وهي تلوح بغصين مترب.

سألها سيد بوث: "هل تحبين الذهاب لزيارة بليز وتناول العشاء في منزلنا؟"

"بليز الخادمة؟"

ضحك. "هي ذاتها."

هتفت: "نعم!"

"نعم، من فضلك،" صوبتُ لها.

"نعم، من فضلك."

قلت: "سيكون هذا لطيفا. ما دمتَ واثقا."

"ألقاكِ هنا."

xxx

في ذلك الصباح، كانت تيلدا قد أحضرت الفطور إلى جناح الأطفال كالعادة. كانت لطيفة كما هي دائما، ولم أذكر شيئا عن المكتوب على المرآة، والتي كنتُ قد مسحتها في عجالة بكمِّي. ثم اغتسلت وبدلت ثيابي سريعا، وأنا أشعر كأني مُراقبة، كأنَّ الكلمة قد انتقلت إلى ذراعي ووسَّخته. لم تكن لديَّ فكرة لمن كُتبت الرسالة أو من الذي كتبها. إنها لكِ، قالها صوت من داخلي. لكن استنادا إلى ماذا؟ رحلة السير في الغابة مع سيد بوث؟ لقائي المسائي مع السيد في غرفة مكتبه؟ شعرتُ بالتقزز، وعانيتُ ليلة من النوم المتقطع.

لم يكن الأمر قد فارق ذهني، وأنا أتمشَّى مع سيد بوث في طريق الخيل، ووجدتني لا أملك ما أقول.

"ولكن لماذا تريدين معلومات عن توم الحداد؟" سأل ليقطع الصمت.

"لا يمكنك إخبار بليز أنني جئتُ لهذا السبب."

"أليس صحيحا؟"

"بلى، ولكني لا أريدها أن تستنتج شيئا لا وجود له."

"أشك في أنه يمكنكِ خداعها."

كان على حق، وتنهدت.

كانت سبرينغ غروف عبارة عن صف أنيق من البيوت المتجاورة، كل بيت بثلاثة طوابق، قد سوَّدها دخان المصانع. عاش سيد بوث مع زوجه في المنزل الأخير ذي الباب الأحمر القاني والمغطى باللبلاب حتى نوافذ الطابق العلوي. وفي نهاية الشارع جرى النهر، على بعد خمسين ياردة. فتح لنا سيد بوث الباب بمفتاحه وقال ألا بأس في ترك عربة الأطفال بالخارج. ترددت، ثم قررت أنني قد أهنته مرة بالفعل؛ وأنني سأغسل البطانيات إن وسَّخها السخام. ورفعت تشارلي من تحتها.

قاد باب المنزل مباشرة إلى غرفة جلوس صغيرة، وفُتح باب آخر على المطبخ وغرفة الغسيل من وراءه. "هل هذا أنت، يا إيلي؟"

"جئتُ معي بضيوف."

ظهرت بليز في المدخل وهي تمسح يديها. كانت بطنها قد استدارت تحت مئزرها، مثل بودينغ مكيَّس. "اللعنة،" هكذا قالت، بيد أنها بدت مسرورة. "أنتِ آخر شخص توقعته."

"مرحبا، يا بليز."

"هل يمكنهم مشاركتنا الغداء؟"

"بالطبع. انظري إليكِ، يا آنسة ميلي!" ومدَّت يديها. "لابد أن طولكِ قد زاد ثلاث بوصات منذ آخر مرة رأيتك فيها."

"فقدتُ سنًّا!" صاحت الطفلة وهي تحشر لسانها في الفجوة.

"حقا فعلتِ. هل جاءت جنيَّة الأسنان؟"

"نعم، وتركت لي فلسا."

"لابد إذن أنكِ كنتِ فتاة طيبة. وانظروا إلى السيد تشارلي، مهندما بالكامل."

مدت يدها إلى الرضيع فناولته لها. ومن المطبخ انبعثت رائحة خبز طازج وشوربة عكاوي، وقرقرت معدتي. كانت غرفة المعيشة خافتة الإضاءة وبسيطة التأثيث، إنما شديدة النظافة. وأمام حائط السلم طاولة طعام قابلة للتمدد مفروشة بقطعة مخمل لونها سلموني، صنعت منها بليز الستائر. وتدلت عينة منها على باب حجرة الغسيل، مدرَّزة بخيط قرمزي.

جهَّزت بليز المائدة وجلس أربعتنا فيما وضعت هي الخبز والجبن وصحون حساء كبيرة. وفيما تجلس في مقعدها، وتُموضع بطنها المكوَّرة خلف مفرش المائدة، وجدتني أحدِّق في الطريقة التي تفركها وتداعبها بها. ووجدتني ألاحظ أيضا، الحميمية المريحة بينها وبين سيد بوث. لا يفترض أن تكون هذه مفاجئة؛ فقد كانا زوجين في النهاية. لكني لم ألتق من قبل باثنين كونا أسرة في هذه السن الصغيرة واتخذا أدوارهما بهذا اليسر. بدت بليز امرأة أخرى

مختلفة عن تلك الحادة والهازئة التي عرفتها. بدت بصحة جيدة؛ فكان شعرها الداكن كثيفا ولامعا، وارتدت تحت مئزرها بلوزة مطرزة جميلة.

بعد أن أكلنا وأطعمتُ تشارلي حليبه وكسرتُ له خبزا ليأكله ("مثل بطة!" كما قالت ميلي، وضحك الجميع)، اصطحب سيد بوث ميلي إلى النهر ليلقيا بالأحجار. استكشف تشارلي غرفتي الطابق الأرضي حبوا، ثم غرق في النوم قانعا، في الكرسي ذي الذراعين. أنا وبليز رفعنا أواني الغداء إلى الحجرة الخلفية وشرعنا في غسلها. ظل بيننا بعض الحرج، لكنه أقل من السابق؛ فلم أشعر بشيء من العداء القديم. ومكانه حل نوع غريب من التسامح.

"تملكين منزلا جميلا،" قلتها من قلبي.

"أشكركِ. لقد جهزناه على عجلة، لكننا أسعفتنا الأغراض المستعملة. سأكف عن الشكوى حالما أحصل على معصرة غسيل. كيف الحال في المنزل؟"

سكتتُ قليلا، ثم قلتُ لنفسي أن الوحيدة التي أستطيع التحدث معها بصراحة هي بليز، التي كانت تعرف أهل المنزل أكثر من أي شخص آخر.

"لا أعرف،" هكذا بدأت. "حدثت بعض الأمور الغريبة."

"مثل ماذا؟" ناولتني بليز وعاء الشوربة، فجففته ووضعته على الرف.

"هل حدث لأي من أغراضك أن... أخفي عنكِ؟"

قطبت حاجبيها. "مثل ماذا؟"

"خطابات."

ضحكت. "لا أحد كاتبني قط. هل أخفوا عنكِ خطاباتك؟"

"احتفظت بهم السيدة إنجلاند في درج سريرها لأسبوعين."

"هذا غريب. لماذا قد تفعل ذلك؟"

"أنا أيضا لا أفهم. كانت آسفة جدا، وقالت أنها لا بد قد وضعتهم هناك ونسيت أمرهم. لكنني لا أظنني أصدقها."

"هل قرأتهم؟"

"لا، لم يُفتحوا."

كشَّرت بليز. "ربما نسيت فعلا إذن. لا أتصور سببا لتكبدها كل هذا إن كانت لن تقرأهم."

"ربما،" قلتها، رغم أن الشك لم يفارقني. كان عليَّ أن أزن كلماتي التالية بحرص شديد. فتابعتُ محاولة إضفاء عدم الاكتراث على صوتي: "سيد شيلدريك رجل لطيف -الحدَّاد الذي كان في حفل زفافك. قال إيلي أنه أحد أصدقائك."

"آه، نعم، تومي؟ إنه ليس صديقا بالمعنى المعروف للكلمة، لكن أبي كان يعرف أباه قبل وفاته. إنه مجرد واحد من الأشخاص الذين تلقين عليهم التحية."

"ذكر إيلي شيئا عن قريبتك."

"لا أعرف إن كانت تربطهما علاقة. قابلته لوسي في الوايت هورس بضعة مرات. أظنها كانت تأمل في أن يظهر اهتماما أكبر."

"كيف هو؟"

"ماذا تقصدين؟"

شعرتُ بعنقي يتضرج. "هل هو لطيف؟"

"عمَّ تسألينني حقًّا؟" نظرت نحوي من موضعها، وتضرج وجهي. "لا تكوني خبيثة، يا دادة ماي. هل أنتِ مغرمة به؟" ولاح شبح ابتسامة على شفتيها.

"بالكاد أعرف الرجل. قابلته مرة أو مرتين في البلدة، ودعاني والصفار لزيارة ورشته لصنع حدوة حصان. رأى سيد إنغلاند أنها فكرة جيدة، فاصطحبتهم إلى هناك. كان ذلك منذ وقت طويل، قبل أن تذهب ديكا إلى المدرسة."

انتظرت أن أكمل، وهي تحرك الماء بمعصميها. ظهرت أمام عيني الكلمة في المرآة مرة أخرى. لم أستطع إخبارها، لم أتخيل التفوه بها. وصرفتُ الصورة من ذهني.

كانت بليز ما تزال تحدق بي. قالت: "أكملي."

قلت: "لقد كتب خطابا لالسيدة إنجلاند. وأعطاه لديكا دون علمي وأمرها ألا تخبرني أو أي شخص. لا أفهم لماذا لم يرسل لها الخطاب بالطريقة المعتادة، إلا إذا حوى الخطاب شيئا... غير طبيعي."

"تومي فعل هذا؟ تومي شيلدريك؟"

أومأت.

"هل قرأته؟"

"كلا، بل سلمته لها. لهذا أردتُ معرفة إن كنتِ تعرفينه جيدا."

"متى كان هذا؟"

"أواخر أيلول. قبل رحيلك."

ضاقت عيناها. "هل كان ذلك في الليلة التي أشعلت فيها النار؟"

"ربما."

"رأيت شيئا في موقد المدفأة. ربما هو ذلك الخطاب. ربما أشعلته للتخلص منه. لقد رآه السيد أيضا وسأل ما هو، لكنها أجابت بأنها ورقة قديمة."

اتسعت عيناي. "هل رأى أحدكما ما كُتب فيه؟"

"كلا. كان الخطاب قد تحول فعليا إلى رماد لحظة وصوله. رأيتُ في الأمر شبهة: فهي لم تشعل مدفأتها قط، وكان الجو دافئا تلك الليلة على أي حال."

خيم عليها الصمت وبدا نزاع في داخلها. ثم غطّست صحنا في الماء وبدأت تتكلم. "رأيته مرة بين الأشجار قريبا من المنزل. كنت أنظف غرفة السيدة، وعندما نظرت من النافذة وجدته هناك. ناديته وسألته ماذا يفعل. قال أنه في طريقه إلى القرية، لكنني لم أعرف أحدا قط أخذ طريق الغابة بينما الطريق إلى القرية أسفل الغابة مباشرة. كما أنه لم يكن يمشَي. بل واقفا في مكانه، ينظر إلى المنزل. لم أخبر أحدا، ولم أره مرة أخرى حتى قدمته لي لوسي، وإن كنتُ لم أتعرف عليه فورا."

سكتت كلتانا لوهلة، ثم قلت: "هل تظنين... هل تظنين أنه يبتزها بشيء يعرفه عنها؟ لا يمكنني تخيل ما هو ذلك الشيء، لكني لا أرى سببا آخر يضفي عليه كل هذه السرية."

"لا. إنه ليس من هذا النوع."

وافقتها. لم يبد تومي شيلدريك من النوع المبتز.

"ربما بينهما..." تلعثمت بليز، عاجزة عن إيجاد كلمة مناسبة. وناولتني ملعقة. "من يدري."

"ولم تريه مرة أخرى قط؟"

"ليس في محيط المنزل، لا."

"ومتى كان هذا؟"

"منذ ستة أو ثمانية أشهر ربما. كنا في الربيع، حسب ما أتذكر، بعد وقت قصير من عودته."

"قال أنه عاش قليلا في أستراليا."

"عشرة أعوام تقريبا. حصل على تذكرة سفر اقتصادية. كانت رخصة للحدادين في تلك الأيام، ولأي أحد يمتلك حرفة. أعتقد أنه عمل في مزارع الأغنام. ولا تسأليني لماذا قد يذهب المرء إلى هناك، على بعد آلاف الأميال، لمجرد أن يعمل مع الأغنام. ونحن لدينا الكثير منهم هنا."

"لماذا عاد؟"

"مات والده، لذا كان عليه أن يستلم ورشة الحدادة. كما أن أمه عليلة الصحة. هل قابلتها؟"

"كلا."

"إنها قعيدة الفراش بداء يسبب الهزال، المسكينة. كان عليه أن يعود للاعتناء بها. شقيقه عديم الفائدة، على ما يبدو، لا يفارق الحانة ويبرم صفقات سرية عند القناة. إنه شخص فاسد.

"هـذا محـزن. اسـمعي، افعلـي بـي جميـلا ولا تخبـري لوسـي بمـا قلته لكِ."

"بشأن الخطاب؟"

أومأتُ. "لوسي أو غيرها. لا أريد لأي أحد أن يقع في ورطة."

ابتسمت بليز بسخرية. "يبدو أنها وقعت بالفعل."

"ماذا؟ هل تعنين...؟"

"إننـي أمـزح. ليـس عليـكِ أن تأخـذي كل شـيء بجديـة طـوال الوقـت."

ازدردتُ لعابـي. "لا أصـدق أنهـا قـد تفعـل ذلـك بسـيد إنغلانـد. خاصـة وهـو يمنحهـا كل العنـاية."

"لم أكن لأرثى له. إنه يستحق ذلك."

"مـاذا تقصدين؟"

هـزت كتفيها.

"بليز."

تراقصـت أصابعهـا فـي رغـوة الصابـون. "كانـت تيلـدا تنظـف غرفـة المكتـب ذات مـرة فوجـدت أحـد دفاتـره قـد تُـرك مفتوحـا. آل غريتريكس يمنحـونـه مـا يشـبه الراتـب. بل ثـروة، فـي الحقيقـة. لأي شـيء كل هـذا المـال وأين يذهـب، الله أعلـم."

"كم مبلغه؟"

"أكثر من ألف وثمانمائة في الشهر."

"مـاذا؟" ذُهلـت. "إنـه أكثـر مـن عشـرين ألفـا فـي السـنة. لأي شـيء بحـق السمـاء؟"

"لا تسأليني. ما كان يجب أن أخبركِ. لن تفشي هذا السر لأحد؟"

"طالما لن تفعلي أنتِ."

لاح بريق من تمردنا القديم، وتبادلنا نصف ابتسامة.

قالت بليز: "عندما تكونين خادمة ترين أشياءً. وأكثر من اللازم أحيانا."

"بمعنى؟"

"لا أريد أن أملأ رأسكِ بالأفكار. لكن ربما نشأت علاقة بينها وبين تومي بالفعل. وربما انتهت هذه العلاقة الآن."

"لكن حداد... كما أنها متزوجة!" تذكرتُ ما قاله سيد بوث، أنني غرة كالعشب الأخضر. أضفت، محاولة أن أضفي تهكما على صوتي: "لا يمكنني تخيل الأمر."

هزت بليز كتفيها. "هذه الأمور لا تصدُّ الناس. وعلى كل حال، لا أرى شيئا قد يدعوكِ للقلق. فهي لا تكاد تغادر المنزل، ولا تملك فرصة للتسلل ليلا، خاصة وهو يحبسها في برجها العاجي."

"ظننتكِ كنتِ تحبينها."

"كنت. ومازلت. لكنها امرأة صعبة. مثل محاولة الإمساك بالدخان. لطالما شككتُ أنها أكثر ذكاء مما تُبدي." ناولتني وعاء آخر. "كانت قاطعة في عدم رغبتها توظيف خادمة خاصة. أتدرين، لم تسمح لي قط بمساعدتها في ارتداء ملابسها. فتشبك أبازيمها وعراويها وأزرارها، وكل شيء بنفسها."

خيَّم عليَّ صمت متأمل. أعدَّت بليز إبريق شاي وأخذناه إلى غرفة المعيشة، حيث تشارلي ما زال نائما وهو يتشبث بدميته القماش.

وفيما تصب الشاي، نازعتني فكرة إخبارها بما رأيته في المرآة، لكني قررت ألا أفعل. فقد بُحتُ بالفعل أكثر من اللازم. والأسوأ من ذلك، أنني أخلفتُ وعدي لديكا، التي كانت قد توسلت لي ألا أخبر أحدا عن خطاب تومي."

مع شعور مفاجئ بالارتياب، خشيت على ميلي وهي لوحدها مع سيد بوث؛ كانا قد غابا منذ وقت طويل. لو أن خطبا وقع بها عند النهر، واكتشف سيد إنغلاند أنني لم أكن معها، بل جالسة مع خادمة نحتسي الشاي...

نهضتُ بسرعة وتناولتُ قبعتي.

قالت بليز: "يا للسماء، هل أنتِ في عجلة من أمرك؟"

"يجدر بي الاطمئنان على ميلي."

"ستكون بخير، لا تقلقي."

"أشكركِ على الحساء. وعلى الشاي."

"لكنكِ لم تشربيه بعد."

وفي تلك اللحظة فُتح باب المنزل وولجت منه ميلي وسيد بوث، ومعهما هبَّ تيار هواء بارد وعليهما بدا سرور بالغ. أسرعتُ نحوها، أنظف يديها بمحرمة.

قالت بليز: "أرأيتِ، ماذا قلت لكِ؟ عودي للجلوس، سأحضر فنجانا آخر. أوه، أنظروا، لقد استيقظ تشارلي. سوف يحتسي قليل من الشاي في صحن الفنجان، أليس كذلك؟ فلتجلسي هناك، يا آنستي، إلى جوار مربيتك، وسأحضر لكِ شريحة من كعك الفواكه. إيلي، هلا ذهبت سريعا إلى والدتك لإحضار المزيد من الحليب؟

سأضع إبريقا آخر على النار."

وهكذا واصلت، بتحدثها واهتمامها بالصغيرين، وتذكرتُ ما قاله سيد بوث، عن رغبة بليز في أن تكون خادمة أطفال. كانت ستجيد ذلك أيضا، هكذا فكرتُ وأنا أشاهدها تدلِّي محرمة أمام تشارلي، وأتساءل إن كان الأفضل لو أنها حصلت على الوظيفة في النهاية. كان حديثنا قد جعلني متقلقلة، وجلستُ على ذراع الأريكة أشعر بالفزع يغمرني، وكأنني مُقبلة على مصيبة ما، إلا أني لم أعرف قط ما هي.

***

وعلى بوابة المنزل، وصلت إلى مسامعي عبر نافذة غرفة المعيشة أصوات رجلين يصرخان، هيئتاهما المبهمة تذرع المكان جيئة وذهابا خلف الزجاج. عبرت بعربة الأطفال البوابة ودفعتها فوق الممشى الداخلي برفق، وأدخلتُ ميلي قبلي إلى المنزل وأغلقت بابه بهدوء، واعية لضيق في صدري. كانت السيدة إنجلاند تقف بتردد على السلم يبدو عليها الهلع، وهرعت نحونا في الحال.

"لقد وقَّعتُ الصك، وداوسون بنفسه شهد عليه!" هكذا هتف سيد إنغلاند، ولكن قبل أن ينهي جملته، صاح الرجل الثاني: "كان على داوسون أن يتحدث معي أولا."

أعقب ذلك صمت مدوٍّ. وحتى لا أثير الكثير من الضجة، رفعتُ تشارلي من تحت بطانياته، لكنه تذمر وركل الهواء بقدميه لأنزله. أمسكته بإحكام ودفعت عربة الأطفال نحو حجرة خلع الأحذية، لكن

السيدة إنجلاند أخذتها مني وهي تهمس: "سأفعل أنا ذلك. خذيهم إلى الطابق العلوي."

عاد الرجل الثاني للتكلم. "لقد سئمت وتعبت من إزالة الفوضى التي تصنعها تصرفاتك المتهورة. لولاي، لكنتَ انهرت."

"لست واحدا من أطفالك، لذا لا تتحدث معي وكأنني كذلك." كانت هذه أول مرة أسمع فيها صوت سيد إنغلاند يحمل كل هذا الغضب.

"بل أنت كذلك بالضبط." تحرك الصوت الثاني في اتجاه الردهة، بخطوات أنيقة وأرستقراطية. أمسكت بمعصم ميلي وسحبتها أعلى السلم.

"ستكون خسارة أن يضيع الاتفاق الذي كان بيننا كل هذه السنوات هباء." كانت نبرة سيد إنغلاند خفيفة ولكن خطيرة.

"بمعنى؟"

"بمعنى أنها ستكون خسارة. هذا كل شيء."

ساد صمت لعدة ثوان. ثم: "لا أقبل تهديدات من الأوغاد. اعتبر اتفاقنا منتهيا." شيء في البرودة الجليدية لذلك الصوت جعلني أعرف بالغريزة أنه لكونراد غريتريكس. وقد صدق حدسي: فقد عبر الردهة بخيلاء في لمحة من الفضي والأسود، صافقا باب المنزل خلفه. ارتجَّ الزجاج الملون، وفي الصمت المروِّع الذي أعقب ذلك، سمعتُ صوتا هائلا، لزجاج أو آنية خزف تتهشم.

ركضتُ إلى غرفة المعيشة ووجدتُ سيد إنغلاند واقفا أمام المدفأة، يلهث وكأنه خرج من صراع بالأيدي. وعلى الأرض بجانب النافذة كانت بقايا المزهرية الزرقاء الأنيقة التي كانت تزين رف

المدفأة. مددتُ رأسي ببطء نحو سيد إنغلاند، الذي حدق في وجهي بتعبير قاتل، وانكمشتُ إثر العنف الذي رأيته فيه. شرع تشارلي يبكي، وأدركتُ أنني ما زلتُ أحمله بين ذراعي. كنت أعرف أن عليَّ إخراجه من الغرفة لكن قدمي تسمَّرتا في الأرض.

تحدثت السيدة إنجلاند من ورائي. لم كنت قد سمعتُ اقترابها. "هل ألحقه؟" كان صوتها هادئا ومُسترضيا. كان صوت شخص لم يفاجئه ما رأى.

"كلا." رفع زوجها يدا إلى شاربه ومسحه، ثم أدخلها في جيب صدره ليسحب سيجارا. ثم أخرج وهو يرتجف، أداة قطع السيجار وقص ذبابته. "هاتها."

كدتُ أتقدم خطوة، لكن عينيه كانتا على زوجته. ترددت السيدة إنجلاند، ثم انحنت نحو السجادة. لم أستطع تحمل المزيد. كل شبر مني كان يصرخ طالبا أن أصعد بالصغيرين إلى الحضانة، عندما انبعث، أمام هلعي، نحيب مكتوم. كانت ميلي عند الباب في معطفها وقبعتها، وجهها أحمر ومنقبض. هرعتُ نحوها وأخرجتها من الغرفة، في نفس اللحظة التي انقشعت الصدمة عن تشارلي وبدأ هو الآخر ينوح.

"دادة ماي" صاح سيد إنغلاند من أمام المدفأة. "هاتِ الصغيرين."

تجمدتُ مكاني في مدخل الردهة. كانت تيلدا تقف عند المطبخ، وعلى وجهها نفس تعبيري. توقف الوقت، مع أن عقارب الساعة ذات الصندوق الطويل تدق بجانبي.

"دادة ماي."

"تشارلز، أرجوك..."

نظرت ميلي إليَّ برعب وضغطت يدي. تساءلت ماذا سيحدث لو أنني تجاهلته، لو أنني أخذتُ الصغيرين إلى الحضانة وأغلقتها علينا بالمفتاح.

"دادة ماي، هاتِ الصغيرين في الحال."

وقفت تيلدا كتمثال. نزعتُ عيني عن عينيها وسرت بطيئا بالصغيرين إلى الغرفة. كانت عينا السيدة إنجلاند كمصباحي تحذير فيما تقدم زوجها نحوي في حركة واحدة سريعة.

"سأخرج مع الصغار،" أعلن وهو يمد يديه إلى الرضيع وينتزعه من بين ذراعي.

قالت السيدة إنجلاند: "ظننتنا سنذهب لرؤية سول."

"وهذا ما سنفعله، أليس كذلك، يا عزيزتي؟" لم ينظر نحوي، موجها حديثه إلى ميلي، والتي أصبحت يدها الصغيرة في قبضته الآن.

قالت السيدة إنجلاند: "سأحضر قفازاتي."

"ستبقين هنا،" أجاب بهدوء، دون النظر إليها وتجاوزنا إلى الردهة، وتناول قبعته عن المشجب.

تمالكت السيدة إنجلاند نفسها بثبات شديد، وكأنها خشيت من الانهيار. "متى ستعود؟"

لحقتُ به وأنا أرتجف، فأمسكتُ بمقود عربة الأطفال لأوجهها نحو الباب، لكن سيد إنغلاند ثبتها في مكانها. "ستبقين في المنزل."

رمشتُ في مفاجأة. "لكن مكاني مع-"

"خذي بقية اليوم إجازة. لماذا لا تعودين إلى منزل صديقك، سيد بوث؟ كلاكما في غاية الانسجام معا." ثبَّت عينيه السوداوين الباردتين على عيني، ولم أجد فيهما أي ود. "لا داعي للخوف، يا دادة ماي. يحق للأب أن يخرج مع صغاره في أي وقت. أليس كذلك؟"

نظر في عيني لثانيتين، ثلاث، أربع، للتأكد من أني استوعبت كلامه. ثم إنه دفع ميلي عبر الباب بلطف، مُثبتا يده الأخرى حول تشارلي، وخرج خلفها وأغلق الباب. ارتج الزجاج الملون مرة أخرى، وابتعدت ظلالهم المشوشة. شعرتُ بالجدران تتمايل وتنهار من حولي، وظننت أنني قد أفقد الوعي.

"دادة ماي، ما الخطب؟"

هويتُ على ركبتي، ومددتُ كلتا يدي إلى البلاطات الصلبة.

"تيلدا؟ تيلدا!" صرخت السيدة إنجلاند.

جاءت الخادمة تركض من المطبخ. وأسندتني المرأتان إلى الدَّرج حيث جلستُ واتكأت مُرتجفة على الحائط.

"أرسلي في طلب الطبيب؛ دادة ماي ليست على ما يرام."

"يجب أن تلحقي به" توسلتُ إليها. "يجب أن تمنعيه."

"من؟"

"سيد إنغلاند!"

"لماذا؟"

"تعالي إلى هنا،" قالتها تيلدا، وهي ترفعني بيسر كما لو كنت دلوا فارغا. قادتني إلى غرفة المعيشة وغرقتُ وسط الوسائد وأرقدتُ رأسي الدائخ.

"أحضري لها كوب ماء، يا سيدة مانيون."

مر وجه الطاهية الوردي وقبعتها البيضاء أمام عيني وغاب. ثم عادت إلى المطبخ، وبدأتُ أستوعب غرفة المعيشة. وجهان قلقان حدقا بي، وأغمضت عيني.

"قد يكون كأس براندي أفضل؛ هناك قنينة في غرفة مكتب سيد إنغلاند."

إنني أفقد عقلي، هكذا قال. كان في كلماته إشارة مُلحَّة لتلك التي كنتُ قد قلتها منذ ثمانية أعوام، نفس الكلمات التي طُبعت على الجرائد، محفورة بحبر أسود: كان أفضل أب يمكن للمرء أن يحصل عليه، إلى أن فقد عقله. احتفظت بنسخة في علبتي الصفيح، كان العنوان قد بهت، أسفل صورتي وإلسي مع ضباط الشرطة الذين عثروا علينا. احتفظت بها لأذكِّر نفسي بما تجاوزته في أحلك لحظات حياتي، عندما شعرتُ بأنني ضعيفة وعاطفية، وأكاد أجن من رغبتي في فض جميع خطابات أبي، أختام البريد تنتشر مثل كدمات على الأظرف: عند زواياها ختم مستشفى برودمور للمجانين المجرمين.

سمعت البراندي يُصب، وتذكرت كيف تناولت ميلي يده، ورأيتُ هيئتيهما في مربعات زجاج ملون - أحمر وأزرق وأخضر.

نظرتُ إلى السيدة إنجلاند وقلت: "يجب أن تمنعيه."

بدأت الغرفة تلف بي مرة أخرى، وكنت أسقط إلى الوراء. كانت السماء سوداء حالكة، والنجوم آخر ما أتذكره.

الفصل العشرون

كنتُ في الثانية عشرة من عمري عندما حاول أبي أن يقتلني. بينما أنا وأمي ننظف مصابيح الزيت، خرج أبي من غرفة النوم. كان قد ظل مريضا لبضعة أيام، فتولت أمنا ورابي تشغيل المتجر واعتنيتُ أنا بالثلاثة الصغار. كنا قد تناولنا العشاء ثم رفعناه، وجلستُ وأمي على الطاولة مع المصابيح وطبق صغير بيننا فيه خل وماء.

ارتدى أبي قبعته ومعطفه. وحول رقبته التفَّت الكوفيَّة البنيَّة التي حكتها له في أحد أعياد الميلاد المجيدة. قال: "سآخذ الصغار في نزهة." قالها دون أن ينظر إلينا كما أصبح يفعل عادة، وكأنه يفضِّل ألا نراه. كانت وجنتاه غائرتان؛ وفقد وجهه كل معالمه. كانت صحته قد تحسنت لفترة وجيزة ذاك الربيع، فيغتسل كل صباح ويربط مئزره ليفتح المتجر. ثم انتكس. كان كشبح عالق على هذا الكوكب. لم يعش معنا، بل طاردنا، جالسا على كرسيه أو على حافة سريره، يحدق أمامه، يتحدث نادرا، ولا يضحك أبدا، وينسى ربط حذائه. لا يأكل كثيرا، وفي أيام لا يأكل قط. قالت أمنا أنه مريض. هذا كل ما قالته.

"إلى أين؟" لم ترفع أمي عينيها عن السكين التي تكحت بها. بدا عليها الإنهاك أكثر من أي وقت آخر. أحيانا ترمش وتنظر

حولها في دهشة، كمن استيقظت من حلم. ثم يحل عليها الإجهاد مرة أخرى، ويغمّي وجهها كستارة.

قال أبي: "لزيارة ابن عمي."

"أيهم؟ بيرت؟"

لم يقل أبي شيئا، تعبير وجهه مبهم. حسنا، كان يرتدي ملابسه. هذا تقدم، وسرَّني أنه شعر بتحسن كاف لزيارة أحد.

"سوف تعتني روبي بك،" قالتها أمي. "أليس كذلك؟"

قلت: "سآتي معك، يا أبي. لماذا لا نأخذ إلسي؟"

فذهبتُ أنا وإلسي.

***

أخذنا الترام إلى نيو ستريت وركبنا قطارا، ثم آخر، حيث وصلنا قبيل الحادية عشرة ليلا. أحضر أبي لكل منا تفاحة، وقشَّر تفاحة إلسي في العربة بسكين جيبه، بعد أن مسحها في سرواله. لم يتكلم كثيرا أثناء الرحلة، وكانت الساعة المتأخرة تعني أنَّ لا شيء يمكن رؤيته من النوافذ؛ فكل ما عكسه الزجاج المتسخ هو الضوء الباهت المنبعث من مصباح السقف.

كانت محطة القطار مبنى غائرا من الطوب والزجاج، وانتظرتُ مع إلسي فيما يستفسر والدنا عن عربات الترام. كان المطر ينهمر بغزارة، فاندفعنا إليها، ورأينا من حسن الحظ عربة ترام تنتظر عند المحطة. سأل والدنا السائق عن موعد آخر عربة.

كنت متعبة ومرتبكة، لكني التزمتُ الصمت. كنتُ قد تعلمت في تلك السن، أن أعرف السؤال المفيد من عدمه، وأسئلة الصغار التي لن يطرحها الكبار. سوف تعتني روبي بك. مازال أثر الخل في أصابعي.

كانت أول مرة أغادر فيها برمنغهام. لم أكن أعرف أقارب أبي، ولكن فيما انطلقت بنا عربة الترام وسط الظلام، تكوَّنت في رأسي صورة تشبه لقطة فوتوغرافية لعائلة كبيرة ورغيدة تملك أطفالا كثيرين وكلبين. اتكأت إلسي على كتفي وغفت؛ مضى على موعد نومها ساعات. لو كنتُ أعرف أن الرحلة ستطول هكذا، لما اقترحتُ أن نصحبها. ظلت عينا أبي على النوافذ، حيث رسم المطر خطوطا متعرجة على الزجاج فيما انطلقت العربة للأمام. نادى السائق على المحطة الأخيرة وترجلنا.

كنا آخر الركاب المترجلين. تحدث والدنا مرة أخرى مع السائق، لكن تدفق المياه غطى على صوتيهما. قدتُ إلسي بضعة خطوات بعيدا عنهما، ووجدنا نفسينا ننظر إلى نهر مظلم قوي وكبير، عرضه كعرض ثلاثة حقول ويمتد على الجهتين مد البصر. خلفنا حاجز صخري عمودي. كان المطر ما يزال ينهمر بغزارة. حمل أبي إلسي، وتبعته إلى ما بعد المحطة الأخيرة، والنهر على يسارنا. ثم لم نلبث أن وصلنا إلى درجات سلم تشق سورا حجريا عاليا. يظهر أنها تؤدي إلى غابة أو حديقة، لكن لم يخطر لي أن أسأل أبي إن كان يعرف أين نحن، وتبعته مثل نعجة. شققنا طريقنا بصعوبة، بعيدا عن المطر ولكن عن ضوء القمر أيضا، وانتهينا أخيرا إلى ممشى يصعد تلا. خيل إلي أننا ارتفعنا عن الحاجز الصخري؛ لأن صوت النهر انحسر

وانبسطت سماء الليل فوقنا. واصلنا السير للأعلى، وتجولنا قليلا وانعطفنا يسارا، ثم يمينا. شعرتُ بارتياح عندما وصلنا إلى كشك صغير لتحصيل رسوم في نافذته مصباح يبعث الدفء. سأل والدنا العامل عن موعد إغلاق الجسر.

"إنه لا يغلق، يا سيدي،" أجاب الرجل وهو يغمز لي.

لم أرَ أية جسور في الضوء الضعيف لمصابيح الشوارع، لا شيء سوى برج حجري كبير، يشبه قلعة، على بعد ثلاثين ياردة. ثبت أبي محرمته حول عنقي لحمايتي من المطر، مع أنني كنت مبتلة بالفعل. ولولا قبعتي لتعرض وجهي للأسوأ. فركت إلسي عينيها، وواصلنا طريقنا. فوي منتصف الطريق إلى البرج، توقف والدنا ليدخلها في معطفه، وأغلق أزراره عليها أمام المطر العنيف. وهنا سألته إن كان منزل ابن عمه في الجوار.

قال: "إنه ليس بعيدا، يا روبارب."

احتمينا أسفل البرج، ونحن نرتجف، ولم تلبث إلسي أن غلبها النعاس، فمها لا يُرى من خلف ياقة والدنا. أما تعبي أنا فقد أصابني بالخدر، وانشغلتُ قليلا بما سنفعله إن لم يتوقف المطر، لكني لم أقل شيئا آخر. مر شرطي ورفع قبعته تحية.

علّق قائلا: "ليست ليلة مناسبة للتنزه."

أومأ أبي، ومضى الشرطي. كان الطريق طويلا ومباشرا، يبتلعه الضباب من بعيد، ويؤطره من كل جانب سور حديدي هائل. من خلف قضبانه ممر مشاة مفصول عن السيارات، يضيئه بعد كل مسافة مصباح شارع يكافح الظلام. ظلت عينا أبي تحدق في أبعد

نقطة يختفى فيها الطريق خلف الضباب، وكأنه ينتظر شخصا ما سيظهر. مرت عربة أو اثنتان، تسيران بصعوبة فوق الوحل.

واصلنا السير، فدرنا حول البرج لنأخذ الممشى الأيسر للطريق. كانت الرؤية صعبة مع الأمطار، لكننا مررنا بفندق أو مبنى ما ضخم، له عشرات النوافذ المضيئة ومروج واسعة. نفثت مواقده دخانا فضيا حتى في هذه الساعة، وقلت لنفسي كم سيكون جميلا أن أعمل في مكان كهذا عندما أصبح في سن مناسبة، فأضع أدوات المائدة على مفارش بيضاء فيما تجلس سيدات بهيّات تغطيهن الجواهر في كراسي فخيمة.

كنا قد مشينا لعدة دقائق عندما عاد أبي على عقبيه.

"أبي؟"

شاهدته وهو يسير عكس الاتجاه مع إلسي، رأسه منخفض في مواجهة البرد. تمهّل، ثم دار على عقبيه وعاد في اتجاهي. شعرت ببداية توتر في معدتي. تصرف بصورة أغرب من المعتاد، وبدأت أشك أنه يعرف أين يعيش ابن عمه من الأساس. كنا هنا في مدينة غريبة، في منتصف الليل، تحت المطر الغزير، بلا خريطة أو عنوان نبدأ به. كان قد سأل عن جسر، لكني لم أر أية جسور، والنهر اختفى عن النظر.

عندما غير اتجاهه للمرة الثالثة، عائدا إلى البرج، قلت:

"أبي، إلى أين نذهب؟"

"سوف أحملك."

لم أستطع رؤية وجهه جيدا من تحت قبعته.

"لكنك تحمل إلسي."

رفعني وضمني إليه، ورأيت أنه كان يبكي. دفن وجهه في شعري، وتحولت العقدة في معدتي إلى انقباضة فيما واصل انتحابه.

"أبي، لماذا تبكي؟ هل أضعت الطريق؟ لا تقلق، يمكننا أن نسأل الشرطي كيف نصل إلى هناك."

استيقظت إلسي عندما شعرت بثقلي يعصرها، وتذمرت احتجاجا. تململتُ لأنزل، لكنه تشبث بي، مُنتحبا وكأن قلبه سينفطر، وذراعاه تقيدان ذراعي حتى لا أتحرك.

حملني إلى حافة الممشى الذي تسوِّره دروة مطلية بالأبيض. وصل ارتفاع السياج إلى كتفه، فرفعني حتى أصبحت أجلس فوقه، وكعباي يدخلان بين قضبانه. حدَّقت خلفي إلى اللا شيء؛ بدا أننا عند طرف حديقة أو ملعب كريكيت، خلفها لا شيء سوى ظلمة مترامية. تلألأت أضواء الفندق كنجوم، لكني وجدتُ شيئا غريبا فيها، في موقعها. وحينها أدركت أنها تحتنا. وفي لحظة دوار، شعرتُ وكأنني أتمرجح، وكأننا معلقون في الهواء، وتحت الممشى لا شيء على الإطلاق.

نظرتُ إلى أبي ونظر لي، وكنتُ واعية لإحساس غريب، بالهلع، أو الخوف، حين بدا أبي كشخص غريب. رغم أنه كان يمسك بي، إلا أن عينيه كانتا نائيتين، وكأنه تجاوز هذه اللحظة بالفعل، مُستعيدا ذكراها بعد سنوات عديدة. حدقت إلسي من تحت معطفه كمخلوق غابة مبلول، وقد اتسعت عيناها البنيتان.

قلت: "هل يمكنني أن أنزل الآن؟"

وضع رأسه على حجري، وكان جسده كله يتشنج وهو ينتحب. فاح معطفه برائحة صوف رطب وذراعاه محكمتان حولي. ثم دفعني أبي بكلتا يديه.

***

استيقظتُ في جناح الأطفال. شعرتُ بثقل بارد ورطب فوق جبيني، وكانت السيدة إنجلاند تجلس على فراشي الضيق، والقلق بادٍ عليها.

جاهدتُ للنهوض فقالت: "لا، لا تنهضي. يجب أن تظلي ممددة."

"أين إلسي؟"

"إلسي؟ أختك؟" امتلأ وجهها الجميل بالقلق. "ما أعلمه أنها في منزلها."

"أين الصغار؟"

"الصغار بخير."

"أين هم؟"

"إنهم مع والدهم."

"علينا أن نجدهم." نزعتُ الكمادة الباردة ودفعتُ نفسي للنهوض. كان الضوء خافتا، انسدلت الستائر أمام ضوء العصاري. تلمَّستُ مكان ساعتي، ووضعت السيدة إنجلاند يدا حازمة فوق معصمي.

"يجب أن تظلي في الفراش، يا دادة ماي. لقد فقدتِ الوعي، وتحتاجين إلى الراحة الآن."

"لا وقت للراحة."

تمتمت: "لديكِ كل الوقت الذي تحتاجين."

وعندها فُتح الباب ودخلت تيلدا بصينية شاي. "مرحبا بكِ في أرض الأحياء مرة أخرى!" أعلنت، وهي تضعها على فراش ميلي. "كنتِ تهذين بهراء حقيقي في نومك. لبن؟ سكر؟ لا أعرف كيف تشربينه."

قالت السيدة إنجلاند: "سأقوم أنا بذلك، يا تيلدا."

اقتربت الخادمة لمعاينتي. "تبدين شاحبة بالفعل. ربما هناك شيء في الجوار. قد يكون أثر باقٍ من الغاز. أبي يرفض إدخاله إلى المنزل."

"شكرا لكِ، يا تيلدا."

أغلقت الباب خلفها. راقبتُ السيدة إنجلاند لوهلة، وأنا أتذكر نظرة سيد إنغلاند، وما قاله. كان ذهني في شتات، والأفكار ترفرف مثل قصاصات الورق التي تنثر في الاحتفالات، لا منطق فيها. المزهرية المهشمة، الجدال مع سيد غريتريكس... لا بد أنه بخصوص المال. دائما المال هو السبب. وضعت السيدة إنجلاند ملعقتي سكر في الفنجان الذي يتصاعد منه البخار وناولته لي.

قالت: "قلتِ من قبل شيئا غريبا. ظننتِ أنَّ..." هزت رأسها، وكأنها تشعر بسخافة ما تقول. "ظننتِ أنَّ تشارلز سوف..."

أخذتُ رشفة، وأنعشني الشراب المُحلَّى. أجبتُ: "لابد أنني كنت أهذي." حدقت في وجهي، لكنني أبقيت عيني في فنجان الشاي بين يدي. "انسي رجاءً أنني قلت شيئا."

"لماذا قلتِ ذلك؟"

"لا أعرف. أنا آسفة، يا سيدتي."

"لن يفعل شيئا يؤذي الأطفال."

قلت: "صحيح."

***

لا أعرف كيف أمسكت بطرف السور. كنتُ أتشبث بالسور المطلي قبل أن أسقط، ومددتُ يدي اليمنى تلقائيا. كان ذلك لينقذني لو أنه حادث، لو أنَّ ذلك كله غلطة شنيعة. تدليتُ مثل قميص داخلي على مشجب، تعجزني الصدمة عن الصراخ، ويمنعني الهلع أن أستوعب ما يحدث. تخبَّطت ساقاي من تحتي، تحاولان التشبث بشيء ما. بكت إلسي بصوت خافت. وانتحب أبي. قرفص فأوقدت داخلي شعلة فرج. سأنجو، هكذا قلتُ لنفسي. ثم وضع أبي يده الكبيرة حول يدي، ذات اليد التي كانت تزيح شعري عن جبيني المحموم، والتي تمسك بيدي لنعبر الطريق. ثم إنه أرخى أزاح حلَّ أصابعي واحدا تلو الآخر.

***

كانت عيناي مغلقتان، لكن النوم جافاهما. سمعتُ الوقع الأنيق لحذاء السيدة إنجلاند فوق الأرضية الخشبية، ثم ولوج المفتاح في القفل. انبعثت من الخارج صيحة حادة لغراب على غصن قريب. وبعد لحظات قليلة عادت السيدة، وأغلقت الباب مرة أخرى. سمعتُ حفيف ورق، وبالفراش يغوص إثر جلوسها. أرسلت تنهيدة، قصيرة

وراضية، وفتحتُ عيني في نفس اللحظة التي انتهت فيها من دس شيء ما في صدريتها. أنزلت يدها من عند ياقتها ومسَّدت كم ثوبها. كانت قريرة البال، نظرتها ثابتة وهادئة.

سألتني: "هل تعرفين العامل الأكثر مهارة في أي مصنع؟"

نفيتُ بحركة من رأسي.

"البيسير. وظيفته وصل الأجزاء المقطوعة في الخيط أثناء عمل الماكينة. عليه أن يراقب بكرة الخيط كصقر، فيدخل بين الأنوال ويبحث عن عيوب. فإن عثر على واحد، يكون عليه إصلاحه دون أن يوقف الماكينة. إنه عمل خطير. والبيسير دائما من الأطفال، بسبب أحجامهم الصغيرة. يستطيعون النزول تحت الماكينات الآلات بسهولة أكبر.

بدأ جدي العمل بيسيرا وهو في السابعة، في مصنع برادفورد. وعندما وصل أبي وإخوته إلى نفس السن، أجبرهم على القيام بذلك أيضا لمدة أسبوعين، كنوع من طقوس العبور الانتقالية في حياة الإنسان. كان ذلك في حقيقة الأمر لتعليمهم كيف يميزون الخلل. العيوب. الشوائب. وكيف يصلحونها بسرعة فتتحول إلى غريزة. جميعهم الآن محترفون في إصلاح الخيوط المقطوعة. إنها من أقل المهن أجرا في المصانع، ومع ذلك فهي الأهم بطريقة ما. إنها تحافظ على سير العملية برمتها."

انتظرت أن تكمل، لكنها غرقت في الصمت. لم أفهم ماذا قصدت، وما الرسالة التي حاولت نقلها، وبحثتُ عن تعليق مناسب، أو سؤال مهذب. لكني لم أجد، ومرت اللحظة.

***

بعد أن رماني أبي، ألقى بإلسي. وشقَّت كلتانا مائتين وخمسين قدما من الفراغ، لنرتطم في نهايتها بسطح الماء المظلم.

في تلك الليلة من أيلول حدثت معجزتان. أولاهما أن كلتانا نجت من السقطة؛ والثانية، أننا هبطنا على بعد أقدام من قارب إرشاد يسمى مازيبا، يبحر عكس التيار لمرافقة سفينة من الميناء إلى الساحل. كان المطر ينهمر بغزارة تصعب معه رؤية أي شيء، لكن طاقم القارب سمع أول صوت ارتطام بالماء، متبوعا بما ظنوه صرخة نورس مدوية. ثم صوت ارتطام ثانٍ. تحلَّقوا حولنا وسحبونا إلى سطح القارب -إلسي أولا، بعمر ثلاث سنوات، وحجم دمية كبيرة، تشهق وتبكي وتتشبث بهم. ثم سحبوني بعدها، وقد ظنوا أني ميتة.

لم يكن غريبا على طاقم مازيبا أن يقابلوا أرواحا معذبة ارتمت كقطرات مطر من فوق الجسر المتلألئ الفسيح إلى النهر، ورأوهم يُنتشلون من الضفاف الموحلة بعد أن سحبتهم الرياح من الماء. إنما أطفال؟ لم يروا شيئا كهذا من قبل. وحالا أخذوني وأختي إلى حانة على الضفة وأيقظوا صاحبها. نُقلت إلسي بعجالة إلى طبيب جراح، فيما سعى فردان من طاقم القارب لإعادة إحيائي، كما فعلوا من قبل على متن القارب، بإفراغ رئتي من الماء الأسود كالقطران، والتنفس في فمي. ولم يصدق أيهما عندما صدر مني صوت يشبه نزع سدادة، أتبعه شلال من الماء. كنت قد متُّ، والآن أنا حيَّة.

"أين إلسي؟" قلتها، وأنا مستلقية على الأرض وقميصي الداخلي ملتصق بعظامي.

لم أتذكر كل هذا بالطبع. إنما قرأتُ عنه في الصحف مثل غيري. طبعوا صورة لي وإلسي مع مُنقذنا، القبطان. كان عجوزا طيبا، بلحية بيضاء وعينين بنيتين صغيرتين، وافتتن بإلسي. زارنا في المستشفى أكثر من مرة، ومعه شوكولاتة ومكسَّرات. وعندما حان وقت عودتنا إلى المنزل، أبدى كراهة في مفارقتها، ثم رحل وعيناه تترقرقان بالدموع.

ارتديتُ للتصوير معطفا بني اللون حروفه من الفرو يخص ستوديو التصوير، وقبعة ضخمة. ثم أخذوا لنا صورة صنعوا منها بطاقة تذكارية، جمعتنا بالقبطان ورجال الشرطة. ارتدينا فيها فستانين متماثلين بلون أسود وياقة دانتيل بيضاء. أمسكت إلسي دمية وجلست على ركبة القبطان. لم تستطع أن تقف على قدميها؛ لأن السقطة أضرَّت بعمودها الفقري، وتوجَّب عليها أن تتعلم المشي من جديد. أنبأت إصاباتها بظلال حزن ستخيم على حياتها. لم أصب أنا بأذى، لكن الذنب كان أسوأ من أي ألم خبرته، ومع أن الأطباء تفاءلوا وأخبروني أنني سأعيش حياة طبيعية، لكنني حتى في ذلك الوقت عرفتُ أنني لن أتعافى قط.

***

"دادة ماي؟" دخلت ميلي مجال رؤيتي بجانب المخدة. كانت الغرفة دافئة، مع فرقعة نار في موقد المدفأة، وأضاءت المصابيح

لتكسر عتمة الليل المقتربة. كان جناح الأطفال يزداد جاذبية في المساء، مثل مشهد في لوحة أو حلم.

جثت السيدة إنجلاند أمام سياج الموقد مع تشارلي، يلعبان بحصان خشبي. وإلى جانبهما صينية عليها ما تبقى من شاي المساء المخصص لجناح الأطفال.

قالت: "صه، يا ميلي. طلبتُ منكِ ألا توقظيها."

"لكنها لم تشرب شايها!"

"لا بأس، يا آنستي، لقد استيقظت." اعتدلتُ في الفراش. "سيدتي، سأهتم بالصغار."

"لن تفعلي شيئا. متى كانت آخر مرة اعتنى أحد بكِ؟"

تزحزحتُ للخلف حتى اتكأتُ على لوح السرير. وسألت ميلي: "هل رأيتِ السيد الصغير سول؟"

قالت: "نعم. واحتفظتُ لكِ بهذه." وناولتني كعكة زبيب.

"هذا لطفٌ كبير منك. شكرا لكِ. كيف حاله؟"

هزَّت كتفيها، ونظرتُ إلى والدتها.

أجابت: "أعتقد أنه بخير."

عاد الصغار إذن، وهذا يعني أن والدهم في المنزل. التوت عقدة في معدتي، وراقبتُ السيدة إنجلاند وهي تلعب مع ابنها، فتركض بالحصان عبر البساط اليدوي. كان يعرف حقيقتي.

عدتُ بذاكرتي إلى ليلتي الأولى في منزل هاردكاسل، عندما استقبلني بنفسه في المحطة. هل كان يعرف منذ البداية؟ أزَّ عقلي وهَذَرَ كواحد من أنواله، وتذكرتُ كم كان غريبا أن السيدة إنجلاند

لم تتوقع وصولي. كيف كانت تنسى المواعيد، وتأكل الكفاف، وتنسى الغاز مفتوحا. كيف ظهر عليها ازدراؤها لأبويها، وحُبست في غرفتها ليلا كالأطفال. كان قد شكرني على لطفي معها، وباستيعاب بدأ بطيئا، أدركتُ أنني كنت شريكة في الجريمة.

طرق الباب ودخلت تيلدا لاستعادة صينية الشاي. لم أرغب في التعرض لاستجواب آخر، مهما بلغت رقته، لذلك أغمضت عيني وتظاهرتُ بالنوم.

خلف صوت احتكاك الأواني الخزفية ببعضها، قالت تيلدا بصوت خافت: "أهذا كل شيء، يا سيدتي؟"

أجابت السيدة إنجلاند: "نعم، شكرا لكِ. أظن دادة ماي تحتاج إلى النوم فقط." ثم قالت والخادمة تنسحب: "تيلدا. هلا طلبتِ من سيد إنغلاند أن يأتي إلى جناح الأطفال؟"

خفق قلبي: لا، لا، لا.

وخلال دقائق سمعتُ خطوات متأنِّية وأرستقراطية على الأرضية الخشبية. اندفع نسيم هواء ولامس وجهي، وانتشر وجوده في الغرفة مثل عطر. تذكرتُ كيف تقزَّمت إلى جانبه الأسرة الضيقة، والأغراض المصنوعة لتناسب الأطفال، وبدا كل شيء معه وكأنه يتقلص، بما فيهم أنا. دق قلبي عاليا داخل صدري، وجاهدتُ حتى لا أحرِّك ساكنا. ساد صمت وجيز استوعب فيه المشهد الصغير أمامه.

سأل: "أليست أفضل حالا؟"

"كلا، يا تشارلز."

"حسن، هل أستدعي طبيبا؟"

"لا أظن هذا ضروريا. سيوصي بالراحة فقط."

أصدر تشارلي أصواتا طفولية وصدم حصانين ببعضهما.

"أعتقد أن دادة ماي تحتاج لمن يبقى معها الليلة. لا يمكنها رعاية الصغيرين وهي في هذه الحالة."

"ظننتها مجرد إغماءة."

"إنها ما زالت دائخة. لا أريدها أن تنهض من فراشها وتخاطر بالوقوع."

"لتقم تيلدا بذلك."

"لكن تيلدا تستيقظ في السادسة لتشعل المدافئ."

دقت ساعتي في جيبي، وتشقق حطب المدفأة وأرسل شراراته. بدا لي أنهما يتبادلان حديثا صامتا، حديثا لم أكن لأفسره دون رؤية تعابيرهما، ولغة جسديهما. كنت أعرف أنه يرمقني. شعرت بعينيه تثقبان جلدي.

لماذا عادت السيدة إنجلاند من عش الغراب قبل الأوان؟ لماذا كانت تعرج في طريقها إلى الحمام وكأنها تتألم مع كل خطوة؟ يتضاجعان ككلبين في خندق. ماذا لو أن هذا ليس ما يفعلانه؟

هتفت ميلي: "ماما، أنتِ نامي معنا."

أسكتتها والدتها في الحال، وتحركت ألواح الأرضية. ساد الصمت لعدة ثوان ثقيلا حتى لأشعر بمذاقه. تذكرت ما قالته لي في عش الغراب بتلك الغرفة الصغيرة والضيقة، عندما أرادت البقاء مع سول. لا بد أن يعتقد أنها فكرته.

قال: "حسن، ما رأيكِ؟"

"رأيي في ماذا، يا تشارلز؟"

"أن تبيتي هنا معهم الليلة."

بدا أن زوجته تفكر في الأمر. "دادة ماي تتفانى في الاهتمام بنا، وأظنه واجبا أن أردَّ الجميل."

قال "صحيح. قُضي الأمر إذن."

بعد انصرافه، فتحتُ عينيَّ ورأيت السيدة إنجلاند ترفع تشارلي. ثم فتشت في مهده عن رداء نومه، لتجده تحت المخدة، وجلست معه على سرير سول. حلَّت أزراره بأصابع قليلة الخبرة، لتنزع عنه بعدها ثيابه وجوربيه.

"سيدتي؟" تكلمتُ دون أن أحرك رأسي عن المخدة.

نقلت أنظارها من السرير إلى ناحيتي، دون أن تترك قدمي ابنها الصغيرتان والسمينتان. صرخ مسرورا، وتجمدت ابتسامتها على وجهها عندما رأت تعبير وجهي.

"لستِ من أخذ خطاباتي، صحيح؟"

صمت قصير. حدقت في وجهي، ثم حركت رأسها بحركة نفي تكاد لا ترى.

***

وجدوا أبي في أولى ساعات الفجر، يتجول قرب محطة قطار. كان مبتلا تماما ويهذي؛ حتى ظنه الشرطي في البداية مخمورا. وجدوا في جيب معطفه بضعة شلنات وخطابا من خبير مزادات يحدد موعدا لزيارة متجرنا وتثمين محتوياته. أخبرهم باسمه وعنوانه، وصفَّده الشرطي واقتاده إلى المخفر. استسلم دون مقاومة، وسارا

معا في الشوارع المظلمة والهادئة. وفي المخفر قدموا له مرقة لحم ساخنة واستدعوا الطبيب. ثم عُقدت في صباح اليوم التالي، جلسة استماع في المحكمة الابتدائية. لم يدل بأي تصريح، واكتفى بالتماس لزيارتي وإلسي في المستوصف. رُفض طلبه، ولم أر أبي مرة أخرى.

***

وأنا الآن أحلم بأنني مفردي في المصنع، واقفة أمام نول صوته يصمُّ الآذان. تنهرس الخيوط في داخله وتخرج كأمواج تهدد بإغراقي. تسللت أشعة الشمس عبر النوافذ العالية، وتطاير القطن في كل مكان كالثلج. في نهاية القاعة الشاسعة كان أخي رابي وقد أصبح شابًّا. نادى ويده تغطي فمه، لكن الضجيج المدوي حال بيني وبين سماعه. أشار بيده، واستدرت لأرى أبي يتجه نحوي بخطوات واسعة عبر الماكينات. مظهره يشبه تلك الليلة على الجسر، في معطفه الصوف المبلول وقبعته، ويرتدي الكوفية التي حكتها له بمناسبة عيد الميلاد المجيد.

"روبي."

ظهر أمامي مصباح، ويد بيضاء صغيرة. وخلف الضوء الدافئ وجه مستدير شاحب ينسدل الشعر على جانبيه.

"أين إلسي؟"

ثم استوعبتُ أين أنا.

قلت: "معذرة."

"لا بأس. كنتِ تصرخين."

"هل الصغار بأمان، يا سيدتي؟"

"بالطبع،" همست. وكانت راكعة بجانب سريري، أنفاسها عذبة على وجهي. "كنتِ تتكلمين عن والدك. في صوتكِ خوف."

"إنه يحتضر."

"حقا؟ لماذا لم تقولي ذلك؟ يجب أن تذهبي إليه."

"لا أستطيع."

"ولم لا؟" خفق ضوء المصباح وارتعش في الصمت. ثم بعد وهلة، قالت: "أنا آسفة لاضطراري أن أفعل هذا الآن. ليت الأمور لم تجر على هذا النحو."

"تفعلي ماذا، يا سيدتي؟" لم أكن أصغي لها بالكامل، فكنتُ مازلتُ أفكر في حلمي، في الأنوال وأبي يتقدم نحوي.

عادت للحديث. "عديني أنكِ ستحمين الصغار؟ أنكِ لن تتركي ميلي وتشارلي؟"

شعرت بعقلي كقطنة: رطبة ومنتفخة. وهمستُ: "ماذا تقصدين؟"

خلفها في الظلام، تنفست ميلي بعمق.

ارتجفت السيدة إنجلاند، مع أن روبها كان مُحكما حول جسدها. "هل ستكونين بخير الآن؟" سألتني، مع أنها كانت شاحبة وترتعش.

سألت: "ماذا سنفعل في الصباح؟"

قالت: "كل شيء سيكون بخير. لا يجب أن تقلقي."

قلت: "يجب أن أغلق الباب بالمفتاح."

أغلقته بالفعل. نامي،" أخبرتني، وهي تغطيني باللحاف مرة

أخرى.

استكنتُ تحت أغطية الفراش، لأستسلم مرة أخرى للإرهاق وأتركه يجرفني.

الفصل الواحد والعشرون

أيقظني بكاء تشارلي. كانت الغرفة مظلمة، والليل حالك وثقيل؛ حتى علمتُ دون أن أنظر في ساعتي، أنها الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل. اضجعتُ في الدفء قليلا، لأرى إن كان سيهدأ، لكنه أنَّ مرة أخرى وجذب جسده حتى نهض على قدميه. دفعت نفسي وأنا أتثائب من تحت الأغطية، ومشيتُ بخطى خفيفة إلى النافذة وسحبت الستارة بهدوء، وفتحتُ الشيش حتى يدخل ضوء القمر للغرفة. رفعتُ تشارلي وتشممته. احتفظتُ بدستة صغيرة من الحفاضات في حقيبة مستلزمات حمام عند طرف سريري وشرعتُ في تنظيفه وتغيير حفاضه وهو يناغيني، فأسكتُّه بصوت خافت حتى لا أوقظ البقية. كانت السيدة إنجلاند قد نامت في فراش سول، وميلي في فراشها، رغم رغبتها في النوم مع والدتها. نزعتُ حفاض تشارلي المبلل من بين ساقيه وألقيته في نونيَّتي، ثم تناولتُ الإبريق من على حوض غسيل الوجه. ومع تغطيسي المنشفة في الماء، اعتادت عيني مع الظلام. لاحظتُ أن لحاف ميلي قد انزاح عن سريرها وانحنيتُ لأعيده، فرفعته وتقطب جبيني. كان الفراش خاليا. أجلتُ بصري في

الغرفة، محاولة استخلاص هيئتين في فراش سول. لكنه كان خاليا بدوره، وباب جناح الأطفال مفتوح. راقبني تشارلي من سريره وأنا أتلمَّس ملاءات السرير وأرفع المخدَّات، وكأن ميلي ووالدتها تختبئان أسفلها. كيف لم أسمع شيئا؟ مددتُ يدا لإغلاق الباب، ووجدت المفتاح في الجهة الداخلية من القفل. تغضَّن جبيني عندما لم أفهم ما يحدث. لا أعرف كيف أشعلتُ السهَّارة، وإن كان ذلك كلَّفني ثلاثة أو أربعة أعواد ثقاب. كان مدخل الردهة مُظلما وصامتا كالقبر، وباب المنزل الرئيسي مغلق. ذهبتُ حافية القدمين إلى غرفة النشاط. وفي غياب من يستعملها، وأشعة شمس تلونها، بدت اللعب وقطع الأثاث، أقرب لشياطين، جاثمين في الظلام. ارتجفتُ وعدتُ إلى غرفة النوم.

"كله ذهب،" قالها تشارلي.

رمشتُ في ذهول.

"تشارلي؟"

قالها مرة أخرى، رافعا كفين فارغتين. "كلهم ذهبوا." كلماته الأولى. انتظر استجابتي، لكني أردتُ البكاء. كانت السيدة إنجلاند قد طلبت مني الاعتناء بميلي وتشارلي. فإلى أين تكون ذهبت إذن؟ وضعتُ مفتاح جناح الأطفال في مئزري، المعلق على المشجب، لكن السيدة إنجلاند هي من أقفلت الباب هذه الليلة، ولا بد أنها هي من تركته في الباب. ربما أرادت العودة إلى فراشها. لكن ماذا عن ميلي؟ وضعتُ تشارلي مرة أخرى في مهده؛ ومن لطف الله أنه لم يتشكَّى واستدار وانطوى على جانبه لينام.

وفي فسحة السلم وقفتُ بلا حراك قليلا، وأنا أصغي سمعي.

تكَّت الساعة ذات الصندوق الطويل في الردهة، ولم أجد ضوءا في الطابق الأرضي. جميع غرف النوم مُغلقة، بما فيهم غرفة سيد إنغلاند. أتى شخير خفيف من وراء الباب. أخذتني قدماي الحافيتان فوق الأرضية الحجرية إلى غرفة نوم السيدة، والتي كانت غير موصدة وخالية، والسرير مرتب. غرفة مبيت الضيوف أيضا كانت شاغرة، وكذلك الحمام ودورة المياه ودولاب الملاءات... نزلتُ بخطوات خفيفة إلى الطابق الأرضي مع مصباحي، فنظرتُ في كل غرفة من الغرف التي التصقت بها راحة التبغ وملمع الأثاث. وعلى عتبة غرفة المعيشة، دُست على شيء صغير وصلب، وكدتُ أصرخ: ذبابة سيجار أخرى. طويتها في كفي وأنا أمعن التفكير.

لم تكن السيدة إنجلاند لتخرج بميلي في هذه الساعة، حتى بالعربة. جربت بتردد أن أفتح الباب الرئيسي، فأدرتُ المقبض النحاسي برفق، وأمام دهشتي وجدته يفتح. غمرني شعور بالرعب بطيئا ومُصقعا. ليت الأمور لم تجر على هذا النحو. لو أن السيدة إنجلاند غادرت، ولحقت بها ميلي وتاهت، أو الأسوأ من ذلك... منعتُ نفسي من التفكير في ذلك. نظرتُ خارجا في الفناء المظلم وأنصتُّ للرياح تحرك الأشجار، والنهر يجري بذات الحيوية الفائقة دون كلل. لم أملك حرية اتخاذ القرار، بل فقط مجرد تقبله، وهو ما فعلته دون تردد. فأغلقت الباب وصعدتُ إلى الطابق العلوي لأحضر عباءتي.

كان المطر ينهمر، لكنه ناعم ورقيق، كأنه يعتذر. بعد أن تركت السهَّارة الضعيفة على طاولة الردهة، أخذت المصباح مكانها وأضأته على ممسحة الباب، وأنا أتسحَّبُ من المنزل وألقي عود

الثقاب خلف إصيص زهور.

كانت الغابة كتلة صلبة متصلة تمتد حتى سماء الليل الغائمة. لو كان الأمر بيدي لتجنبتُ المغامرة بدخولها، مُتخيلة الجذور المتشابكة والزلقة والأرض المُخضَّلة التي هوت واندفعت دون تمهيد تجاه النهر. في منتصف المسافة على الطريق، ناديتُ على ميلي. إيقاظ السيد كان احتمالا لم أستطع وضعه في اعتباري؛ فإحدى رعاياي مفقودة وعليَّ إيجادها. تخيُّل غضب سيد إنغلاند كان كافيا لأسعى في الابتعاد: تلك العينان السوداوان الباردتان نُسختا داخل عقلي كصورة من كابوس. نفضتُ رأسي، مُتقطعة الأنفاس، وأسرعتُ خطاي.

"ميلي؟" ناديتُ بصوت أعلى، آملة أن يحجب حفيف الأشجار صوتي عن المنزل. ارتفعت الأجمَّة على جانبي الطريق، وكأنها تربو نحو الضوء. كل أماكن الاختباء، كل الجذوع الغليظة والنتوءات الصغيرة تلك التي يمكن لأي أحد أن يراقبني منها. شعرتُ فجأة بالغابة شاسعة ومرعبة بصورة لم تخطر ببالي قط في النهار. أخذتني قدماي للأمام، بيد أن كل شبر مني توسل لي بالعودة. تجادلت مع نفسي: كان التصرف الصحيح هو أن أوقظ سيد إنغلاند، وأصحي تيلدا، وأستدعي شرطيا. لكن السيدة إنجلاند ليست مفقودة: بل هربت. هي لا ترغب على الأرجح أن نعثر عليها. لكن إلى متى ستختفي؟ لساعة، لليلة، للأبد؟ كان الخيار الآخر، والأقل جاذبية بين الجميع، هو القبول بتلك الحقيقة والعودة إلى الفراش، وهناك يمكنني الاستيقاظ صباحا والتظاهر بأنني اكتشفتُ غيابهم لتوي. آسفة لأنني مضطرة للقيام

بذلك الآن. تسابقت الاحتمالات داخل رأسي، لكنها ظلت تميل لواحد بعينه.

"ميلي؟"

بدا النهر أعلى صوتا في الليل، وتوقفت قليلا فوق الجسر العتيق، قد تضخم حجم الماء من أسفله. مضيتُ بالمصباح فوق الجسر وأنا أتشبث بسوره، وأصلي حتى لا أرى ثوب نوم أبيض صغيرا تمزق فوق صخرة، والتيار يشده ويلطمه. لكني لم أر سوى الماء، أسود ومترقرقا، ومتدفقا في رحلته المتواصلة. وعلى الضفة الأخرى، لاح المصنع مظلما وصامتا، تمتد مدخنته في سماء الليل. مررت بالإسطبل، مُستأنسة بالمخلوقات الدافئة التي تنام على قشّه، وفوقهم بن وبرودلي.

باعدتُ بيني وبين المصنع قدر الإمكان فيما أتحرك على الطريق المرصوف الأملس، وأواصل الهتاف باسم ميلي مع ثوران من الأفكار في عقلي. هل أخذتها معها؟ سيؤدي هذا الفعل إلى ضرورة البحث عنها. فوفقا للقانون، الطفل يخص والده وليس والدته. لو أنها تخطط للهرب، فلن يكون من الذكاء أن تأخذ ابنتها معها. إن السيدة إنجلاند من عائلة غريتريكس، ابنة عائلة تنتشر مصانعها كعملات معدنية في محيط أميال، حفيدة رجل بلغ ثراءه حد بناءه بلدة كاملة. ستصبح حديثا يتصدر الصفحات الأولى من الجرائد، فضيحة مصوَّرة. ارتعدتُ من الفكرة، من الاقتحام الذي سيحدث في شئون المنزل، لأني سبق ومررتُ بذلك. بعدما ذهب أبي إلى برودمور، فكرت أمي في الانتقال من شارع لونغمور. لكن الشروع في القتل جاء بالنفع

على المتجر، وازدحم آ. ماي أكثر من أي وقت مضى. فكان الزبائن يعاينون سلال اللفت، وعلب القهوة، قبل أن تنتقل أعينهم لا محالة إلى الباب خلف طاولة البيع، أملا في لمحة من بنات ماي. أجبرتنا أمنا على البقاء في الطابق العلوي أو المخزن، وشغلتنا بأعمال المنزل وجرد المخزون. الجيران والغرباء والأصدقاء، جميعهم استقصوا عن أخبارنا، وأرادوا أن يعرفوا كيف هي حالنا. هل أصابنا تلف، أو عصبية، أو اضطراب؟ ربما ما أصابنا هو الغضب؛ ربما كان سينتهي بنا الأمر في مصحة مثل أبينا. أنا نفسي لم أعرف ماهية شعوري حتى مرَّت عليَّ الكلمة ذات صباح وأنا أصف علب الدجاج المغلفة بالجرائد ولمحتها في منتصف مقال كُتب بكلمات صغيرة: تعرَّض للخيانة. قال الناس أن نجاتنا معجزة، لكن ذاك لم يكن شعوري.

حملتُ مصباحي بين الأشجار. تساقط المطر بنعومة فجعل أوراق الشجر المتحللة مبلولة وزلقة. خطوتُ فوق الأغصان والفطر، فتوحَّل ثوب نومي. كنت قد ألقيتُ عباءتي فوق رأسي، لكنها لم تدفئني إلا قليلا، وانكشفت ساقاي فوق حذائي. وعندها فقط، سمعتُ صوت عويل خافتا جدا، مثل حيوان. مثل طفل.

"ميلي؟" هتفت، وأنا في مكاني، شاحذة كل حواسي لأصغي. توقف الصوت، ثم عاد من جديد: أنين منخفض، نشيج. بدأت أركض وأنا أزجُّ بالمصباح في كل الاتجاهات. أن تكون الطفلة التي أحبها وأكترث لها موجودة هنا حقا أثناء الليل -كان ذلك عصيًّا على الفهم، وبعيدا عن المنطق، وفي اللحظة التي أقنعت نفسي باستحالة ذلك وبكونها تجلس في كرسي عربة جلدي مع والدتها بعيدا جدا عن هنا، رأيت قواما أبيض وسط الظلام. مع اندفاعي للأمام، فقدت أثره،

وذراعي تزداد وهنا جراء حمل المصباح عاليا، ثم فجأة، ظهرت في مسار ضوئه، ميلي مصدمة في ثوب نومها. قد لطخت الأوساخ وجهها وقدميها الحافيتين، والتصق بها شعرها المبلول. وصرختُ، صرخة إشفاق لا إرادية وخشنة من قوتها أسقطتُ المصباح، فتحطم في الحال وانطفأ، متدحرجا أسفل الضفة.

كانت الفتاة الصغيرة تبكي. فهدَّأتها، وأنا أنزل على ركبتي وأضمها نحوي، وأهدهدنا معا لأطمئنها وأطمئنني.

قلت لها "أنتِ في أمان. أنتِ في أمان." كررتها، عشرات المرات بينما هي تتشبث بي، عاجزة عن الكلام. وبعد بضع دقائق، تراجع صوت بكاؤها إلى شهقات وحازوقات صغيرة. أخذتها داخل عباءتي؛ لم يخطر لي أن أحضر شيئا يدفئها.

سألتها: "أين ماما؟"

لم تجب ومسحت أنفها بكم ثوبها.

"ميلي، هل خرجتِ من المنزل مع ماما؟"

أنَّت وهزت رأسها.

"هل رأيتها؟ أين هي؟"

ارتعشَت وتأوهَت. على الأقل وجدتها، على قيد الحياة. نهضتُ ورفعتها حول خصري لآخذ نفس الطريق الذي جئتُ به إلى النهر، والذي سيقودنا إلى المنزل. تشبثت ميلي بضفيرتي كحبل. وشعرتُ بوزنها يزيد مع كل خطوة، وكانت ترتجف. أنزلتها ووضعت عباءتي حولها، ثم حملتها مرة أخرى. كنا نتقدم ببطء، ولم يكن حتى خرجنا من الغلاف الشجري وانتصب المصنع مظلما ومُتوعدا حتى

حاولتُ مرة أخرى.

"ميلي، أين ماما؟"

"لا أعرف،" وكانت تئن.

"هل غادرتِ معها؟"

هزت رأسها.

"لماذا غادرتِ المنزل؟"

"كان الباب مفتوحا وماما لم تكن في الفراش."

"هل سمعتها وهي تغادر؟"

هزة رأس أخرى.

هاجمت ظهري وخزات ألم حادة عرفتُ أني سأدفع ثمنها في الصباح. مشيتُ بحذر فوق حجر الطريق، وعبر البوابة التي أصدرت صريرا عند فتحها وعلى الممشى المؤدي إلى باب المنزل. ولحسن الحظ، لم يكن أحد قد أوصده، وأغلقته خلفي، وانهرتُ إليه مع تنهيدة. رحب بنا وهج السَّهارة الخافت، وتكّت الساعة برقة في آخر الردهة، والتي لم تبدُ قط بهذا الخواء حتى عندما كنتُ بمفردي، مع أفراد غريتريكس يراقبون من براويزهم الذهبية. بدون مفتاح أغلق به الباب وبدون فكرة عن المكان الذي يوضع فيه، حملتُ ميلي بجهد إلى أعلى.

كان تشارلي نائما، إحدى ذراعيه قد ارتمت إلى جانب رأسه، وفمه الوردي الرقيق فاغر. قاومت الرغبة في حمله وضمّه لي؛ وعوضا عن ذلك، شددتُ بطانيته حوله وأنزل الناموسية. ارتجفت ميلي، فخلعتُ عنها ثوب نومها وتناولتُ آخر نظيفا من خزانة الملابس،

فألبستها إياه ودثرتها ببطانية. جلست على فراشها وأخذتها في حضني.

"أين ذهبت والدتك؟" همستُ في شعرها وأنا أهدهدها. "هل طلبت منكِ الذهاب معها؟"

هزت رأسها ومسحت وجهها بطرف البطانية.

"هل يمكنك إخباري بما حدث؟"

"استيقظتُ،" قالت مع شهقات صغيرة متقطعة. "فلم أجد ماما. وذهبتُ لأرى إن كانت قد عادت إلى فراشها، لكن الباب كان موصدا. ثم وجدتُ المفتاح على الأرض، ففتحته. لكن غرفة نومها كانت خالية، ولم تكن في المنزل. قال بابا أنها تمشي أثناء نومها، فظننتها ربما تفعل ذلك. ثم وجدت باب المنزل مفتوحا، فخرجتُ إلى الفناء للبحث عنها لأنني ظننت أنها قد تكون ضلت الطريق أو في الغابة. لم أكن أريدها أن تخاف. ثم ضللتُ الطريق."

همستُ، "كنتِ شجاعة جدا. لا أعرف بناتا صغيرات قد يفعلن ما فعلت."

"أنا لا أَخاف الغابة، بل الظلام فقط."

أومأتُ لها وضممتها لي. "لم تريها إذن وهي تنهض؟"

هزت رأسها. "قرأت لي قصة على فراشي، ثم أوت إلى فراش سول. لكنها قبل أن تفعل ظلت تبكي. وتقبلني أنا وتشارلي وتضمنا."

صمتنا لحظات حالما أستوعب ما قالت. ثم، وكأنها تستطيع قراءة أفكاري، سألت: "هل ستعود ماما؟"

كنا نجلس متكئتين إلى الحائط كما كانت السيدة إنجلاند قد فعلت من قبل، وأقدامنا تتدلى من على السرير. راقبتهما من على

مخدتي، وضوء المصباح يغمرهما، وقلتُ لنفسي كم يبدو مشهدهما معا جميلا. ثم أنني غرقتُ في النوم واستيقظتُ على السيدة إنجلاند تطلب مني الاعتناء بالصغار. فكرتُ في كل الإشارات، التي أضحت واضحة الآن: صندوق أمتعتها الموضَّب دون سبب، والسيماء الحزينة التي حملت بها تشارلي، وكيف طلبت مني حماية الصغار.

"ستفعل بالطبع،" قلتها بيسر بينما قلبي يدق بعنف في صدري. "وسأكون هنا لأعتني بكِ. والآن،" أخذتُ نفسا. "يجب أن تنامي."

"هل ستجلسين معي؟"

"نعم." أرقدتها ومسدتُ على شعرها، وحاولتُ ألا أفكر في الصباح.

حال صعودي إلى سريري بحركات متيبسة، أرحتُ رأسي على الحائط وأنصتُّ إلى التكَّات الخافتة لساعتي في مئزري. خلف الدقات الناعمة كان هناك صوت ارتطام مكتوم، مثل عقرب ساعات كبير، أو باب... مقطبة الحاجبين، نهضتُ على ركبتي ووضعت يدي بين شرائح الشيش لأوسع بينها.

كان سيد إنغلاند يسير في الممشى مبتعدا عن المنزل. أغلق البوابة وقطع المنطقة المرصوفة بخطى واسعة وعازمة، حتى اختفى في نهايتها وسط الأشجار. لم يكن يحمل مصباحا. حدقتُ في البقعة التي اختفى فيها، لكن الظلمة كانت مُعتمة، حتى لتراكمت في محيط رؤيتي. انبعثت من تشارلي تنهيدة صغيرة من خلفي، واستدرت لأنظر إليه وأخته، كلاهما يذهبان في النوم سريعا. شقَّ ضوء القمر

شعاعا عبر الشيش، فجعل فرشاة شعري بظهرها الفضي تلمع فوق منضدة الزينة. مررتُ يدي عليها، فشعرتُ كم كانت ثقيلة، وكم كانت غالية الثمن. عندما منحتني إياها سيم، شعرتُ بأنني جزء من كيان ما لأول مرة في حياتي. أغمضتُ عيني وتخيلتها منكبَّة على طاولة مكتبها، وتكتب. فورتيس إن أردويس، أخبرتنا في يومنا الأول، وهي تمسك بكلتي يديها منصة القراءة في قاعة المحاضرات. البأس في الشدائد. تذكرتُ المزهرية الزرقاء التي تحولت إلى ركام مهشم فوق السجادة، وجه السيدة إنجلاند الممتقع. كم كانت هادئة وثابتة، رغم أن زوجها صوَّرها شخصا ضعيفا، مجنونا، خطيرا. وعندها عرفتُ أين هي.

بحذر، حتى لا يستيقظ الصغيران، جلستُ على حافة السرير وربطتُ حذائي مرة ثانية.

الفصل الثاني والعشرون

كانت الغابة ليلا أبعد ما يكون عن الصمت. فأطلقت طيور السُّبَد والبوم شدوها الانفرادي الغريب، وسحق حذائي الأحجار المتناثرة في الطريق. وأحاطني من كل اتجاه صوت الماء: جداول وغدران صغيرة انحدرت بلا توقف إلى النهر، في صخب من البقبقة، واللقلقة، والخرخرة. كان المطر قد توقف، وأطل القمر من وراء حجابه الضبابي. أحكمتُ ضم عباءتي حول عنقي، مُدثِّرة وجهي بشالي.

وجدتُ السير أسهل بدون مصباح، والذي أضفى قتامة أكبر على كل شيء خارج دائرته. كان بصيص القمر مُرشدا كافيا، وتكيَّفت عيناي مع المشهد دون صعوبة. غادرتُ ساحة المصنع وتوقفت قليلا على طريق الخيول الذي يمر بمباني الخدمة، ونظرتُ يسارا إلى أرض البور ويمينا في اتجاه البلدة. انعطفتُ يسارا، مارَّة ببركة المصنع، سطحها الأملس والمصقول يشبه مرآة وُضعت في وجه سماء الليل. تسلق شجر الصنوبر جانب التل المُطل على الطريق، والذي شق الوادي مثل شريط شبحي، وحاولت أن أتذكر كيف أصل إلى الكوخ الواطئ المنعزل في المستنقع.

كنتُ قد أغلقت باب جناح الأطفال بالمفتاح؛ وهكذا لن يهرب أحد هذه المرة. إذا سار كل شيء على ما يرام، فبوسعي التسلل إلى الداخل دون أن يلاحظني أحد. أما لو عدتُ بعد السيد... لا، أخبرتُ نفسي، لا تفكري في هذا. واصلي السير فحسب. حملتني ساقاي على الطريق الصاعد، وإلى يساري يلوح الجرف كشبح.

"روبي؟" هسيس، لا تخطئه الأذن.

كدتُ أتعثر من الصدمة. تجمدتُ، وأنا أرسل بصري إلى الجذوع النحيلة والأغصان السوداء. كان عسيرا أن أسمع أي شيء أعلى من صوت دفقات الدم في أذني. وبعد ثوان أتى الهسيس مرة أخرى.

"روبي؟ أهذه أنتِ؟"

كان صوتا نسائيا.

"من هناك؟" همستُ بصوتٍ مختنق. ثم رفعتُ صوتي، "من هناك؟"

كان الصوت قد انبعث من اليسار، من الجرف. من فوق، وكأن صاحبته تقف على غصن شجرة، وتنظر للأسفل.

"السيدة إنجلاند؟" كان صوتي خافتا وضعيفا، وحاولتُ مرة أخرى. "السيدة إنجلاند، أنا روبي. هل أنتِ هناك؟"

"أنا هنا."

"أين؟"

"فوق الجرف."

"هل أنتِ بمفردك؟"

"نعم."

توجهتُ سريعا إلى المكان الذي قدَّرته طريق المشاة، فتسلقتُ الطرف العشبي الذي يتوسط صخرتين عاليتين بمثابة قائمتي بوابة. انحسرت الأشجار كلما صعدت، وأنا أشق طريقي بين كتل الصخور السوداء الكبيرة. تراجعت ظلال الغابة، لتكشف عن سماء ساطعة بضوء القمر. لم تهب رياح، وخلف صوت أنفاسي سمعتُ أغصان الشجر الجرداء تحفُّ وترتجف. وفي اتجاه السطح، حيث استوت الأرض، تحرَّك عمود نحيف من مكانه وأقبل نحوي.

"روبي." كانت السيدة إنجلاند ترتدي عباءة بقلنسوة، ضمَّت تحتها شعرها الأشقر، فلاح وجهها شاحبا في الضوء الفضي.

سألت: "ماذا تفعلين؟"

"لا أستطيع البقاء أكثر من ذلك."

"هل يعلم بمجيئك؟"

ذَهلت للحظة. ثم قالت: "كلا. لم أكن أعرف متى سأتمكن من الهروب. لكن تشارلز لا يجب أن يعرف بأنني هناك."

قلت: "لا. لماذا أنتِ هنا فوق الجرف؟"

"نومه ثقيل في الليل، ولا يمكنني المجازفة بإيقاظ والدته. سأنتظر هنا حتى طلوع الفجر."

"متى ستعودين؟"

احترقت عيناها في وجهها الفضي. "روبي، أنا لن أعود."

"ولكن لماذا؟" كان صوتي ضعيفا وطفوليا.

"لم أعد أستطيع العيش هناك."

"ولكن الصغار... لا يمكنكِ هجرهم. إنهم بحاجة إليكِ."

"سأرسل في طلبهم."

نفضتُ رأسي في عدم تصديق. "ترسلين في طلبهم أين؟ ستقيمين هناك، معه؟ لا يمكنهم العيش هناك. كما أن والدهم يملك الحق فيهم؛ ما يعني أن القانون سيحكم عليهم بالبقاء معه."

"ثقي بي، سوف أفعل. سوف يتضح كل شيء الآن بعد أن حصلت عليها."

"حصلت على ماذا؟"

"يجب أن أهرب منه لأنه سيقتلني عندما يكتشف الأمر."

"يكتشف ماذا؟ السيدة إنجلاند، لا أفهم شيئا. أريد مساعدتكِ إنما عليكِ أن تخبريني أولا."

"أعدكِ، كل ما عليكِ هو أن تثقي بي."

"لماذا لم تخبريني بأنكِ سترحلين؟"

قالت: "فعلتُ ذلك لحمايتك."

"حمايتي؟"

ألان التعاطف ملامحها. "إنكِ لا ترين ما يحدث، أليس كذلك؟ كيف جعل منكِ حيوانه الأليف. يستطيع أن يستخرج منكِ أي شيء أخبركِ به."

"ليس صحيحا."

"بلى، يستطيع." أفتر ثغرها عن ابتسامة واهية. "إنكِ لا تعرفين كم يحب فرض سيطرته. إنه يفعل ذلك بكِ أيضا، فيحتفظ بخطاباتكِ ويشملكِ بعنايته. يجعلكِ تشعرين بأنكِ استثنائية ثم

يعزلكِ، وببطء يخنقكِ، إلى أن تشعري بأنكِ لا تملكين أحدا، وبأنكِ وحيدة في العالم. لقد تحملتُ ذلك أطول من اللازم الآن؛ حتى كان عليَّ أن أهرب." ثم سكتت فجأة، وبدا أنها أدركت شيئا ما. "ولكن لماذا أنتِ هنا؟ لماذا غادرتِ المنزل؟"

"لقد أحضرتني."

كان سيد إنغلاند يقف على الممشى خلفنا، قد ألقى عليه ضوء القمر خلفه ظلا. تقدم نحونا بخطوات بطيئة ومتمهلة، حذاءه يدق الحجر الرملي المسطح، وشعرتُ كمن يحلم، فراقبته وهو يقترب في رعب أخرس. تسمَّرت كلتانا فوق الصخرة، قد حيل بيننا وبين مهربنا ولا شيء خلفنا سوى الفضاء وصفيره. شعرتُ وكأن الأرض تحت حذائي تحولت إلى طمي؛ ولا شيء أتشبث به، أغمضتُ عيني وحاولتُ ألا أفكر في الارتفاع الذي نقف عليه.

"أخيرا، هربتِ." خاطب زوجته، والتي استحال وجهها قناعا شبحيا، شديد الامتقاع تحت قلنسوة عباءتها. "لا بدَّ لي من الاعتراف بأنها كانت حركة عبقرية، أن تتظاهري بالقلق على صحة مربيتك كما فعلتِ." زاد من اقترابه، بخطوات متأنية، ورأيتُ أنه كان يرتدي بدلة صيده الصوفية الخضراء وحذاء مُلمَّعا برقبة عالية. أربكني هذا أكثر من حقيقة أنه خرج علينا من الأساس: تخيله وهو يرتدي ملابسه في غرفة نومه، ويزرر سرواله القصير في الظلام.

استدارت السيدة إنجلاند ببطء نحوي، وهززتُ رأسي فيما دمي يتجمد في عروقي. لكني قدته إليها بالفعل.

وضع ذراعه حول كتفها. "أخشى أن هذه يجب أن تكون آخر

مرة. يجب أن تعودي إلى المنزل الآن."

"لا." كان صوتها خفيضا ومُتوسلا، وأصابتني مباشرة في صدري. فوجدتني أخطو للأمام لا إراديا.

"مكانكِ." أخفى شارب سيد إنغلاند الجذاب فمه، ووقعت عيناه عليَّ كحجر. "إن تقدمتِ خطوة أخرى، فسوف أبلغ عنكِ بتهمة الإهمال. لا تظني أني لم أر عودتكِ مع ميلي في وقت أسبق. كنتُ لأسألكِ كيف خرجت ابنتي ذات الخمسة أعوام من المنزل لوحدها في منتصف الليل، لكنني سأؤجل هذه المحادثة للصباح."

"ميلي؟" همست السيدة إنجلاند.

كدتُ أنشج، وأغمضتُ عيني، وأنا أحاول ألا أبكي.

"كنت أعرف أنه لا يمكنني الوثوق بكِ." نظر مباشرة في وجهي. "هل يا ترى وجدتِ مساحة، في جميع محادثاتكما، لتخبري سيدتك بأنك ابنة قاتل؟"

أَطلقت الغابة من حولنا أصواتا خافتة.

"لا؟ يا له من أمر مُحيِّر. تصورتُ أن الوقت الذي مضى كان أكثر من كاف لتعلني الأمر. إنه أمر وددتُ قطعا لو عرفته عندما وظفتك. لكن هذا لم يعد مهما الآن، جدير بي أن أكتب إلى مديرتكِ وأقدم شرحا كاملا للسبب الذي لأجله لا يمكنكِ الاستمرار في هذه الوظيفة."

"أبي ليس قاتلا" صرختُ، ودموع الغضب تنهمر على خدي. "إنه رجل مريض."

"مجرم مجنون هو الوصف الصحيح في اعتقادي. والآن يا ليليان، هل تودين إخباري إلى أين كنتِ تنوين الذهاب؟ إما أن

تخبريني أو تخبري الطبيب، لا يهم أينا أولا. أرى أنكِ لم تذكري اسمه، لكنني سأكتشفه قريبا." ثم نظر لي نظرة ذات مغزى. "أفترض أن الأمر له علاقة بوالد ديكا."

خلتني أخطأتُ سماعه، لكنه راقبني، مُنتظرا أن تستقر كلماته.

"لم تعرفي؟ عمَّ إذن كنتما تتحدثان؟ إن ديكا ليست ابنتي. وقد حرصت عائلة غريتريكس بشراسة على إبقاء هوية والدها سرًّا دفينا، لذلك لا يسعني سوى تخمين أنه شخص غير مناسب كليًّا. ربما غير مناسب أكثر حتى من ابن محام."

أذهلتني الصدمة. وقفت السيدة إنجلاند لعدة ثوان، تحملق فيه بغضب، ثم مدَّت يدا مرتجفة داخل عباءتها، وبحثت بين فستانها ومشدَّها. لينبعث عندها صوت طقطقة ورق، وتذكرتُ نفس الصوت عندما غادرت جناح الأطفال لبرهة قبل أن تعود وتجلس على سريري. مدت يدها عبر الفراغ بينها وبين زوجها، الذي عبره في خطوتين سريعتين وانتزعها منها. وأثناء ذلك، أجلتُ نظري سريعا، أحاول تمييز حواف الجرف من حيث انهالت في الظلام.

"ما هذا؟" سأل، ثم دفع يدا كبيرة داخل جيبه وأخرج علبة ثقاب؛ حك منها واحدا وقفز لهب للحياة. انتظرت السيدة إنجلاند، وعيناها البنيتان المرعوبتان تتنقلان بين الورقة ووجهه. "ما هذا؟" قالها مرة أخرى، عابسا في ضوء أعواد الثقاب الهزيل. "وثيقة زواج؟" تحدث بدهشة مكشوفة. "بتاريخ آب ١٨٩٣. لماذا تحمل اسمك؟"

لم تقل السيدة إنجلاند شيئًا.

"من هو توماس شيلدريك؟"

راقبتها، وشعرتُ وكأن الجرف يتحرك برفق، متمايلا مثل قارب في مرفأ.

أجابت بصوت مرتعد: "أنا متزوجة منه. أنا زوجته منذ أحد عشر عامًا."

حدّق فيها سيد إنغلاند، مذهولا، وبصوت ملؤه الدهشة قال ببطء: "كنيسة سانت مايكل، هاروغيت. هذه خدعة. أنتِ تمارسين خدعة علي."

"لقد أحضرها معه من أستراليا."

مكتبة
t.me/soramnqraa

"إنها مزورة."

"ليست كذلك."

"إذن..." حدَّق بها، وهو يقول بحذر. "فالصغار..."

"غير شرعيون." اختنق صوتها. "أجل."

اعتدل ببطء، تعبير وجهه ينم عن عدم تصديق مطلق.

قالت زوجته بهدوء: "وسوف يأتون للعيش معي."

"لا أصدقك."

"لا يهم. أنا وتومي متزوجان."

"تومي." قطب جبينه بصورة بسيطة، ثم انفرجت أساريره دلالة الفهم. "لا تقصدين الحداد؟" انبسط شاربه فوق شفتيه، وشرع في ضحكة خافتة. "آه، يا ليليان. عرفتُ الآن لماذا رمتكِ عائلتكِ إليَّ مثل خرقة. لطالما تساءلت."

تومي هو والد ديكا. كنت أرتجف بعنف، أكاد لا أعي ما يجري

أمامي: سيد إنغلاند يمزق الوثيقة إلى قطع صغيرة ويلقي بها فترفرف مثل رماد، مثل قطن، من فوق الجرف؛ والسيدة إنجلاند تشهق مثل امرأة تغرق.

قالت: "لا يهم. يمكننا إثباته لو اقتضى الأمر."

"لو اقتضى الأمر؟ ليليان، إن هذا لن يصل حتى إلى القضاء. أتظنين أن الحداد سيتحدى عائلة غريتريكس؟ كل ذلك الجاه والنفوذ؟ بل سيعود متملصا إلى الجحر الذي كان يختبئ فيه، كما فعل بالضبط طيلة السنوات التي مضت."

تومي بين الأشجار، تومي عند الكنيسة، تومي في أرض المدفن: أصبحتُ الآن أرى اللافتات وهي تقودني إلى إدراك أن والد ديكا كان يأمل في لمحة من ابنته، وزوجته، طوال هذا الوقت.

أمسك سيد إنغلاند بمعصم زوجته وحدق فيها. "لهذا أردتِ إرسالها إلى المدرسة، أليس كذلك؟"

"تشارلز، كانت هذه فكرتك أنت، لا تفعل هذا من جديد. أنت تحرِّف كل شيء، تشعرني وكأنني على وشك الجنون." ثم انتزعت يدها من قبضته لكنه أمسك بها مرة أخرى.

"أبناؤنا،" قالها بصوت منخفض، همس غير مُصدِّق. "كلهم أبناء حرام. كلهم أبناء حرام، يا ليليان!" هزها بعنف، وجرَّها عبر الصخور. عاهرة. رأيتها في المرآة. منذ البداية وهو يعرف بشأن ديكا، ومنذ البداية وهو يعاقبهما معا على ذلك.

"لا، يا تشارلز،" كانت تصرخ وهما يتصارعان، وشرعتُ برأسي تدور. في كل مكان كانت صخور ناتئة، أشكال مثلَّمة لئيمة

أخفت حقيقة أننا كنا على ارتفاع خمسين، أو ستين، أو سبعين قدما في الهواء. اختلف شكل الجرف في الظلام؛ فلم أر أي أثر لتجمعات الخلنج الودودة، ولا أحواض السرخس التي صنعت منها ميلي باقة. إنهم أبناء حرام، يا ليليان.

اشتبك سيد إنغلاند وزوجه في شكل واحد ضخم، تلوى وتحوَّر في الظلام. كنت أنصت بصورة مغشَّاة إلى الأصوات التي انبعثت منهما: هو يزمجر، وهي تحمحم وتلهث، وحذاءاهما يخمشان الصخرة الملساء. شعرتُ وكأن اللحظة قد أصبحت ذكرى بالفعل، ذكرى أتفرج عليها من بعيد.

سوف يدفعها من فوق الجرف. طرأت الفكرة بوضوح وسرعة، كانقشاع سحابة من أمام القمر.

أنا من قدته إلى هنا، والآن هو سيدفعها.

وقفتُ بلا حراك، ذراعاي عاجزتان إلى جانبي، فيما كافحت السيدة إنجلاند وصرخت وبكت، وهو يحيطها بذراعيه. تشبث بها، كما تشبث بي أبي، وضمني إليه تحت المطر.

واجبكِ أن تحافظي على حياتهم.

تحركت قدماي لا إراديا نحوهما، وبكل قوتي نزلتُ بفرشاة الشعر، فسطعت وومضت كنصل شعاع قمري. انبعث صوت تهشم يثير الغثيان، أعقبته ثانية أو ثانيتان من الصمت المطلق. ترنح للأمام ووضع يدا على شعره الداكن، وهو ينظر بذهول إلى الدم الذي غطى أصابعه، ثم لي وكأنه يقول: أوه.

توقف الزمن تماما، وحدق كلانا في الآخر، تحت الضوء الفضي. ثم دفعته السيدة إنجلاند.

حدث كل شيء بالتصوير البطيء، وأظهر لنا القمر كل المشهد، دون أن يخفي أي تفصيلة منه: إحدى يديه تطبق على الهواء، والأخرى تلوِّح خلفه بحثا عن شيء، أي شيء يعيد له توازنه بعد أن انثنى حول خصره. عن الحجر المتعرج؛ وتقوَّس عنقه ببهاء وهو يلقي برأسه للخلف، ويقابل وجهه السماء. ظل للحظة عالقا في الفراغ بمعنى الكلمة، ثم هو يهوي في الأخرى، وعيناه تنظران إلى النجوم. شعرتُ بها عمرا، لكنها انتهت في لحظة، وكأنه لم يكن موجودا قط.

الفصل الثالث والعشرون

بعد مرور ثلاثة أسابيع

"لا يمكنني العثور على المفتاح اللعين."

كانت السيدة إنجلاند تقف خلف طاولة المكتب وهي تضع يدا على خصرها.

"سأبحث عنه،" قالتها ديكا، كعهدها في تقديم المساعدة.

قال سول: "أراهن أنني سأجده قبلك."

كنّا الستّة في غرفة المكتب، نحزم محتوياتها في صناديق. ومع أن كانون الأول على الأبواب، إلا أننا لم نشعل مدفأة وتركنا الباب والنافذة مفتوحين، فدخل الهواء المنعش إلى الغرفة. وقع على السيدة إنجلاند تغيير ملحوظ. في الأسابيع التي تلت وفاة زوجها، كانت قد اكتسبت هالة من الحيوية، رغم فستان الحداد الكئيب من الحرير الأسود والكريب. لمعت عيناها الداكنتان، وبدا شعرها وكأنه قد غُزل بالذهب، وكأنه بدوره قد أضاء. كانت قد حزمت كل جواهرها، وتدلى من أذنيها قرطان من الكهرمان الأسود، أبرز لونهما دبوس زينة جميل عند عنقها. باستثناء حمالة الكتف الكتان التي تعصب ذراعها

الأيسر حيث كسرت كتفها، فقد لائمها الترمل كثيرا.

ألقت بعض الأوراق في صندوق ومشَّطت بعينيها طاولة المكتب مرة أخرى. قلَّب الصفار بين أغراض الغرفة، ففتحوا الخزائن وبحثوا بين الكتب عن المفتاح المفقود. وقعت عيناي على عقب مجلد أسود ثقيل في أحد الصناديق.

قلت: "أتعلمين، يا سيدتي، أظنني لمحتُ خطابا من والدي هنا ذات مرة."

"والدك؟"

"أجل. كان ذلك في الليلة التي..." لم أكمل جملتي ونظرتُ إلى سول، وهو يبحث بين الأغراض في أحد الصناديق باجتهاد عظيم. كان الوقت الذي قضاه في عش الغراب قد غيَّره وأضاف إلى وزنه. لم تعهد الطباخة إطعام الأطفال، فآلت على نفسها إلا أن تسمنه، وظلت ترسل له الثريد بالكريمة والفطائر والكعك والشطائر طوال اليوم. وكانت خادمة تدثره جيدا اتقاء للبرد وتدفعه في الكرسي المتحرك حول أراضي الملعب حتى تحسنت صحته بما يكفي ليفعل ذلك بنفسه. لم يغدق عليه أحد من قبل كل هذا الاهتمام، وساءه أن يعود مرة أخرى واحدا ضمن أربعة أطفال في المنزل. مكث هناك قرابة شهر في المجمل، وعاد صباح ثاني يوم بعد جنازة أبيه. بعد أن أوصله مباشرة، انطلق برودلي مرة أخرى إلى ريبون لإحضار ديكا من مدرستها.

"ذكريني باسم والدك؟"

"آرثر، يا سيدتي."

"قد أكون لمحتُ اسم آرثر، وإن كنتُ غير متأكدة." اتجهت

السيدة إنجلاند نحو الصناديق، فرفعت الكتب والأوراق بيدها السليمة لتنظر في المحتويات الموجودة تحتها. كنتُ والصغار نساعدها، مع وجود الكثير مما عليها تكبده. كانوا قد أحسنوا تقبل الأمر، برغم كل شيء، وتسربلوا جميعا بالسواد مثل والدتهم. حتى مطرقة الباب لُفَّت في صوفٍ حريري أسود احتراما.

أُعلن موته قضاء وقدرا. لم تكترث تيلدا عندما وجدت غرفة سيد إنغلاند خالية في الصباح؛ فلم يكن غريبا أن يغفل الفطور ويذهب مبكرا إلى العمل. ولكن عندما أخفق السيد في حضور اجتماع مجلس بالمصنع وعجز الجميع عن الوصول إلى مكانه، أرسل المشرف صبيا إلى المنزل، وأكدت زوجته أنهم لم يروه منذ مساء أمس. وعندما لم يعد ظهرا لتناول الغداء، أرسلت تيلدا بن للشرطي، وتشكل فريق بحث. عُثر على جثته قبل حلول الظلام أسفل الجرف، بضربة على رأسه حدثت جراء اصطدامه بالأرض.

أجرى محقق الوفيَّات، وهو صديق قديم لعائلة غريتريكس، تحقيقا أبدت معه السيدة إنجلاند تعاونها الكامل. فأوضحت أن زوجها كان رجلا شكَّاكا، ويحدث كثيرا أن يغادر المنزل في منتصف الليل ليتأكد من سلامة المصنع. وسألت، هل ربما لاحقه لص أو انتهازي؟ فكان جوابه، أن المرء يسهل أن يتوه في الغابة، مهما بلغت معرفته بها، ومع كثافة طبقة السحب... حسنا، كان ذلك احتمالا بالطبع، ويدهشني أنه لم يحدث حتى الآن. احتوت عائلة غريتريكس الممتدة وضع سيد إنغلاند المالي المؤسف في سرية، فسددت الرهون، وعوضت الدائنين، وأزالت كل أثر.

تراكمت العشرات من بطاقات الزيارة في الوعاء الذي تحمله طاولة الردهة، من مُقدمي التعازي الذين مرروها من أسفل الباب. شاهدتهم من نافذة جناح الأطفال، موكب من معاطف الفرو وقماش التفتا يسيرون فوق بلاطات الطريق التزاما بطقوس الحداد الغريبة للأثرياء. حضرت أرملة سيد إنغلاند الجنازة بمظهر فريد حيث ارتدت حجابا يصل حتى الأرض من الدانتيل الأسود. كان القدّاس حافلا، حتى زعمت سيدة مانيون أنها كل المدينة في كنيسة واحدة. جلس موظفو مصنع إنغلاند جنبا إلى جنب على مقاعد الكنيسة مع كثير من أفراد غريتريكس الذين تقاطروا من كل أنحاء ويست رايدينغ، يميز الرجال شريط الذراع الرسمي، والنساء أثوابهن الداكنة، كسحابة فراشات من عالم ليلي غريب. لم أذهب مع الخدم، لكني بقيتُ في المنزل مع أصغر الأطفال، استعدادا لعودة الكبار.

كان اجتماعي سعيدا بديكا بعد فراق دام أسابيع. وقفتُ مع والدتها عند النافذة نترقب، وعندما ظهرت هيئتها الصغيرة بين الأشجار، برفقة برودلي وعربته الوفيّة، اندفعنا نستقبلها. وكل ما أمكنها قوله عن الوقت الذي أمضته هناك هو أنها لم تحب المدرسة. هي أيضا قد غيّرها الغياب، وأعادها امرأة صغيرة رزينة وهادئة. كانت مُطمئنة لعودتها إلى عيش غرابها، وفي أول يوم لها بالمنزل، خرجنا عصرا في نزهة على الأقدام. بقيت السيدة إنجلاند مع بقية الصغار، ولوحت لنا مُودعة من النافذة وهي تحمل الرضيع حول خصرها. مكثنا خارجا لساعات، نتجول في الغابة ونأخذ شتلات للسلة الصغيرة التي حملتها. على ضفة النهر وجدَتْ مصباحا مكسورا وصدئا، وأعطيناه

لبرودلي كخردة. عدنا إلى المنزل موحلتان وهانئتان، لتستقبلنا فطائر الكرامبيت ونار المدفأة في جناح الأطفال، حيث قضت المساء تدون الملاحظات في كراس تمارينها. ظهر حزنها متماسكا ومحكوما، كصندوق تحمله معها. لم تتحدث عن والدها قط، وواست شقيقها وشقيقتها، اللذين ظهر عليهما الحزن جليًّا.

في تلك الليلة حمَّمتها بعيدا عن الآخرين.

قالت لي: "دادة ماي؟"

"نعم؟"

"كيف مات بابا؟"

سكتُّ، وأنا أفرك ظهرها بالصابون، وتنهدتُ. "لقد سقط."

"من الجرف؟"

قد سمعتْ بالأمر من جهة ما إذن. سرَّني أني أخبرتها بالحقيقة.

قلت: "نعم."

غرقت الصغيرة في التفكير، معانقة ركبتيها، وشعرها الداكن ينساب فوق عمودها الفقري. أثناء تجوالنا، كنتُ قد سألتها هل مازالت تحب النوم في جناح الأطفال أم في غرفتها الخاصة جوار غرفة والدتها. فأجابت أنها تحب أن تنام حيث أنام.

قالت: "لم أكن أعرف أن الصخور عالية لهذه الدرجة."

"حسن، لا يتعلق الأمر بالارتفاع. فالسقوط من أعلى سلم قد يكون قاتلا."

"ذكرت ميلي باكرا شيئا غريبا."

"هممم؟"

"قالت: هل رأيتِ أين وجدتني دادة ماي؟ "

واصلتُ تصبين شعرها، وأنا أفصل خصلاته عن بعضها برفق. "لا أظنني أفهم ما تعنيه بذلك."

"قالت أنكِ ذهبتِ لاستعادتها عندما خرجت ليلا تبحث عن ماما."

"يمكن للأحلام أحيانا أن تكون بغاية الواقعية."

ساد صمت قصير. "خطر لي أن بابا ربما خرج يبحث عنها فسقط، وهكذا مات."

اختلستُ نظرة إلى باب الحمام الذي كان مغلقا. كانت أدوات حلاقة سيد إنغلاند جميعها قد أزيلت، وغلب المظهر الأنثوي على حوض غسيل الوجه بلا ريب. كانت تيلدا قد شكّلت برطمانات صغيرة لزهور مقطوفة أخذتها من باقات التعازي الباذخة التي أُرسلت إلى المنزل. على حوض غسيل الوجه غصن جِصّيّة جاف، انبثقت منه وردة واحدة وكأنها دعامة.

قلت: "أحيانا، عندما يموت شخص نحبه، تخطر لنا كل أنواع الأفكار سعيا لتخطي الأمر. فنحاول تخيل الساعات الأخيرة في حياته وما الذي كنا لنفعله بصورة مختلفة. والدكِ أحبكم جميعا كل الحب، ولا أشك في أن ميلي لو كانت خرجت ليلا إلى الغابة، لكان أول شخص يبحث عنها."

انتثر الماء بخفة، وتناولتُ المشط من حجري وبدأتُ أسرِّح شعرها. لم تكن صغيرة على القيام بذلك بنفسها، لكن الطقس كان

ضروريا لكلينا.

قلت: "يقيم أبي في مصحة."

"هل يعني هذا أنه...؟"

"مريض،" أكملتُ لها. "أفكر فيه كثيرا، وأشتاق إليه أحيانا. لم أره منذ ثمانية أعوام."

"ألا يُسمح لكِ بزيارته؟"

"بلى، لكني لا أفعل."

"ولم لا؟"

"لأني لا أريد. وكفى بالمرء ألا يرغب في أمر ما حتى لا يفعله. قد تكون لا أصعب قولا بعشر مرات من نعم، لكنها تمنح شعورا أفضل بمائة مرة."

خيَّم على ديكا صمت واجم وأنا أفكُّ عقد شعرها.

"وأنا في مثل سنكِ تقريبا، تعرضتُ لحادث. لم يسبب لي ألما كبيرا في جسدي، بقدر ما فعل في عقلي. كنتُ حزينة جدا لوقت طويل. وأصبحت معنوياتي متدنية، وعندما تكون معنويات المرء متدنية، يصعب أن يرى المغزى في أي شيء. لم يفهم أحد كيف عانيت. أخبرني الجميع أنني محظوظ لأنني نجوت، وأنها معجزة. توقعوا أن أكون سعيدة، لكنني لم أكن كذلك، مما جعل كل شيء يبدو أسوأ. شعرت بأني في غاية اليأس والوحدة."

"قرأت ذات الجريدة القديمة مرارا وتكرارا، وكان فيها مقال عن كليَّة مربيات أطفال تقع في لندن. تحدث المقال عن زيهن الأزرق، ومآزرهن المكشكشة، والأوسمة التي حزنها عن سنوات الخدمة.

شعرتُ عند قراءته أنها تشبه نادي، تشبه... عائلة. كيان يمكن للمرء أن ينتمي إليه. كنتُ أحب المدرسة وتمنيتُ العودة إليها أكثر من أي شيء آخر، لكن أمي قررت إبقائي في المنزل. وكلما فكرت في الأمر، ازدادت رغبتي في أن أكون واحدة من تلك المربيات، وأن أعمل مع الأطفال وأشعرهم بالأمان والحب. لكن سني لم يكن يسمح لي بالذهاب إلى هناك، فكان علي الانتظار حتى أبلغ الثامنة عشرة. ثم حانت اللحظة أخيرا، ودخلتُ الامتحان واجتزته. لا أعرف ماذا كنت سأفعل لو أنني لم أنل المنحة. كنتُ حقا محظوظة لقدر الأخريات على تحمل تكاليف الدراسة. كنَّ أذكى كثيرا مني. أتساءل أحيانا ماذا كان سيحدث لو أنني لم أعقد عزمي على تلك الكلية. كان دخول الامتحان أول شيء أفعله لنفسي. ما أعنيه هو: أنني استطعتُ تدبير أموري جيدا بدون أب، وأثق أنكِ أيضا ستستطيعين."

عصرتُ شعرها بمنشفة وساعدتها على الخروج من حوض الاستحمام. بدت أخف، بصورة ما، وكأن جزءا منها قد ذهب مع الماء.

لاحقا، بعدما أوى الصغار الأربعة إلى فرشهم، طلبت مني السيدة إنجلاند الانضمام لها في غرفة المعيشة. كان غريبا في البداية، رؤيتها تتسيَّد المنزل -منزلها- لكن هذا أيضا أصبح مُعتادا الآن. تحدثنا عن الجنازة وعن الصغار، ثم خيم علينا صمت مُسالم.

قلت: "سيدتي، هل تظنين ديكا تعرف أن سيد شيلدريك والدها؟"

قالت السيدة إنجلاند: "لا أظن ذلك. هل تعرف؟"

"لا أعرف بالتحديد،" أجبتها. "هل أجبرتكِ عائلتك على الزواج من سيد إنغلاند؟"

"أمي من رتَّبت الزيجة. تدبَّرتُ إخفاء حقيقة حملي، لكنها أدركت الأمر في النهاية. واجهتني، وفي اليوم التالي كنت مخطوبة لتشارلز. أخبرتها أنني وتومي متزوجان، لكنها لم تأبه. وقالت أننا طالما لم نتزوج وفقا لعقيدتنا، فإن الزيجة باطلة."

شردت عيناها. "لم يعجبني تشارلز أبدا، حتى وأنا فتاة. كان دائم الحضور، يلاحق إخوتي، راغبا في أن يكون واحدا منا. عمل والده محاميا لأبي: رجل بارد وآلي. ذات مرة أتى تشارلز إلى غرفتي، وكنتُ أبدِّل ملابسي. فتحت الباب ووجدته، يتلصص من ثقب المفتاح. أظنني كنتُ في الثالثة عشرة حينها." تنشَّقت. "وصفته أمي زواجا بحكم الضرورة. كان ضروريا للجميع فيما عداي."

سكتتُ. ثم قلت: "ماذا حلَّ بسيد شيلدريك؟"

"رحل إلى أستراليا بعد ذلك بقليل. ولم أسمع عنه خبرا مرة أخرى. طلبتُ منه ألا يكاتبني، فلم يفعل قط. عندما مات والده، اضطر للعودة لاستلام العمل بالورشة ورعاية والدته. أراد شقيقه بيع الورشة، لكنها كانت تعني الكثير لوالده. فهي ملك العائلة منذ ما يزيد عن مائة عام." ابتسمت. "كان رجلا لطيفا، والد تومي."

"لابد أنكِ قابلتِ سيد شيلدريك في سن صغيرة."

قالت، "سبعة عشر عاما. كنتُ أكثر من ركوب الخيل في صغري، ومررتُ بالورشة ذات يوم. قدَّم ماءً لحصاني." شردت عيناها عميقا في الماضي، وخلى وجهها من التعابير.

"لم أشاهدكِ تركبين خيلا قط، يا سيدتي."

"لم أفعل ذلك منذ سنين. ربما أعود من جديد."

"وسيد إنغلاند لم يعرف أنه والد ديكا؟"

"أخبرته أمي قصة ما عن تعرضي للاعتداء. وصوَّرت له أني كنتُ مغلوبة على أمري، لكنه استنبط بينه وبين نفسه أن الأمر يتعدَّى ذلك. أنه يمثل لي شيئا. وأخذ الأمر ضدي طيلة السنوات التي مضت. كرهني بسببه. لم أخبره قط من يكون والدها، ولكن يعلم الرب كم حاول استخراجه مني."

"لماذا، وقد مضي كل هذا الوقت؟"

هزت كتفيها. "لأنني لم أكن له بقدر ما أراد. لأن هناك من سبقه. لقد أجبرني على العود من عش الغراب، كما تعلمين، لأنني كنت في الخارج أتجول. لم يجدني عندما وصل ولم يعرف أين أكون. كنتُ في الخارج أرسل خطابا؛ وأشكر الرب أنه لم يجدني به. لم أستطع التحرر منه قط، حتى هناك. حتى عند خروجي للتنزه، كان علي أن أمر بالمصنع وألوح له أو لأي شخص، وذات الأمر عند عودتي. شعرتُ وكأنني أحد عماله، لذا وفي نهاية المطاف كان من الأسهل ألا أخرج من بابه."

تنهدتُ. كان تومي إذن يعرف طوال الوقت، وعاد إلى البلدة التي تعيش فيها ابنته... لم يكن ليخطر لي قط ولو بعد مليون سنة سبب دعوته لنا إلى زيارة ورشته عصر ذلك اليوم المشمس، ويبدو أنه ولا حتى سيد إنغلاند كان ليخطر له.

سألتها: "متى عدتما لتبادل الحديث أنتِ وسيد شيلدريك؟"

"بعد عودته مباشرة. وإن كان نادرا جدا؛ لم يستطع إرسال

الخطابات إلى المنزل لأن تشارلز تحكم في البريد، وأحيانا يتلقف ساعي البريد فيسلمه الخطابات في المصنع. وكأنه كان يترقب حدوث شيء كهذا؛ كان يعرف، عند حد ما. أعتقد أن جزءا منه كان دائم القلق من أنني سأهجره، وعندها سيجف منبع المال وكل ما يستتبعه."

"تقصدين الطلاق منه؟"

هزت رأسها. "كلا، ليس الطلاق. كان علي حينها أن أثبت الزنا، ولم أستطع ذلك بالطبع. وكان سيأخذ الصغار. كما أن عائلتي لم تكن لتسمح لي قط بارتكاب إثم كهذا، وجليٌّ أني لا أملك مالا خاصا. كل المال كان باسمه.

"تعهد تومي بإعطائي مالا يكفي لبدء حياة في مكان جديد. هل تذكربن عندما أحضرت ديكا خطابا منه؟" أومأتُ برأسي. "كانت الوثيقة، لكنه أرفق معها رسالة قصيرة أيضا. خفتُ أن يجدها تشارلز، لذا أحرقتها في موقد المدفأة. وهو ما أحدث كل ذلك الدخان، ولم يلبث كل من في المنزل أن عرف بشأنها. لقد رأى الرماد في الموقد؛ وعرف أنني كنت أخفي شيئا. ولهذا أرسل ديكا إلى المدرسة."

رمشتُ متفاجئة. "لمعاقبتك؟"

أومأت برأسها، وانقبض وجهها بغضا. "لم يكن ذلك أول عقاب. فقط باع خيولي. قال أنني صرخت باسم حبيبي وأنا نائمة، لذا خشيت حتى النوم مع وجوده بالغرفة المجاورة. كما أن الصغار فضَّلوه عني."

"لا أظن هذا-"

"هـو السـبب. لـم أجـرؤ علـى إظهـار عواطفـي خشـية أن يفعـل معهـم كمـا فعـل معـي. وكان علـيَّ لحمايتهـم، أن أتجاهلهـم طـوال حياتهـم." لمعـت عيناهـا بالدمـوع. "لقـد كـره أن أتحـدث إليـكِ. كان يـراكِ تخصينـه."

كنـتُ كذلـك بالفعل، قلتهـا لنفسـي بحـزن عظيـم. كنـتُ أعـرف أننـي لـو أمعنـتُ التفكير فـي الأمر، لانهرت.

قلت: "لهذا وضع خطاباتي في غرفتك."

أومـأت برأسـها. "لا يُعقـل أنـكِ صدقـتِ أننـي قـد أفعـل شـيئا كهـذا."

"لم أكن أعرف ماذا أصدق."

انحنـت تجاهـي مـن الأريكـة ذات اللـون الورديـة، فحـفَّ فوقهـا ثوبهـا الأسـود. وقالـت: "لقـد انتهى الأمـر الآن."

×××

لـم نعثـر علـى أيـة خطابـات مـن أبـي وسـط مئـات المراسـلات بغرفـة مكتـب سـيد إنغلانـد، وإن كان الوقـت لـم يسـعفنا بالطبـع لاستعراضها كلها. قررتُ أنه ليس مهما؛ فربما كاتب أبي سيد إنغلاند، وربمـا لا. أدركـتُ أننـي لا أكتـرث كيـف عـرف سـيد إنغلانـد حقيقتـي.

"والدتـكِ المسـكينة،" قالتهـا السـيدة إنجلانـد. ثـم اسـتطردت: "لا أفهم كيف لأب أن... لا أفهم كثيرا من الأشياء التي يفعلها الآباء."

"أمـي المسـكينة منعتنـا مـن التحـدث عـن الأمـر مـرة أخـرى،" أجبتُ، وأنا أجاهد للحفاظ على نبرة صوتي هادئة. "مضت في حياتها

وكأن شيئا لم يحدث."

لم أخبرها أنها تزور أبي مرتين سنويا، حاملة طردا صغير من بضائع متجر وخطابات من جميع أبنائه عدا واحد. لم أخبرها أنها عندما حدث الأمر، ذهبت إلى السجن قبل أن تذهب إلى المستوصف لتراه قبل أن ترانا. وأنها عندما وصلت أخيرا إلى الجناح الذي أقمنا فيه أنا وإلسي محجوبتين عن بقية المرضى، لم تلمسني، واكتفت بالجلوس على كرسي عند طرف سريري ونظرت لي بخوف واستنكار، وكأنني أنا من رميتُ بنفسي من الجسر، وكأن عقلي المُحطَّم هو ما حطَّم قلوبنا.

وقالت: "أوصيتكِ أن تعتني به."

بعد ذلك بوقت طويل، وأثناء مشاحنة عنيفة أخرى بعدما رفضتُ الكتابة إليه أو زيارته، سألتني لماذا أنا الوحيدة التي لا تستطيع مسامحته.

لماذا لا أستطيع؟ سألت نفسي ذات السؤال. كان الأمر مختلفا بالنسبة لها: كأنها قد تحررت جراء ما حدث، تخلصت من دورها كزوجة رجل مريض. لم يعد عبئا عليها، وقد أبغضتها لذلك.

***

سأل سول: "هل سنأخذ كل هذا إلى ميلبورن؟"

أجابت والدته: "لا شيء منه، كما أتصور."

"أين سيذهب إذن؟"

"سيحتفظ المحامي ببعضه، وسوف نبيع الكتب والأثاث."

سألت ميلي بقلق: "لن نبيع شيئا من أغراضنا؟"

"ليس من أغراضكِ، لا." ثم التفتت السيدة إنجلاند نحوي. "أفترض أنكِ لم تقرري بعد؟"

"سأعلمكِ غدا، يا سيدتي."

أومأت برأسها.

الفصل الرابع والعشرون

في الصباح، ذهبتُ والصغار سيرا إلى صندوق البريد. وفي منتصف المسافة على طريق الخيول، رأيتُ هيئة تقترب على دراجة، فشعرتُ بالاضطراب. لكن هذا الرجل كان يرتدي زي عمل، وعرفتُ قبل أن يصل إلينا أنه ساع، وأن الرسالة التي يحملها هي لي. وكما توقعت، فبدل أن يميل طاقيته للتحية ويواصل طريقه، خفف سرعته حتى توقف، وإطارات دراجته تدكّ الطريق الحجري الوعر.

"أنتِ من منزل إنغلاند، يا آنسة؟"

"أجل."

"روبي ماي؟"

أومأت برأسي.

"كنتُ في طريقي إليكِ. وصل هذا منذ عشر دقائق تقريبا."

وناولني مظروفا كُتب عليه عاجل.

قلت: "شكرا لك."

أومأ برأسه وانصرف على دراجته من حيث أتى.

سألت ميلي: "ما هذا؟"

"برقية."

"وما البرقية؟"

"إنها نوع من الخطابات، تُرسل عن طريق الأسلاك."

سأل سول: "هل ستفتحينها؟"

"نعم،" قلتها. وبعد توقف قصير، وبأصابع ملخومة فتحتها.

مات والدكِ ليلة الثلاثاء نقطة

القداس والدفن في الجمعة بمصلى بي

نقطة نصل محطة ووكينغهام

11:51 صباحا نقطة.

سألت ميلي: "من أرسلها؟"

بحثت عن اسم المرسل: إيما ماي.

قلت: "أمي."

"ألم توقعها؟" أطل ميلي من فوق كتفي.

كانت هذه أول مرة يصلني منها خبر منذ عيد ميلادي في آذار. عبر سنجاب أحمر الطريق لأسفل. وشاهدته يتسلق حلزونيا شجرة زان ويختفي، ودسستُ البرقية داخل عباءتي.

في ذلك الصباح، كنت قد تركتُ لديكا الإشراف على الفطور، ووجدتُ السيدة إنجلاند في غرفة المكتب، تخطُّ رسالة على الطاولة.

"سيدتي" قلت، وأنا أغلق الباب. "لقد فكرتُ في عرضك، وأخشى أنني لا أستطيع مرافقتكِ إلى ميلبورن."

وضعت قلمها بتنهيدة. "لا تستطيعين أم لا تريدين؟"

"كلاهما. لا أستطيع الابتعاد كل هذه المسافة عن إلسي أو الصبيان. لقد اقتربوا من سن الرشاد، لكنهم مسئولون مني في حال حدث أي شيء لأمي. لن أهجرهم. ولو حدث أن تعافى أبي وسُمح له بالعودة إلى المنزل يوما ما..." ازدردتُ لعابي. "فعليَّ أن أكون في الجوار. لكنني سأبقى لحين موعد رحيلك، من أجل الأطفال."

أومأت برأسها، وإن امتلأت عيناها البنيتان بالأسف. أمالت رأسها وقالت. "أتفهم بالطبع، وإن كنتُ لا أظن الصغار سيغفرون لي أنني أبعدتهم عنكِ."

ابتسمتُ. "سيفعلون، يا سيدتي. هل وجدتِ منزلا بعد؟"

"نعم. إنني أكتب إلى السمسار الآن. وصلني منه خطاب البارحة. يقول أنه سيرسل بعض الصور بالبريد، لكنها ستصل على الأرجح بعد رحيلنا. على كل حال، يبدو أنه مثالي. به حديقة كبيرة تطل على الخليج، وصدقي أو لا، شرفة أرضية."

"يبدو مثاليا بالفعل. سأذهب إرسال استقالتي إلى مديرتي وأحضر البريد الصباحي، إن كان لا مانع."

"تفضَّلي. لقد أرسلتُ في طلب سيد بوث لإبلاغه بخططي ومنحه الإخطار اللازم. هل أخبره باستقالتكِ، أم تريدين إخباره بنفسك؟"

"سأكون ممتنة لو أخبرته."

كانت عائلة بوث قد حضرت الجنازة وتركت بطاقة للسيدة، وصودف أنها كانت في الردهة عندما رفرفت عبر صندوق الرسائل، ففتحت الباب لتنادي عليهما. رأيتهما يعودان عبر الفناء مُحتميين

بمظلة ولوحتُ لهما من نافذة جناح الأطفال. قدمت لهما السيدة إنجلاند الشاي في غرفة المعيشة لأول مرة. ظننتُ بليز قد تمرُّ بجناح الأطفال، لكنها بدت متلهفة لمغادرة المنزل، فسارت عبر الفناء وخلفت إيلي يتحسس طريقه بالمظلة.

***

إرسال استقالتي إلى ميدان بيمبريدج أوقعني فيما يشبه الاكتئاب. وصل خمستنا إلى الكوخ، وسمحتُ لميلي بوضع الخطاب في الصندوق الحائطي. كنتُ قبل كتابته، قد راجعت كتاب التزكيات الخاص بي، لأجد الفقرة التي تقول: أي مربية أو مُتدربة تُخفق في ثلاثة وظائف سيصبح لزاما عليها ترك المعهد. وأنا قد استقلتُ من عدة، في أقل من عامين. وما زاد الطين بلة، أنني أضعتُ الفردة اليسرى من قفازاتي الأنيقة، ولا رغبة لي في الذهاب إلى المتجر لابتياع بديل له.

مشينا الهوينى إلى المنزل. كان الشتاء قد حل بالوادي، الذي بدا في حالة سبات شتوي، رغم مواصلة الماء النشيط تدفقه. كنتُ قد غسلت ثياب الصيف الخاصة بالصغار وحزمتها، وأخرجتُ الثياب السيرج والصوف والقبعات والأوشحة والشيلان، وأنا أفسر لهم أن أستراليا يكون فيها الصيف بعيد الميلاد المجيد، والشتاء بوسط العام.

لم يذهب تومي شيلدريك إلى الجنازة، لكنه جلس في الحديقة المقابلة يقرأ جريدته، كما فعل في الأحد الذي قابلته، أملا في لمحة من ليليان وابنتها. بعد أسبوع من الجنازة، خرجت وحدها

للتجول في الغابة. ففهمتُ بغيتها وراقبتها من النافذة فيما غيَّبها الطريق. ولمَّا عادت كانت تزين وجنتاها بقعتين ورديتين، وأغلقت على نفسها في غرفة نومها.

وفي مساء اليوم نفسه أخبرتني عن خططها للهجرة. كنا نجلس في غرفة النشاط تحت ضوء المصباح ونار في المدفأة، وعلى حجري كومة من الملابس التي تحتاج إلى إصلاح. لم يفاجئني إعلانها ولو قليلا؛ فقد كان جليًّا لي أنها لا يمكنها البقاء، وإن كان غير جلي أين لمثلها أن تذهب. كانت أستراليا خيارا منطقيا: فهي بعيدة عن عائلتها، إضافة إلى كونها بلدا شابة ومثيرة، مع لمحة سحر، ووعد بالمغامرة. الانتقال إلى هناك مع الصغار سيكون شبيها باستهلال دفتر يوميات جديد، كل صفحاته بيضاء.

سألت: "أربَّما يعود سيد شيلدريك إلى أستراليا، يا سيدتي؟"

أجابت السيدة إنجلاند: "أشك في ذلك. لقد أقام حياته هنا الآن."

قلت: "في نفس اللحظة التي قررتِ فيها الرحيل."

"لم يخطر لي قط أنني قد أرحل. لقد عشت كل حياتي في هذا المنزل. لكني أصبحتُ لا أتخيل البقاء فيه."

"إذن فأنتما لن...؟ عذرا، يا سيدتي. لا أقصد التطفل."

حدقت في النار. "حسبتُ أنني ما زلت أحبه، لكننا بالأحرى تجاوزنا أحدنا الآخر. الأمر خارج عن إرادتنا."

أخفيتُ دهشتي، وأنا أتساءل هل يا ترى يشعر تومي بالمثل. قبل أن تصبح أرملة، كانت مستعدة للهرب معه، لكنه ليس يسيرا

تخيلها زوجة لحدَّاد.

ثم نظرت نحوي، كمن أفاقت من حلم. "هل ستأتين معي؟"

فككتُ غرزة معيوبة. "لا أظن ذلك، يا سيدتي."

"هلا فكَّرتِ في الأمر؟"

تردد.

"خذي بضعة أسابيع."

"حسنا."

"ماذا ستفعلين إن بقيتِ؟"

"لا أعرف،" ولكن حالما قلتها، عرفت الإجابة فورا: لدي إجازة آخذها، واستأجر معهد نورلاند كوخا على الساحل الجنوبي للحجر الصحي بعد التدريب في المستشفى. أردتُ أن أذهب إلى هناك ويغسلني ملح البحر وهواءه، لكني لم أكن واثقة من ردة فعل سيم تجاه استقالتي. كنت أعرف أنني سأغادر قبل حتى أن تخبرني السيدة إنجلاند عن أستراليا؛ كان بقائي مُتعذِّرا. تماما كلهفتي من قبل لمغادرة شارع لونغمور، رغم حبي لإلسي والصبيان، كان واردا أن يتشارك شخصان أكثر من اللازم.

***

في عودتي إلى المنزل شعرتُ بأنني متعبة وخدرة بالبرقية في جيبي، ورثَّة الهيئة بقفازاتي السادة. عرفتُ فورا أنني لن أرتدي الحداد على أبي: فلا أحد هنا يعرف بشأنه، ولا رغبة لي في شد الانتباه. وقررت أنني لن أخبر السيدة إنجلاند أيضا. وحينها فقط،

أدركت أنني لا أريد العودة إلى منزل هاردكاسل. سألت الصغار إن كانوا يريدون اللعب في الغابة، فانطلقوا فورا خلال الأشجار، يعوون ويتقافزون كالحيوانات البرية. وقفت على جانب الطريق مع عربة الأطفال، أراقبهم وأفكر. ثم لم ألبث أن سمعتُ رنة جرس دراجة وصرير إطارات.

"روبي."

"سيد بوث."

قفز من فوق دراجته وأدارها نحوي. ورغم أني كنتُ فاترة ومتثاقلة، إلا أن معدتي اضطربت عندما جاء ووقف جانبي.

سأل: "كيف الحال؟"

"نحن بخير، شكرا لك."

ربت على حقيبة كتفه. "أحضرتُ لكِ بعض الكتب. ذكر سول أنكِ قارئة."

"هذا لطف منك. لكن الآن وقد عاد الصغار جميعهم إلى المنزل، لا أعرف متى ستتاح لي الفرصة لقراءتهم."

"يمكنكِ الاحتفاظ بهم." شد قبضتيه على مقود دراجته، وابيضَّت مفاصل أصابعه. وجدتني عاجزة عن النظر في عينيه.

سألتُ ببشاشة: "هل تعطي حصة في المصنع؟"

"المصنع مغلق."

"آه، أجل، بالطبع. عرفت."

"إنه معروض للبيع. حسبما يبدو أن صاحب فندق من برادفورد ينوي تحويله إلى حلبة تزلج."

نظرت الآن إليه. "لا أصدق."

أومأ برأسه. "بلى. قاعة شاي، رقص، أشياء من هذا القبيل. لم يعد النسيج يجدي. المصانع كثيرة والشغل قليل."

"أفترض أنه موقع جميل."

قال بعد برهة: "استدعتني سيدة إي."

"آه، أجل. ذلك أيضا عرفته."

"أفترض أنكِ لا تعرفين السبب؟ أخبرتني أن أعلق الدروس حتى خروج سول من حداده. أشعر بأنني على وشك أن أخسر وظيفتي، في كل الأحوال."

"سينتقلون إلى أستراليا."

أطلق صفيرا خافتا وطويلا. "حسنا، لم أكن أتوقع ذلك. متى؟"

"في أقرب وقت ممكن. قبل عيد الميلاد، إن استطاعوا."

"أستراليا. لا يمكن للمرء أن يبتعد أكثر من ذلك. هل سترافقينهم؟"

"كلا. قدمتُ بالفعل إخطار استقالتي. أربعة أسابيع."

"ماذا؟ ألا تحبين أن تصبحي مهاجرة إنجليزية؟" تحدث بعدم تصديق. "كنت لأقضم يدها لو أنني مكانك."

"أكنت ستفعل؟" منحته نصف ابتسامة.

"أوه، أكنت سأفعل؟ سأكون قد حزمتُ حقائبي بالفعل. حياة جديدة. بداية أخرى وما إلى ذلك."

"هذه هي الفكرة."

"طالما يملك المرء يدين ورأسا فوق كتفيه، ففرصته في تحقيق ذاته هناك متساوية مع أي شخص آخر. لم أكن حتى لأنظر إلى هذا المكان فوق الخريطة مرة أخرى، ناهيك عن افتقاده." تنهد بحسرة. "ربما في الحياة الأخرى، ها؟"

"يمكنك الذهاب مع بليز."

"لن توافق على ترك عائلتها. لا تهتمي، ها؟" تنهد مرة أخرى، إنما دون تحسر. "طيب، ما هي خطوتكِ القادمة؟"

"أظنني سأبحث عن عائلة جديدة."

"مُؤسف أن ترحلي ولم يمضِ كثير على بدايتك. فظيع،" ثم استطرد بصوت منخفض. "لا ألومها على الرغبة في الابتعاد. فهي لم تبد سعيدة قط."

لم أقل شيئا، ولو أن قلبي تسارعت دقاته. عادت لي الذكرى، وقت أن لم أتوقعها قط، عندما فتشنا أرجاء الغابة ونحن نرتدي عباءتينا، بحثا عن جثته. لم أختبر مثل ذلك الرعب، وأنا لا أعرف هل سأجده أم لا، هل نجا أم يتربص بنا. وعندما وجدناه أخيرا، مستكينا في قاع الجرف وكأنه يحتمي به، ضغطتُ رقبته لخمس دقائق كاملة بحثا عن أي نبض.

"لم تصدق بليز الخبر. صُدمت؛ لم أرها بمثل ذاك الهدوء قط. لستُ ميالا للشائعات، لكني لا أظنكِ سمعتِ ما يقولونه في البلدة؟"

ازدردتُ لعابي وسحبتُ سواري كمي لأسفل. "ماذا يقولون؟"

"أن العجوز كونراد قد تنصل منه قبل الحادثة. وأنه...

تعرفين. رمى بنفسه. كان في موقف عصيب، حسبما يبدو، من الناحية المالية. لا يجدر بي قبول الفكرة، حيث يعلم كلانا أنها ليست صحيحة."

أصابتني قشعريرة. كان عدم رغبتي في زيارة البلدة يرجع لسبب آخر هو أن الطريق الوحيد إليها يمر بالمصنع المغلق، الذي قام صامتا في ركنه بقاع الوادي. بدون الطنين المتواصل للماكينات، وقعقعة العربات ورطمة البالات، بدون أبخرة تتدفق من المدخنة، كان الأمر غريبا، وشبه مخيف. هبَّت الرياح بهدوء عبر طريق الحصى وجرفت بقايا القطن في أكوام بائسة.

"لقد مات أبي،" فوجئتُ بنفسي أقولها. "استلمتُ البرقية للتو."

ظل ساكتا. ثم قال: "روبي، أنا بغاية الأسف. ما كان يجب أن أتحدث عن سيد إي هكذا. لم أقصد-"

"أعرف. لا بأس. لم أكن جهرتُ بها حتى الآن. يبدو وقعها غريبا على أذني."

ترقب، مفاصل أصابعه بيضاء فوق مقود دراجته.

وجدتني أقول: "لم يكن بصحة جيدة. كان يقيم فيما يشبه المشفى لوقت طويل، لذلك لم أره. وأفترض الآن أنني لن أفعل أبدا." ثم شرعتُ أبكي.

بحث متخبطا عن محرمة، لكنني سبقته، فاستخدمتُ فردة قفازي الوحيدة لمسح وجهي.

"إنني أعرف، يا روبي."

حدقت فيه، بدون تصديق.

"أعرف من والدك. من كان. أخبرني جون لودين. تعرَّفكِ من صورة أو ما أشبه."

"كنتَ تعرف إذن كل هذا الوقت؟"

أومأ برأسه.

"وبليز؟"

هز رأسه. "لم أخبرها. ليست قصتي لأرويها." ثم ركز أنظاره في وجهي، ورأيتُ أن عينيه البنيتين كانتا مرقطتين بالأخضر.

"ما حدث لك أمر لا يوصف، لكن لا شيء فيه يثير الخجل."

أطلقتُ تنهيدة عميقة ومرتجفة، وتساءلت إن كان سيد لودين هو من أخبر سيد إنغلاند، أم أنه اكتشف من طريق آخر. كان الصحفي على الأرجح: لا بد أنه أراد التزلف لعائلة كهذه. لا شك أنه طلب أيضا من سيدي إجراء مقابلة معه. عجبتُ لإدراكي أنني لم أكترث على الإطلاق.

راقبنا الصغار يطارد بعضهم بعضا بالعيدان.

قال إيلي: "لقد أضفيتِ عليهم لونا."

"أفعلت؟"

"كانوا مثل عصيدة الأرز قبل مجيئك. شاحبون وثقيلون."

ضحكتُ، ضحكة شعرتُ أنها الأولى منذ أسابيع. فارت كينبوع سري ومنحتني شعورا بنفس صفاءه وجماله. ثم بعدها، انهمرت المزيد من الدموع، غزيرة ومفاجئة بنفس القدر. وجد إيلي محرمته هذه المرة وضغطه داخل يدي.

قلت: "لا أعرف لماذا أبكي."

"أنا أعرف -والدك اللعين قد مات لتوه. لا تشقّي على نفسك."

شعرتُ بحال أفضل بعدها، وأنا أمسح أنفي وأدس محرمته داخل جيبي، حيث استقر جوار البرقية.

"أريد استعادة المحرمة، في الواقع،" قالها، فجعلني أضحك مرة أخرى.

انطلقنا نسير جماعة، وسررتُ برفقته عبر ساحة المصنع الكئيبة، حيث ارتفع الجرف من وراءها. وعلى الباب أُلصق يافطة للبيع.

وفي المنزل، شمر برودلي وبن عن سواعدهما، في تفكيك مباني المنزل الإضافية. كانت السيدة إنجلاند قد منحت العربة للرجل العجوز امتنانا عن ثلاثة عقود من الخدمة؛ فانتوى أن يبدأ العمل سائق أجرة حالما تغادر الأسرة. وجميع الخدم كُفلت معيشتهم: فأعيد تعيين تيلدا وإميلي في أحد منازل غريتريكس، وتقاعدت سيدة مانيون بمدخرات سخيَّة. لكنها نذرت أن تواصل الخبز، وبيع الخبز والكعك من كوخها.

"أفترض أنكِ لن تعودي إلى يوركشاير،" قالها إيلي ونحن نقترب من البوابة. كنت قد أرسلت الصغار ليسبقوني إلى غرفة خلع الأحذية وتخلفتُ عنهم مع عربة الأطفال الثقيلة، وهو مع دراجته، كل منا يدفع حمولته بلطف أماما وخلفا مثل مربيتين في حدائق كينسينغتون.

قلت: "أفترض ذلك."

"أظن هذا وداعا إذن."

"أظن ذلك."

راقب تشارلي باهتمام وإيلي يمد يده. "وداعا، يا روبي ماي. وحظًا سعيدًا."

تناولتُ يده. "ولك بالمثل، يا سيد بوث. طابت لي صداقتك."

لم تتصافح يدانا. بل تشابكتا لبرهة، كشخصين يعلنان الهدنة. أفلتُّ يدي أولا، وأطبق قبضته وهو ينزلها، وكأنه يعتصر شيئا داخلها. كافحتُ لتمرير عربة الأطفال بين قائمتي البوابة، وساعدني لمرة أخيرة. شكرته، مُتضرجة ومُبلبلة وتغمرني عدة مشاعر دفعة واحدة، وأغلقتُ الباب بيننا. ولفَّ كالعادة من الجهة الأخرى.

ولاحقا، وجدتُ على طاولة الردهة، الكتب التي تركها لي: واحد لبرونتي وآخر لديكنز، وكنتُ قد قرأتهما، ومجلد نحيل لقصائد تينيسون كنتُ أعرف أنني لن أقرأه. تخيلته يقيِّم هذه الهدية الأخيرة، أيرفقها أم لا، وإلاما سأترجم محتواها. وأخذتها على أية حال.

الفصل الخامس والعشرون

صلصل الجرس المعلق على الباب، لكن المرأة التي تقف خلف طاولة البيع لم ترفع أنظارها. كانت تقرفص أمام رف، لتجلب منه علبة جيلي للمائدة لسيدة عجوز تقف مع سلتها. استغرقت كلتاهما في محادثة، فاتخذتُ لي مجلسا ونظرت حولي. أعلى النافذة الكبيرة بالخارج، اختفت كلمة خضروات من جانب بقالة؛ فأصبحت اليافطة المطلية تقول: ماي وأولاده، بقالة منزلية. لم تعد هناك صناديق جزر أو أكوام تفاح يلمع؛ كانت أرفف جديدة قد رُكِّبت وكُدِّست بالدقيق والكاسترد والشوفان والتوفي والحليب المعلب والزبيب وكل ما يمكن أن تحتاجه حجرة المؤونة في المنزل. كانت الجدران تسطع بالملصقات والإعلانات، ونُصِّبت خلف طاولة البيع أدراج أنيقة من الماهوجني، لها مقابض نحاسية على شكل صدفة.

نهضت أمي ورأتني. تجمدت لثانية، ثم استأنفت محادثتها. أعادت للزبونة باقي حسابها وتبادلتا التحية. وفي طريقها للخارج أومأت لي المرأة الأخرى تحية، مُستحسنة زيي الرسمي الأنيق، وقفازاتي الجديدة النظيفة. رنَّ الجرس مرة أخرى، وفجأة أصبحتُ

وهي بمفردنا، وببطء نهضتُ على قدمي.

"كدتُ لا أعرفكِ،" قالت، دون أن تبتسم. كانت ترتدي تحت مئزرها تنورة سوداء وبلوزة كريمية بكمين فضفاضين. اكتسح الشيب شعرها البني، ولاحظتُ أنها ازدادت وزنا.

قلت: "اختلف شكل المتجر." وقفنا متباعدتين في المكان الصغير، دون أن تتقدم إحدانا للأمام.

"سأغلق المتجر ويمكننا الصعود للطابق العلوي. ذهب رابي إلى البنك؛ سيعود قريبا." خيم الصمت لمدة، ثم قالت: "هل ستبقين للغداء؟ آرتشي وتيد يعودان في الثانية عشرة والنصف."

"سأغادر إلى لندن عصر اليوم. لا يمكنني البقاء أكثر من ساعة أو نحوه. هل إلسي في المنزل؟"

مسحت أمي يديها في مئزرها وأخرجت رأسها من الباب. ونادت، مميلة رأسها نحو السقف: "إلسي؟"

بعد برهة، سمعتُ وقع قدميها على الدَّرج. لم تكن وثبات مدوية لشابَّة تنزل في اندفاع، إنما صوتا حذرا لشخص ينزل خطوة بخطوة، مصحوبا بنقرة عكاز. انتظرت، وأنفاسي متقطعة في قصبتي، ثم ظهرت فتاة طويلة ونحيلة عند الباب. كانت ترتدي بلوزة زرقاء قديمة من بلوزاتي، وتنورة تمسك خصرها النحيف. وتدلى شعرها الداكن في ضفيرتين. كانت تملك نفس فمي القلق وعيني البنيتين الجادتين، وقد فغر فمها واتسعت عيناها الآن فيما اندفعت حول طاولة البيع بعصاها، مع عرج بسيط.

"روبي! لم تقولي قط أنكِ قادمة."

استنشقتُ رائحتها، التي كانت مزيجا من نشارة القلم الرصاص والصابون المعطر، وأمسكتُ بها مدَّ ذراعي حتى يمكنني التمعن فيها، قبل أن أعانقها بقوة ظننتُ معها أنني سأكسر عظامها.

"فكرتُ في مفاجئتك."

"هل ستبقين؟ قولي رجاء أنكِ ستبقين."

"لا أستطيع، عليَّ أن أعود إلى لندن." استحكمت لهجتي دون مجهود، بسهولة وأريحية كارتداء معطف قديم.

"واحد من الصبيان سينام على الأرض. لن يمانعوا، أليس كذلك، يا ماما؟"

"قالت أنها لا تستطيع البقاء، يا إلس. اصحبيها للأعلى وأشعلي الغلاية؛ وسأحضر أنا بعض البسكويت."

صعدت إلسي أمامي على السلالم الضيقة، وعندما استقبلتني رائحة المنزل المألوفة في الردهة، سرَّني أن أشعر بقربها مني، دافئة وآمنة وعلى قيد الحياة. كنتُ قد اعتدت المنازل الكبيرة بمطابخها الواسعة، وأسقفها العالية، وغرفها المخصصة للطعام والمعيشة والدراسة، لذا بدت الحجرة الصغيرة المكتومة حيث أقمنا كل أمورنا من معيشة وطبخ، وإصلاح ملابس ونشر غسيل، بدت أصغر وأكثر بؤسا من أي وقت مضى .

والسي تحضِّر الشاي، فتحتُ باب غرفة الصبيان. نامت إلسي مع أمنا، واستأثر الصبيان بغرفتنا القديمة. والتي بدت بدورها أصغر، لا تتجاوز نصف مساحة غرفة نوم الأطفال في منزل

إنغلاند، أسرتها غير مرتبة وأرضيتها مستنقع من الأحذية والجوارب والحمَّالات. آرتشي وتيد كانا في العمل، فطويتُ كنزة على فراش تيد، فرفعتها إلى أنفي وأغمضتُ عيني. نظرت من النافذة إلى الفناء، حيث انبثق الحشيش في أجمة صغيرة بين البلاطات. كانت سقيفة دامسون والدجاج قد اختفوا منذ زمن، وإن كان قنُّهم قد ظل كما هو.

أزالت إلسي فُتاتا على الطاولة وفرشت غطاء مائدة منقوشا بزهور صفراء نحتفظ به للمناسبات. انضمت إلينا والدتنا مع علبة من بسكويت بيك فرين هزتها لتخرج بضعة منه في طبق. فكَّت مئزرها ووضعته على ظهر كرسي، لتجلس مُحدثة صريرا كبيرا وتنهيدة. كنت قد تركت باب غرفة الصبيان مفتوحة فتسربت عبره شمس الشتاء، لترسم مستطيل ضوء على الجدار ذي اللون الزبدي.

"كيف كانت الجنازة؟" سألت، وكنتُ قد قررت ألا أخلع قبعتي ومعطفي وقفازاتي.

"كانت حسنة. لائقة جدا." حكَّت شعرها وتجرعت الشاي من فنجانها.

"هل كان قداسا دينيا؟"

"إنهم لا يميلون إلى مثل هذه الأمور في تلك الأماكن. لكن القسَّ كان رجلا دمثا. قال كلاما لطيفا عن والدك. أرسلوا عربة لتأخذنا من المحطة - فخمة جدا. انتظرناكِ. لم نكن نعرف أستأتين أم لا. كنتُ سأحب رؤيتكِ هناك، لتؤدي واجب العزاء."

ارتشفتُ من فنجاني ثم وضعته على الطاولة. وسألت: "ودُفن هناك في المصحة؟"

"في المدفن. كان جميلا جدا، أليس كذلك، يا إلسي؟

أشجار، زهور، وأشياء كهذه. ومطلٌّ جميل على القرية . ليس مكانا سيئا للرقاد."

وفي تلك اللحظة، صُفق باب الشارع في الطابق الأرضي، فقفزتُ من مقعدي، مُجفلة أمي وأختي. صعد زوجا حذاء الدرج بتثاقل، وصاح صوت ذكوري: "لماذا المتجر مغلق؟"

"رابي!" هرعت لمعانقته. كان رجلا الآن، في التاسعة عشرة من عمره، ينحني ليدخل من الباب. لاءمته حلته البنية تماما، ورمى بطاقيته على الطاولة.

"ليس على المفرش النظيف،" وبخته أمنا، وسكبت له إلسي الشاي مُبتسمة.

"هذا هو السبب إذن!" صاح بابتسامة عريضة. "روبا رب! ماذا تفعلين هنا؟"

ارتدى زيه الخاص بالمتجر وباب الغرفة نصف مفتوح، فتحدث وطرح الأسئلة عبر الفتحة. ثم لم يلبث أن اضطر للنزول إلى الطابق الأرضي لتلبية طلبات الزبائن، وفي لمح البصر كانت الساعة قد مرت وتوجَّب عليَّ الانصراف للحاق بالقطار.

"لا تطيلي الغياب قبل الزيارة القادمة،" قالتها أمي دون حماسة، فكلانا يعرف أنني سأفعل.

ساعدتُ إلسي في رفع عدة الشاي وسألتها عن آخر مرة زارت فيها الطبيب.

"منذ مدة، متى كان ذلك؟" أجابت أمنا نيابة عنها. "كانت على ما يرام في الأشهر الأخيرة، وإن ساءت حال ساقيها في الشتاء

المنصرم."

سألت إلسي مباشرة: "هل يمكنكِ العودة إلى المدرسة؟"

قالت أمي: "نحن نحتاج إليها هنا. أنا ورابي نقف في المتجر، والصبيان يعودان إلى المنزل في استراحة غداءهما."

"ألا تستطيع تحضيره وتركه لكم هنا؟ لا يبدو ضروريا أن تلزم المنزل لمجرد هذا."

"ربما." كان الرد خاليا من الصدق والاهتمام. شعرتُ بالامتعاض القديم يطفو وبحثتُ تلقائيا عن قفازاتي، ثم تذكرتُ أنِّي أرتديها.

"يجدر بي الانصراف،" قلتها، وأنا أقبل خد أمي، وأستنشق رائحتها المعبأة بالطحين.

في الطابق الأرضي، عانقتُ رابي، وادخرتُ أطول عناق لأختي، التي وقفت على باب الشارع. وعندما لوحتُ لها، كان الرصيف قد ازدحم بالزبائن وظهرت إلسي في لقطات متقطعة، تلوح بقوة جعلت ضفائرها تتوثب.

***

كنتُ قد ودَّعتُ عائلة إنغلاند في ذلك الصباح. تسبب التحقق من الوصية في تأخير إذن مرور الأسرة إلى أستراليا، لكن محامي السيدة إنجلاند، وهو رجل مهذب ودقيق من خارج الحدود في لانكشاير، ذلك المحامي عمل بلا كلل لبيع المنزل وحجز تذاكر

مرورهم قبل عيد الميلاد المجيد. عرضتُ البقاء حتى موعد سفرهم، لكن لا أحد كان يعرف يقينا متى يكون ذلك، وسررتُ عندما أكدت لي السيدة إنجلاند أنها تستطيع تدبر أمر الصغار. بكوا جميعهم، حتى سول، وأنا كذلك، تشبثتُ بالرضيع لوقت أطول من اللازم. وقدم لي الثلاثة الآخرون هدايا. فصنعت لي ديكا كتابا عن زهور يوركشاير وكتبت قصيدة عن أراضي البور، وأعطاني سول ريشة دُرَّاجه العزيزة، وأوصت لي ميلي بدمية من دماها، ترتدي فستانا كنتُ قد حكته لها من أحد أثوابها القديمة. سلمتني السيدة إنجلاند كتاب تزكياتي في الآخر. كنت سأغادر بدونه، بعد أن نسيت تماما أنني طلبت منها كتابة تقييم عن فترة عملي في منزل هاردكاسل. أغلقتُ عليه حقيبة سفري؛ أما صندوقي فسوف يُشحن لاحقا على عنواني الجديد. كانت السماء تمطر في الوقت الذي أصبحت فيه العربة جاهزة، وجاء برودلي بمظلة ليأخذني.

بعد أسبوع أو أسبوعين من اختفاء فردة قفازي، وجدتُ إيميلي تناولني إياه في ملحق المطبخ. وكانت قد وجدته في الغسيل في أحد جيوب ديكا. شكرتها، وقد غمرتني مشاعر الدهشة والحنان، وأعدت فردة القفاز إلى المريول. كانت ديكا قبيل صعودي في العربة، هي أشد من عانقت، وأكثر من أسفتُ على تركه. تمنيتُ أن تملأ السعادة أيامها القادمة، وتخيلتها شابة تجلس في شرفة أرضية ظليلة مع مروحة ورواية في حجرها، وكأس ليمون إلى جوارها، وهي تتأمل مياه الخليج المتلألئة. كنتُ قد تركت لها بعض كتبي، ووعدت هي بإرسالي عنوانهم الجديد حال وصولهم. وقف خمستهم تحت مظلات كبيرة، والخدم إلى جوارهم. عندما شرعت العربة في الانطلاق عبر الفناء، التصقتُ بالنافذة لألوح بيدي لأطول وقت ممكن. وقفت

السيدة إنجلاند نحيلة ومنتصبة في ثوب أسود حالك، وهي تحمل تشارلي حول خصرها. كم بدت صلبة الآن، مجبولة من كهرمان أسود لا كريبًّا رقيقًا.

***

تغيَّر ميدان بيمبريدج تماما. كان رقم سبعة يجري تجديده، فتناوب البنَّاؤون والنقَّاشون صعود ونزول واجهة المنزل. تنحيتُ جانبا على الرصيف لإفساح الطريق لعامل يحمل ملء ذراعيه من بكر الدهان؛ شكرني وحمَّلهم في عربة. عند البوابة، توقفتُ ونظرت حولي وخطر لي كم يختلف شكل الميدان في الشتاء، مع السماء الغائمة والمنازل البيضاء.

جلسنا في شقة سيم. أعدت المديرة قهوة على الموقد، وتناولت كل منا شريحة من كعكة الأناناس المقلوبة، دافئة من المطبخ. لم أكن أتوقع أن أشعر بكل هذا الارتياح لعودتي بين المربيات بأثوابهن الزرقاء ومآزرهن المشمعة. وأنا أخطو من الباب الأسود المصقول، شعرت وكأنني طائر يعود إلى سربه. نقلت خادمة أغراضي إلى غرفة نوم -خاصة هذه المرة- وتبعتُ سيم على السلم إلى آخر طابق. لم أكن قد حظيتُ بشرف زيارة غرفها الخاصة من قبل، وتأملتُ المكان باهتمام. شغلت المديرة عليَّة المنزل، حيث مال السقف وأطلت نافذتان صغيرتان على الميدان. انتشرت أطباق خزفية على الحوائط المكسية بورق حائط مزخرف، ورُبطت الستائر على جانبي المدفأة، التي قبع أمامها زوجا كراس بظهر مخملي. كان المكان أكثر بهرجة

مما توقعت؛ لا أعرف لماذا لم أتخيل سيم امرأة مطلقا، ولم أستطع تصورها تشغل فراغها بالأمور التقليدية.

"ربما رأيتِ أعمال تجديد في رقم سبعة،" علّقت، وكان مظهرها كما هو، بغرّتها المجعدة وظهرها الصارم، وأصابعها الملطخة بالحبر.

"أجل،" قلت، ممتنة لانتهاء المجاملات، إنما مرتبكة بقدر ليس بقليل. كنت قد وصلت إلى ميدان بيمبريدج متوقعة تأديبا، أو توبيخا على الأقل. لكنها بدت كمن وقفت على تغيير مهم في شخصي؛ كانت حساسة ومتنبِّهة، أقرب للمراعاة. وجدت الأمر موتِّرا، فهيّأتُ نفسي لغضبة بدا أنها لن تأتي.

سألت: "هل انتقلت إليه عائلة جديدة؟"

"كلا، إنه لنا، في الواقع. نحن نتوسع."

"أوه؟"

"ستفتتح حضانات نورلاند في غضون أسابيع. سينتهي العمل في العام الجديد. لدينا ستة أجنحة، كل منها يحوي أسرَّة لثلاثة أطفال، وقد اكتملت قائمة الانتظار بالفعل." تحدثت برضا وفخر كبيرين.

"رباه،" قلتها بانبهار. "من أين يجيئون؟"

"أغلبهم من أبناء الإمبراطورية: موظفون هنود وما إلى ذلك. بعضهم سيقيم هنا لوقت قصير، أثناء سفر آبائهم."

"هذه أخبار رائعة."

"لكننا هنا لنتحدث عنكِ، يا دادة ماي." مالت سيم للأمام. "والآن، ما هو سرُّكِ الذي يجعل الناس يرغبون في الهجرة؟"

بعد توقف مذهول، أطلقتُ ضحكة واهية، وأشرق وجه سيم بنزعة للمزاح؛ كانت في مزاج بهيج لم أستطع مجاراته. حسن، أنا لم آت لأمزح؛ بل لأفسِّر. أخرجتُ من جيبي البطاقة البريدية التي تحمل صورتي مع إلسي وقبطان المركب الإرشادي ورجال الشرطة، وناولتها لها. فاستقبلتها ببقية ابتسامة، ظنا منها أنني أريها صورة عائلية. تحولت الابتسامة إلى ارتباك وهي تفحصها، ثم ناولتها قصاصة من جريدة ويست أوف إنغلاند أدفيرتيزر. شاهدت حاجبيها ينعقدان، وتجاعيد فمها تزداد تحديدا وهي تقرأ. وفي غضون ثوان، تغير تعبير وجهها بالكامل، وبالوقت الذي وصلت فيه إلى الفقرة الثانية، أخبرني تنفسها الحاد أنها وجدت اسمي.

"هذه أنتِ." حدقت في وجهي بعدم تصديق.

جلستُ صامتة، وأنا أشعر بتأثر أكبر مما توقعت. كنت قد عانيتُ لوقت طويل من تعاطف الناس. لطالما أصروا على منحي إياه، لكنه كان عبئا ثقيلا جدا، ولم تكن بي رغبة في حمله.

"آه، يا دادة ماي." امتلأت عيناها بالدموع. فترقرقت عيناي في المقابل، وأشحت بهما.

"لم أرِكِ هذا لتشعري بالأسف من أجلي. بل فعلتُ حتى لربما تتفهمي لماذا تعييناتي لا تنفك تخيب."

انحنت سيم وأمسكت يدي. وبهذا الوضع قرأت بقية المقال، وعندما وصلت إلى نهايته، أطلقت تنهيدة عميقة.

"تمنيتُ لو أخبرتني بهذا من قبل. أتفهم لماذا لم تفعلي، لكني تمنيتُ لو كنتِ فعلتِ."

"لم أكن أريد لأحد أن يعرف."

"بالتأكيد. وأختك إلسي؟ كيف حالها؟"

"إنها بخير. رأيتها هذا الصباح، قبل مجيئي إلى هنا."

أومأت برأسها. "إن تعييناتك لا تخيب، يا دادة ماي. بل أنا من لا أرى في الأمر سوى أنني خيَّبتك."

"لم تفعلي بالطبع، يا آنسة سيمبسون. لكني أخشى أنني جئتُ لأطلب واحدا آخر." أطلقتُ ضحكة جافة. "أقصد تعيينا. الثالث لي. وأعدكِ أنه سيكون الأخير، وإن خاب هذا أيضا، فسوف أترك المعهد، بموجب القوانين."

"لن تفعلي شيئا كهذا." كانت نبرتها حادة. "لم أكن حتى لأحلم بالأمر. والآن..." أطلقت تنهيدة سريعة. "لربما بهذه المناسبة أفصح عن الأمر. لقد أودع مبلغ باسمك في حساب الشركة بالأسبوع المنصرم، وخُلِّص المبلغ بالأمس. أخطرتني السكرتيرة بذلك، وراسلتُ المتبرع على الفور للسؤال عن احتمال إرساله بالخطأ، لكنه أكد لي أن هذا لم يحدث، وقال أنه يرجو ألا يضايقنا تحويله إليك."

"أي إيداع؟ من أرسله؟" أصابني دوار وحاولتُ أن أحسب كم أسبوعا مر على وفاة أبي.

"أربعون جنيها من سيدة تشارلز إنغلاند. كاتبتها في منزل هاردكاسل، وردت مباشرة."

"أربعون جنيها؟" كنتُ مذهولة. "ولكن هذا راتب عام كامل."

"حقا. أقرُّ أنني لم أشهد من قبل مثل هذه المكافأة السخية."

تراجعتُ في م قعدي بانشداه. "هل أنتِ متيقنة أنها قصدت

إرسال هذا القدر؟"

"استعلمتُ بالطبع، وتم تأكيد المبلغ."

غرقتُ، وقد غمرتني المشاعر، في الكرسي. بإمكاني تدبير أفضل مساعدة طبية موجودة لإلسي. بإمكاني أن أدفع أجر عاملة تنظيف، بل حتى خادمة، لتهتم بالعائلة. بإمكاني البحث عن منزل منفصل، حتى لا تضطر شقيقتي لاستخدام السلم. وبوسعهم تأجير الشقة التي تعلو المتجر واستخدام العائد في فتح متجر آخر...

قالت سيم: "أرى بوضوح أن الأمر يفوقك، ويحقُّ لكِ ذلك. لكن دون رغبة في المزيد من إرباكك، أود التحدث إليكِ في شأن آخر، قد ذكرته بالفعل. دور الحضانة."

"عفوا؟" أفقت، وعيناي ترمشان.

"إنني في سبيلي إلى توظيف فريق من المربيات للعمل في رقم سبعة. سوف يعتنون بالأطفال ويدربون المربيات الجديدات. أحتاج إلى ستة في المجموع، واحدة لكل جناح. وسأعين أيضا ناظرة، والتي جاءني لها عدة متقدمات نموذجيات، بالإضافة إلى منصب شاغر لرئيسة مربيات، لكن الوظيفتين السابقتين تتطلبان خبرة أكثر مما لديكِ. هذا ليس مهما؛ فكما قلت، توجد ستة أماكن متاحة. أود منكِ أن تفكري في التقدم بطلب شغل واحد منهم. أتفهم بالطبع، لو أنكِ تفضلين تعيينا مع عائلة أخرى، لكني أعتقد أنكِ ستكونين معلمة ممتازة، يا دادة ماي. تملكين الطباع المناسبة تماما لذلك، وتعلمين أنني أتبنى الرأي القائل بأن هذا النوع من العمل يتعلق بالشخصية أكثر مما يتعلق بالمؤهلات. لن تكوني معلمة فقط بالطبع، بل مربية

أيضا، لذا فهي حضانة وفصل دراسي. عمودان لهما نفس الثقل. أريد منكِ التفكير في الأمر، رغم أن تلك النقود تغير الأمور كثيرا بالطبع، وتمنحكِ خيار الحصول على استراحة من العمل كله. إلا أنني لا أوصي بذلك. يحسن بالمرء أن يشغل نفسه. الأيدي العاطلة وما إلى ذلك."

جلستُ طويلا في صمت، أستوعب ما قالته وأراقب نار المدفأة. بعد قليل، قلت: "أود إن تسمحي لي، يا آنسة سيمبسون، في الذهاب إلى الكوخ المجاور للبحر. أعني لو أن به متسعا لي. أحتاج بعض الوقت لأفكر، وقد أعجبني المكان جدا هناك."

"به متسع، وأسمح لكِ. إنه في العادة يكون شاغرا في فترة عيد الميلاد المجيد. سأطلب من مدبرة المنزل أن تعدَّ لكِ سريرا. خذ كل الوقت الذي تحتاجين."

"شكرا لكِ."

"دادة ماي، اسمحي لي أن أقول شيئا. قبل أن تندفعي في إنفاق هذا المال على غيرك، أو تحسين ظروف شخص آخر" نظرتُ إليها في اندهاش، فقابلتني نظراتها الهادئة والثابتة. "تكتَّمي عليه لفترة. إنه ملكك. لا أحد يلزمه أن يعرف بشأنه خلاف الشخصين الجالسين في هذه الغرفة. وأمر آخر: لم يخطر لي قط أن تكوني كابدتِ مأساة كهذه، لكن لا بد لي من القول أنكِ تغلبتِ عليها بصورة رائعة."

"شكرا لكِ، ولكن-"

"دعيني أكمل كلامي. مثل هذه الأمور تصبح دائما جزءا

منا، بطريقة أو أخرى، وأنا لا أعني أن تحاولي نسيانه. لكني لم ألتقِ بعد بطالبة أو متدربة جسَّدت، البأس في الشدائد، أكثر منكِ. إنني أقدِّركِ كثيرا. والآن، هلا أخذنا كوبي القهوة هذان للأسفل؟ وإلا عاقبتني كوك أشد العقاب."

***

بعد ذلك بيومين، في قطار بخاري متجه إلى الساحل الجنوبي، جلستُ وكتاب التزكيات الأسود الثقيل في حجري، أنظر من النافذة إلى الحقول. خلعت قفازاتي ومررتُ يدي فوق الغلاف الجلد، أحلم وأفكر في الخطابات التي سأكتبها حال وصولي: إلى ديكا، أصف لها المنحدرات ذات اللون الطباشيري والشاطئ المغطى بالحصى؛ وإلى السيدة إنجلاند، أشكرها على المال؛ وإلسي أيضا. كنت قد أخذت بنصيحة سيم وقررت ألا أتخذ أية قرارات، وأنتظر في المقابل أن تظهر لي الإجابات. أمتلك فرصة عمل، وفي نفس الوقت إمكانية ألا أعمل على الإطلاق. أمتلك مالا في البنك، وكوخا ينتظرني، بمدبرة منزل، ونافذة صغيرة تطل على الشاطئ. كان العام يشرق على نهايته، وأردتُ توديعه من بعيد، وألا أنظر إلى شيء سوى السماء الخاوية والبحر اللامتناهي. لأول مرة في حياتي، كنت أمسك بزمام أموري، وأردتُ التلذذ بكل لحظة.

فتحتُ كتاب التزكيات، وقلبتُ صفحة صورتي الفوتوغرافية، والقواعد، وشهادة تخرجي ومشاركة سيدة رادليت الأنيقة. بدا ذلك كله من زمن بعيد، من حياة أخرى بالكامل. وصلتُ إلى الجزء الثاني، فأعجبتني اليد الراقية، التي وقعت بخط منمّق: ل مخرَّمة، وإي مموَّجة. في كعب الكتاب دُسَّت رسالة صغيرة مطوية لم ألاحظها

من قبل. وبحاجبين مقطبين، فتحتها بحذر، ووجدت داخلها كلمات قصيرة بنفس الخط: شكرا لأنكِ أعدتنا إلى الحياة. أغلقتُ الكتاب وأرحتُ رأسي على المقعد لأشاهد الريف يمر أمامي، فيما أعود بذاكرتي إلى صباح يوم رحيلي، عندما سلمتني السيدة إنجلاند خطابا في فسحة السلم. كان من إلسي.

قالت: "أنا آسفة، نسيتُ أن أعطيكِ هذا."

نظرت إلى ختم البريد، بتاريخ يعود إلى ثلاثة أيام، ووضعته في مئزري. ابتسمتُ، وتراقص قرطاها الكهرمانيان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكـر

كان تأليـف روايـة خـلال فتـرة جائحـة عالميـة تجربـة غريبـة. بـدأتُ أول مسـودة لـ السـيدة إنجلانـد فـي كانـون الثانـي ٢٠٢٠، قبـل أسابيع من إعلان أول عزل تام. وكنت بالفعل قد بدأت عزلي الخاص، بالعيش وحـدي فـي هيبـدن بريـدج، فأعمـل ولا أغـادر المنـزل سـوى للتمشـية اليوميـة والمشـاوير الأسـبوعية للسـوبر ماركـت. أنـا ممتنـة لأصدقائـي وعائلتـي علـى زيارتـي وإينـاس وحدتـي؛ وقـد تعلمـتُ خـلال العـام الماضـي كم أن التواصـل البشـري ضـروري لـي، لأسـتمد الإلهام والطاقـة، التنويـع والتجـدد. العطـلات الأسـبوعية التـي كنـت فيها أعبر أراضـي البـور مـع الأصدقـاء والمسـاءات التـي كنـتُ فيهـا ألعـب لعبـة تركيـب الصـور مـع أقاربي، كانت رائعة، وأمدَّتني بمؤونة تكفيني خلال مـا سـيتحول إلـى عـام وزيـادة بـدون الاثنيـن.

لقـد قاطعـت محررتـي، صوفـي أورمـي، عملهـا لأجـل هـذا الكتاب. إن استنباط ما يحدث في القصة يتطلب مني عادة مسودتين على الأقل، ولكن يا صوفي، كم أنتِ محررة ماهرة ومُشجِّعة وطيبة،

ولا تشعرينني أبدا وكأنني أمنحكِ شخابيطي الي أرى عليها مسوداتي الأولى دائما. أشعر بأنني محظوظة جدا بالعمل مع شخص يخرج أفضل ما عندي، وممتنة بلا حدود لأن العمل جمعني بشخص لديه مثل هذه الموهبة. أشكر فريق بونيير الأعم -فرانشيسكا راسل وكلير كيلي وإلينور ستاماير (اللهم ارزقنا أكل الشطائر في القطار بيوم قريب)، ومارغريت ستيد وكاتي لومسدين وستيفن دومن وفيليس ماكيون وكيت باركين وإليز بيرنز وفينسينت كيلير وستيوارت فينجلاس ومارك ويليامز وستايسي هاميلتون وجيني ريتشاردز ونيك ستيرن وآلان سكولان وروبين هاك وجيني هاروود وجيف جاميسون وبيرميندر مان. أشكر أيضا باتريك نولز ولوسي روز كارترايت.

وكالعادة، أشكر وكيلتي، جولييت موشينز، لمساندتي وبذل أقصى ما لديها والحفاظ على نمط الحياة الذي تستحقه جوني. أشكر أيضا ليزا دي بلوك وكيا إيفينز ودين باتريك لتسيير الحياة في المنزل.

خالص امتناني لمساعدة وإرشاد دي بيرن ود. جانيت روز وكريستوفر جونز وكيت مورغان من كلية نورلاند، ومارك ستيفنز من مكتب أرشيف بيركشاير.

أشكر عائلتي وأصدقائي على دعمهم المستمر لي. لم تتوفر مقاعد جمهور هذا العام، لكنكم تحتلون دائما الصف الأول في قلبي. وأشكر زوجي، آندي، الذي كان سعيدا بابتعادي ٢٥٠ ميلا لكتابة هذه الرواية. لم يتوقع أحدنا أن ابتعاد ثلاثة أشهر سيؤدي إلى عام كامل من البقاء معا. وبفضلك، أحببت كل يوم فيه.

لقد خسر الكثير خسارة عظيمة هذا العام. وأخيرا وليس آخرا، خالص امتناني لمصلحة الخدمات الصحية الوطنية البريطانية والعاملين في القطاعات الحيوية الذين بذلوا وقتهم وفقدوا حياتهم أثناء جائحة كوفيد -19

ملاحظة المؤلفة

إن السيدة إنجلاند هي عمل خيالي، لكن شخصية روبي ماي مستوحاة من روبي براون التي ألقاها والدها تشارلز ألبرت براون، هي وشقيقتها إلسي، من فوق جسر كليفتون المعلق، ليلة 18 أيلول 1896. كلتا البنتين نجتا من سقوط بلغ ارتفاعه 245 قدما (75 مترا). ورغم أن روبي في البداية لم يكن متوقعا لها أن تنجو من إصاباتها، إلا أن البنتين خرجتا من مستشفى بريستول الملكي بعد بضعة أسابيع. أما والدهم، تشارلز، بقال من بالسال هيث، برمنغهام، فقد أُدخل إلى مصحة برودمور للمجرمين المجانين (مستشفى برودمور حاليا). ثم سُرِّح في كانون الأول 1899 وعُهد به إلى زوجته.

أسئلة مجموعة القراءة

1. تبدأ رواية السيدة إنجلاند عندما تنتقل روبي من لندن إلى بلدة نائية في يوركشاير. كيف تؤثر المناظر الطبيعية والموقع على الأحداث في هذه الرواية؟

2. كيف يؤثر التأهيل كمربية أطفال في معهد نورلاند على مسار حياة روبي؟

3. ماذا كان انطباعك عن شخصية السيدة إنجلاند؟ كيف تغيرت نظرتك لها عبر الكتاب؟

4. كيف تستعرض الرواية ثيمة الزواج؟

5. ما هي أوجه التشابه التي تراها بين أسرة روبي وعائلة إنغلاند؟ كيف تؤثر تربية روبي على سلوكها؟

6. كيف تنظر الرواية إلى الجندر والأدوار الجندرية في هذه المرحلة من التاريخ؟

7. ما هي الملامح الإدواردية (أي تنتمي لعهد إدوارد السابع) المميزة في هذه الرواية؟ وكيف كانت الأحداث ستختلف برأيك لو أنها وقعت في حقبة تاريخية أخرى؟

8. تمتلك روبي بصفتها مربية، وضعا مجتمعيا معقدا. كيف تبحث الرواية دور الطبقة المجتمعية والمال في حياة شخص؟

9. ما هو في اعتقادك شعور روبي تجاه سيد بوث؟

10. لماذا برأيك فعل والد روبي ما فعله؟

11. ماذا تفهم من الفقرة الختامية للرواية؟

عزيزي القارئ،

آمل أنك استمتعت بقراءة السيدة إنجلاند. إذا رغبتَ في الحصول على المزيد من المعلومات عنها، وعن روايتي السابقتين، فلربما تحب الانضمام إلى نادي القراء الخاص بي. لا تقلق - فهو لا يلزمك بأي شيء، وبدون أي مقابل، وستظل معلوماتك الخاصة قيد السرية. ستستقبل تحديثات حول كتبي، بما في ذلك العروض وأحدث المنشورات وحتى الهدايا الدورية! يمكنك إلغاء الاشتراك في أي وقت. للتسجيل، كل ما عليك فعله هو زيارة موقع:

.www.staceyhalls.com

يمكنك أيضا التواصل معي عبر Stacey_Halls على تويتر

أو StaceyHallsAuthor على إنستغرام. أتمنى أن أسمع منك قريبا، وأن تستمر في قراءة كتبي والاستمتاع بها.

شكرا لدعمك،

ستايسي

مكتبة
t.me/soramnqraa

سمعتُ طقّة خافتة،

وفجأة انبعث ضوء في مدخل باب يُفتح لآخره. خرجتْ منه امرأة في روب منزلي ينسدل فوق قميص نوم أبيض. تجمدتُ، وكذلك المرأة بوجه يحمل خوفا وارتباكا هائلين، حتى ظننتني أخطأت المنزل من أساسه.

قلت: "السيدة إنجلاند؟"

"ساحرة، أخّاذة، رواية فاتنة قوامها العاطفة والغموض. تأسرك حتى الصفحة الأخيرة"

كيت ويليامز

"محفوفة بخطر يعود للعصور الوسطى. تسلب الألباب قطعا"

لويز هير، مؤلفة رواية ذيس لافلي سيتي.

"ثمة شيء غير طبيعي هنا."

كنتُ أعي أن سيد بوث يركز أنظاره عليّ، وخيِّل إليّ أنه يحبس أنفاسه.

"ماذا تقصدين؟"

وُلدت ستايسي هولز في لانكشاير وعملت صحفيَّة قبل أن تُنشر روايتها الأولى ذا فاميليارز في عام ٢٠١٩م. وكانت ذا فاميليارز هي الرواية البكر الأفضل مبيعا في ذلك العام، وقد فازت بجائزة بيتي تراسك وترشحت في القائمة القصيرة لأفضل باكورة إنتاج التابعة لجائزة الكتاب البريطاني. أصبحت روايتها الثانية ذا فاوندلينج، هي أيضا من أفضل عشرة كتب مبيعا في الصنداي تايمز. أما مسز إنجلاند فهي روايتها الثالثة.

مكتبة

www.darmolhimon.com
ISBN 978-9948-458-33-3
9 789948 458333
MANILLA PRESS
ملهمون للنشر والتوزيع MOLHIMON